المركز القومى للترجمة

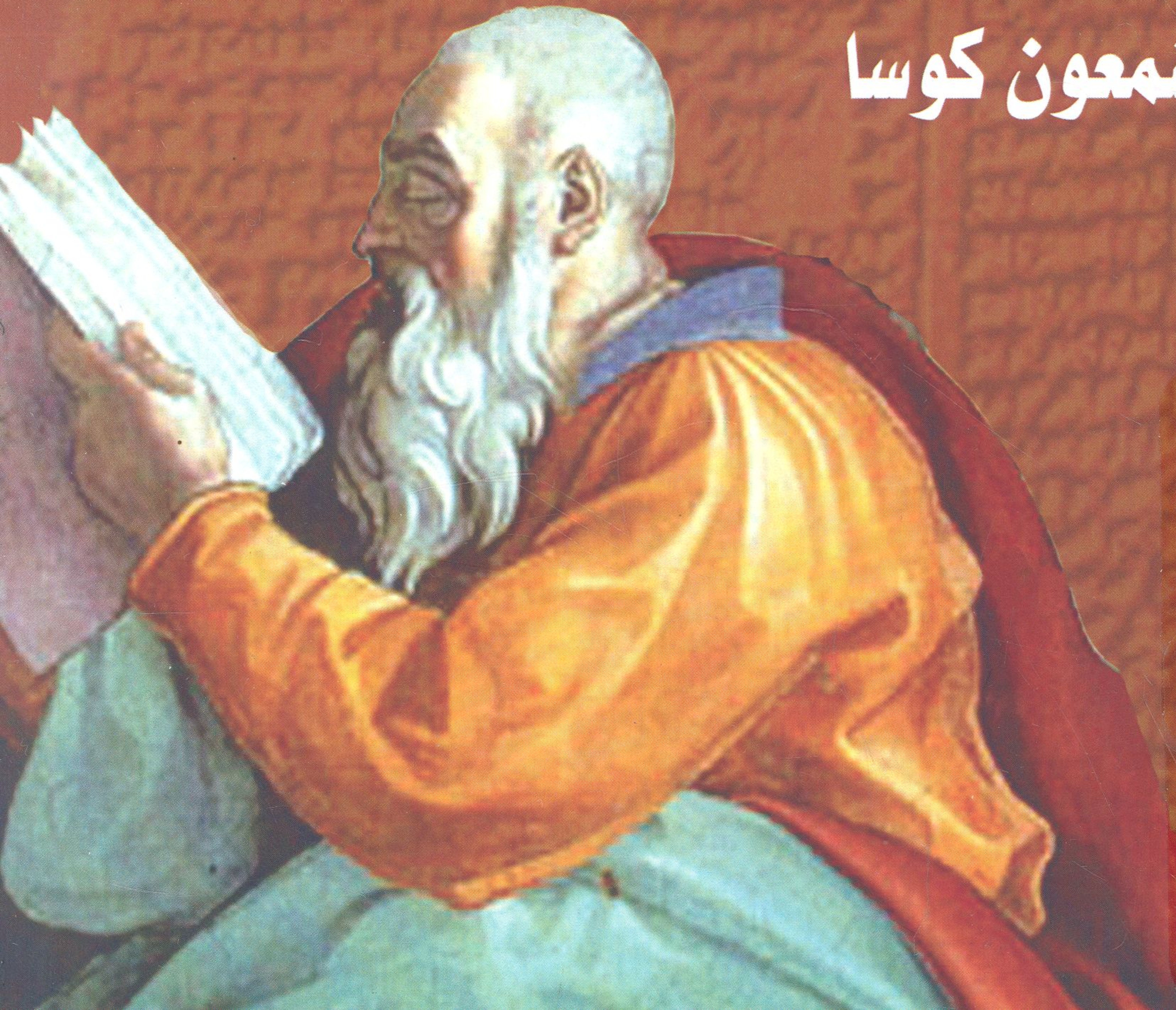
المشروع القومى للترجمة

إفرام يوسف

الفلاسفة والمترجمون السريان

ترجمة

شمعون كوسا



1471

الفلاسفة والمترجمون السريان

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1471
- الفلاسفة والمترجمون السريان .
- إفرام يوسف
- شمعون كوسا
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

La Floraison des philosophes syriaques

Par: Ephrem Isa Yousif

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

الفلاسفة والمترجمون السريان

تـــأليــــــف : إفرام يوسف

تــرجمــــــــة : شمعون كوسا



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

يوسف ، إفرام .
الفلاسفة والمترجمون السريان / تأليف : إفرام يوسف ،
ترجمة : شمعون كوسا
ط١ - القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠ .
٣١٦ ص ، ٢٤ سم
١ - الفلاسفة اليونانيون .
٢ - الفلسفة اليونانية .
(أ) كوسا ، شمعون (مترجم) .
(ب) العنوان . ٩٢١,١

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٩٧٥
الترقيم الدولى I.S.BN.978-977-479-499-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

المحتويات

القسم الأول

الفلاسفة السريان فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية

القسم الثانى

الفلاسفة السريان فى إمبراطورية الفرس الساسانيين

القسم الثالث

الفلاسفة السريان فى عهد الأمويين الأوائل

القسم الرابع

الفلاسفة السريان فى عهد العباسيين

القسم الخامس

الفلاسفة السريان فى عهد المغول

القسم السادس

اتجاه الفلاسفة السريان نحو الشرق والغرب

انتشار المسيحية النسطورية

تمهيد

يبدو اليوم أن مشاهد الزمن تسير بهدوء نحو القرون الغابرة فى الشرق، وقد كتبت شعوب عديدة منذ عصر السومريين والأكاديين التاريخ الطويل للبلد العريق الواقع بين نهرى دجلة والفرات، هذان النهران مثَّلا ويمثلان طريقا مأهولا لذاكرتنا الطويلة. لم تكن وديان الطمى والغرين والفخار قادرة على طمس تراثها.

برز السريان من صلب الشعوب الشرقية العريقة، فمن كان هؤلاء القوم؟ وما لغتهم ؟ هل هم ورثة الأشوريين القدامى؟ أو هم أحفاد البابليين أو الآراميين الذين استقروا فى سوريا وفى بلاد ما بين النهرين ؟

شكل السريان شعبا واحدا، بتاريخه وثقافته ولغته، لكنهم انقسموا فى القرن الخامس الميلادى ليشكلوا طائفتين:

السريان الشرقيين الذين أطلق عليهم تسمية "النساطرة"، والذين استقروا بشكل خاص فى بلاد ما بين النهرين وفى إيران.

والسريان الغربيين أى "اليعاقبة"، الذين سكنوا فى سوريا وفى أعالى بلاد ما بين النهرين، إضافة إلى الموارنة فى لبنان.

كانت اللغة السريانية تمثل لهجة من لهجات اللغة الآرامية، وانتشرت اللغة الآرامية التى تنتمى إلى اللغات السامية، فى الشرق الأدنى فى الألفية الأولى قبل الميلاد. وعندما استولى الفرس الأخمينيون على مدينة بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، قاموا بفرض هذه اللغة لغة رسمية على إمبراطوريتهم كلها .

ثم ما لبثت أن تفوقت اللغة الإغريقية وحلت محل اللغة الآرامية، فى العصر الهيلينى الإغريقى الذى بدأ اعتبارا من وفاة الإسكندر الكبير سنة ٣٢٣ قبل الميلاد. ولكن اللغة الآرامية تعرضت للتطور والتنوع مما أدى إلى خلق لهجات مختلفة، مثلت برهانا أكيدا على المقاومة التى واجهتها من قبل الجهات الإغريقية المستعمرة وإصرارها على التمسك بالثقافة المحلية.

وظهرت الكتابات السريانية الأولى فى بداية القرن الأول الميلادى، وكان الأمر يتعلق فى الواقع، بكتابات منحوتة أو منقوشة على الصخر أو على شكل مسلات. ثم تطورت اللغة السريانية حول مدينة الرها التى جعل منها الأوسرهوينOsrhoène عاصمة لملكتهم، وبدأت اللغة والثقافة السريانية فى الإشعاع عند نهاية القرن الثانى الميلادى، فى مدن مختلفة مثل نصيبين وأربيل وسلوقية وقطسيفون.

كانت الكتابة السريانية تستخدم حروفا صامتة مشتقة من اللغة الفينيقية. وتعرضت كتابة هذه اللغة وحروفها للتغيير بعد القرن الخامس الميلادى، لتتخذ حروفها شكلا مدورا، عرف باسم "الإسترنجيلى". وهكذا ساعد هذا التغيير فى الكتابة على انبثاق الآداب التى اهتمت بنشر الثقافة السريانية.

من وجهة النظر الدينية، قبل السريان الديانة المسيحية، وانتشرت فى مناطق أعالى بلاد ما بين النهرين منذ نهاية القرن الأول الميلادى، بفضل التبشير بهذه الديانة من قبل التلميذين أدى ومارى، كما تسرده لنا التقاليد المتوارثة عبر العصور. وازدهرت هذه الديانة بين التجار اليهود الذين كانوا يمارسون تجارة الحرير وعطور الجزيرة العربية والتوابل والبهارات والمجوهرات والسيراميك. وتطورت الديانة المسيحية منذ القرن الثانى الميلادى وأصبحت حوالى سنة ٢٠٥ بعد الميلاد الديانة الرسمية للملك أبجر الثامن ملك مدينة الرها المعروفة، حيث كانت اللغة السريانية منتشرة. وأدى اعتناق هذه الديانة إلى القيام بالترجمات الأولى للأناجيل إلى اللغة السريانية وظهور كتاب تاطيانوس Tatien المعروف باسم الدياتيسارون.

تعرض السريان لهجمات الرومان والفرس الساسانيين على أراضيهم التى عصفت بها رياح التاريخ الشديدة والعميقة عمق التاريخ نفسه، ناهيك عن غزوات العرب والأتراك السلجوقيين والمغول والعثمانيين. وتغيرت الإمبراطوريات داخل أراضيهم وسالت دماؤهم الغزيرة. لكن، على الرغم من الأعاصير والمآسى، استطا ع السريان المحافظة على تكوين تراثهم الثقافى وتطويره .

استطا ع سريان بلاد ما بين النهرين وسوريا بناء هذا التراث بكل أناة، وحاولوا دائما خلال أكثر من ألف سنة، اعتبارا من القرن الثانى ولغاية القرن الرابع عشر الميلادى، إيجاد حلول للمشاكل الكبرى المتعلقة بمجالات الفلسفة والعقائد الدينية. لذلك صوبوا أنظارهم إلى الوراء، نحو بلاد الإغريق الذهبية التى كانت قد قطعت شوطا كبيرا فى تطوير العلوم والفلسفة، واخترعت طريقة التفكير المنطقى، وأنشأت أسس حضارة كبيرة. وهكذا قام السريان بإرواء عطشهم الفكرى عبر الانتهال من ينابيع العبقرية الإغريقية، فقد كانوا يدركون أن هدف العالم يتمثل فى التطور والرقى.

كان السريان يريدون الوصول إلى تعميق التراث الإغريقى للعصور القديمة، استناداً إلى حكمة المفكرين القدماء. واستطاعوا خلال حقبة زمنية مبكرة، عن طريق مدارسهم مثل مدرسة أنطاكية ونصيبين والرها، الحصول على الأعمال الفلسفية والعلمية الإغريقية. وبدأوا بتعليم مبادئ علم المنطق المرتكز على أفكار أرسطو الفلسفية، والتى استخدمت أسلوب التأويل فى تفسير النصوص الدينية.

لقد فتح العلماء السريان صفحات المؤلَّف المشهور الأورجانون **organon** لأرسطو (٣٤٨ – ٣٢٢ ق.م)، كما لو كانوا يفتحون خزانة من الخشب الثمين، حيث استطاعوا من خلاله نشر عبق عطور الأرض البعيدة المشعة بالعقل الحكيم، وترجموا إلى لغتهم عدة أجزاء من مجموعة علم المنطق هذه، وكان الأورجانون يتكون من ستة كتب كاملة.

ونقلوا من اللغة الإغريقية إلى اللغة السريانية بعضا من الأعمال المهمة التى حررها جالينوس (١٣١– ٢٠١ م) الطبيب والفيلسوف المشهور من مدينة بيرغام .

وهكذا نُقل الكثير من الكتب الفلسفية الإغريقية إلى الحضارة العربية، بعد الفتوحات العربية، عن طريق المفكرين المسيحيين السريان الذين لعبوا دور المترجمين والمفسرين والملخصين ومؤلفي القواميس، والذين عملوا ضمن حاشية الخلفاء العباسيين فى مدينة بغداد خلال الفترة العباسية المزدهرة. وأشهرهم فى العالم بدون أدنى شك هو الفيلسوف حنين بن إسحاق (٨٠٨ - ٨٧٣).

تجدر الإشارة إلى أن السريان هم الذين أنهوا فى هذه الفترة ترجمة كتب الأورجانون والفيزياء وعلم الأخلاق لأرسطو.

دخلت "بلاد ما بين النهرين" حوالى سنة ١٠٤٥ ميلادية تحت سيطرة الأتراك السلجوقيين، وواصل البحاثة السريان دروسهم الفلسفية، وقاموا بشرح أعمال أرسطو، وبدأوا بمحاورة المسلمين وتأليف الموسوعات.

ثم وصل المغول إلى بلاد ما بين النهرين فى القرن الثالث عشر الميلادى، واعتنقت عدة قبائل الديانة المسيحية حسب المذهب النسطورى عن طريق المبشرين. وعلى الرغم من المدن التى تعرضت للاجتياح وأعمال العنف القاسية التى تحملوا ضرباتها – تمكن العلماء السريان من نشر إشعاعاتهم العلمية والفلسفية خلال هذه الفترة المضطربة كلها .

أنا أنتمى إلى هذه الأمة السريانية التى طالما لمع مصيرها على امتداد التاريخ، وانتشرت إشعاعاتها عبر وديان وسهول وشواطئ الشرق القديم والحديث على حد سواء، والتى تعرض مصيرها مع ذلك ولأكثر من مرة، فى بعض العصور، لأكثر من قدر مأساوى. وأنا أحمل اليوم فى ذاكرتى سمو العلماء والفلاسفة الذين ساهموا فى إنشاء ثقافة سريانية غنية، فهم الذين أوصلوا عبقرية شعبهم بصورة خاصة إلى مثل هذه الشهرة.

سوف أروى لكم فى الصفحات اللاحقة حياة هذه الشخصيات العظيمة.

المقدمة

فجر الحكمة والفلسفة

مسيرة سكان بلاد ما بين النهرين والإغريق

نتقدم على ضفاف هذا الفجر القديم قدم الزمان، فجر جنة عدن وعيون المياه الغزيرة والأنهار الواسعة وأغانى الطيور والعصافير. هنا ولدتْ، فى أعماق الرصانة والحماسة، الكلمة والحكمة التى غزت قلوب محبى المعرفة.

قام السومريون وبعدهم البابليون والأشوريون، ومنذ الألف الثالث (ق.م)، بالتفكير وبالتعمق فى معرفة أسرار الكون، وطرحوا مشكلة الوضع البشرى عبر تساؤلاتهم المتعددة :

كيف بدأ الكون ؟

ماذا تعنى الحياة البشرية ؟

كيف السبيل للتخلص من الموت ؟

أسئلة عديدة، تلك التى كانت تدور بذهن جلجامش ملك أوروك (أيرك فى الكتاب المقدس)، بطل الملحمة المشهورة.

استمرت شعوب الشرق القديم فى طرح الاستفسارات عن مسألة الخلق ونظام الكون ودور الآلهة وقدر الإنسان ومصيره وسر الموت، والتجأت فى محاولاتها للإجابة عن هذه التساؤلات إلى خيالها فى سرد القصص والحكايات، وقامت بتفسير العالم من

خلال الأساطير المتوهجة كمصدر لكل شيء وتفاعلت معها، كما قامت أيضا باختلاق شخصيات مثالية للاقتداء بها.

وضع سكان بلاد ما بين النهرين القدامى الأسس الأولى للمعرفة التى اتسمت بالجانب العملى، وكان ذلك قبل ثلاثة آلاف عام من ظهور الإغريق على مسرح الأحداث العالمية، وساهموا فى تطوير الزراعة، وابتكروا أسلوب العيش فى المدينة، وابتكروا الكتابة، ودوّنوا القوانين، ووضعوا المبادئ الأساسية لعلم الفلك، وتوصلوا إلى علم الرياضيات لحل مشاكلهم المادية ثم إلى تصميم أنظمة الترقيم والحساب والقياسات، واكتشفوا نظرية وتر المثلث قبل أن يكتشفها العالم فيثاغورس.

غير أن سكان بلاد ما بين النهرين كانوا يفتقرون مع ذلك إلى التحكُّم فى التنظيم المنطقى للفكر، وكانوا غالبا يفضلون الحكمة على العلم، وغير المنظور على المجرد. كانت الحكمة تعنى فى زمانهم المهارة فى مجالات الطقوس والشعائر والكفاءة فى العيش والتصرف الحسن فى الحياة اليومية.

وهكذا أبدعت هذه الحكمة الجريئة والبسيطة والمفيدة فى نفس الوقت، أعمالا أدبية مثل الأقوال المأثورة والأمثال والحوارات والألغاز والأناشيد والخطب والهجاء، والتى دونها الكتبة وسجلوا معانيها فى لوائح الفخار العديدة.

لقد استقى الإغريق قسما كبيرا من ثقافتهم وفلسفتهم من كل المعارف التى اكتسبتها الشعوب الحكيمة فى مصر وبلاد ما بين النهرين، وطوروها بعبقريتهم الخاصة.

لقد أبصرت الفلسفة الإغريقية هذه النور فى القرن السادس (ق.م) فى آسيا الصغرى لدى الإيونيين Ioniens الذين كانوا من أقرب الشعوب إلى عالم بلاد ما بين النهرين. كان الأمر يتعلق بدراسة عقلانية عميقة لعلوم الطبيعة والعلوم الإنسانية، ومحاولة ذكية لتفسير العالم المنظور دون الرجوع إلى الآلهة. وكانت تشتمل فى طياتها على عناصر التفكير الإنسانى لغرض تسيير أمور الحياة السياسية والاجتماعية،

ثم تطرقت بعد ذلك إلى المسائل الأخلاقية والدينية، وما لبثت أن تعمقت أيضا فى أسلوب الحياة وطرق المعيشة الإنسانية.

كان الإغريق يبحثون - اعتبارا من الأساطير القديمة وصور الخيالات الشرقية - لبلوغ الأفكار، وبذلك تقدمت قدرتهم على الاستنتاج واستنباط المعانى. وهكذا استطاعوا، وبعد مرورهم عبر العديد من المنعطفات الفلسفية، الوصول إلى تأسيس مبادئ الاستدلال التى شكلت سياقا جديدا فى الفكر الإنسانى.

كان بعض من العلماء الإغريق قد لاحظوا أن عالمنا شمسى المركز، والتركيبة البنيوية للمادة المتكونة من الذرات متجانسة وغير قابلة للتجزئة. ولكن معرفتهم فى المجالات الأخرى بقيت مع ذلك عقائدية.

وصل الإغريق إلى بلاد ما بين النهرين، مهد الحضارات، بفضل فتوحات الإسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م)، ذلك الأمير المقدونى الشاب الأشقر والقوى البنية وعاشق المغامرات. فإن هذا الأمير المغامر كان قد تربى على يد أستاذه الفيلسوف أرسطوطاليس.

اخترق الإسكندر الكبير بلاد ما بين النهرين سنة ٣٣١ (ق.م)، وتمكن من تشتيت جيش داريوس ملك الفرس فى سهل غوغامليس، الواقع قرب مدينة أربيل حاليا. وتقدم عبر وديان نهرى دجلة والفرات غير المعروفة لديه، ذات التربة الخضراء والخصبة. ووصل إلى مدينة بابل، القلعة المنيعة المبنية من الطابوق والممتدة وسط حقول ومزارع النخيل.

مشى الأمير الشاب مدهوشًا وسط الاحتفالات والمواكب فى الطريق المؤدى إلى باب عشتار، إلهة الحب والحرب. وجابت أبصاره طويلا مشاهد الجدران العالية التى كانت الأنوار تتوهج منها من خلال طبقات الطابوق المزخرفة بالميناء والفسيفساء، والمزينة بتماثيل الأسود هائلة الأحجام.

دخل الإسكندر الكبير إذا مدينة ضخمة وغنية ورفيعة الذوق، واكتشف ساحاتها وشوارعها وأرصفتها المليئة بالحركة، ودهش بمعابدها وقصورها الفخمة المزخرفة

بأغنى الوسائل وأكثرها دقة، واكتشف مدارسها ومؤسساتها الإدارية، ومكث فى ربوعها شهراً كاملاً. ولكن شدة تعطشه إلى الغزوات ما لبث أن دفعته إلى الاستمرار فى فتوحاته، فما كان منه إلا أن غادر مع جنوده نحو مدن سوس وأقباطان، مقتفياً طريقه باتجاه باختريان.

فى نهاية فتوحاته ومسيرته الطويلة التى قادته إلى آسيا الوسطى وأعالى وادى الهندوس، رجع الإسكندر الكبير ثانية إلى بابل سنة ٣٢٣ (ق.م)، حيث أراد أن يجعل منها واحدة من عاصمتى إمبراطوريته مع مدينة الإسكندرية المصرية. وهكذا قام بتصميم مشروع لتجديد مدينة بابل وقلعتها الإتيمينانكى Etemenanki .

كان القائد الغازى ذهبى الشعر يحلم بتوحيد أوروبا الإغريقية المقدونية مع آسيا الأخمينية، والشرق مع الغرب. وكان يريد تأسيس نظام ملكى وراثى شامل تشع من خلاله الثقافة الإغريقية، بدون أن يؤدى ذلك إلى القضاء على ثقافة الشعوب الشرقية الأخرى، التى كانت تعبد آلهة أخرى غير آلهة الإغريق، وتمتلك قيما مختلفة، ولكنها غنية على الرغم من اختلافها.

لم يبق الإسكندر الكبير فترة طويلة فى ربوع الجنائن المعلقة البابلية العذبة التى كانت أشجار الرمان والخوخ والمشمش وزهور البختريان الفواحة تنمو فى حقولها الواسعة، وتوفى بشكل مفاجئ سنة ٣٢٣ (ق.م)، فى عاصمته الجديدة، عاصمة بلاد ما بين النهرين.

وتجزأت إمبراطوريته بعده بين القادة المقدونيين. وتم تعيين واحد من هؤلاء القادة وهو سلوقس بن أنطاكوس حاكما لبابل سنة ٣٢١ (ق.م). باشر هذا الأخير تأسيس مدن وتنظيمها فى الشرق، حيث شيد سنة ٣٠٠ (ق.م)، مدينة أنطاكية على نهر الأورون فى سوريا، الواقعة على سفوح جبال سيلبيوس وستوريس. ثم شيد بعد ذلك، الحدائق التى كانت تظللها أشجار السرو، ونشر فى ربوعها حمامات العلاج المعدنية الساخنة، وأقام المسارح المنحوتة فى الصخر وساحات سباق الخيل والمكتبات والمبانى العامة الفخمة التى كانت محط إعجاب الجميع بروعتها وشهرتها الواسعة.

أسس فى تلك الفترة القائد المنتصر سلوقس الذى أخذ يحمل اسم نيكاتور، مدينة سلوقية الواقعة على مسافة ٣٠ كيلو متراً جنوب مدينة بغداد الحالية، على الشاطئ الغربى من نهر دجلة. واستطاعت هذه المدينة التى سكنها مزيج من الإغريق والمقدونيين والساميين البابليين، أن تشهد إشعاعا فكريا حقيقيا.

وشيد القائد سلوقس أيضا حوالى سنة ٣٠٠ (ق.م)، فى المنطقة الواقعة أعلى بلاد ما بين النهرين، مدينة *الرها* التى عمرها على أنقاض مدينة قديمة (مدينة أروهى فى النصوص السريانية وأورفا اليوم الواقعة فى الجنوب الشرقى من تركيا). وأطلق عليها اسم الرها الذى يداعب مدينة إيدسا تخليدا لذكرى هذه المدينة المقدونية الغالية على قلب جنود سلوقس، والتى كانت تسمع فى أجوائها أصوات خرير الينابيع وعيون مياه العلاج المعدنية.

انسحب السلوقيون سنة ١٣٢ (ق.م)، إلى غرب نهر الفرات تاركين قسماً كبيراً من بلاد ما بين النهرين تحت حكم الفرثيين ، أما فى الشمال الغربى فقد نشأت وازدهرت عندئذ مملكة *الرها* المستقلة. وبدأ فى هذه المملكة نظام سلالة ملكية وراثية محلية، واستمرّ نظام السلالة الملكية الوراثية خلال مدة بلغت ثلاثة قرون ونصف القرن، حمل خلالها الملوك أسماء أبجر ومانو. وكان قسم كبير من سكان هذه المملكة ينطقون باللغة الآرامية السائدة فى تلك الأصقاع.

نهضة المدارس الإغريقية

فى فترة انتشار الثقافة الإغريقية نشأت مدارس فلسفية عديدة أشرقت إشعاعاتها الفكرية فى مناطق مختلفة .

أكاديمية أفلاطون، بدأت فى أثينا، المدرسة "الأكاديمية" التى أسسها الفيلسوف أفلاطون، حوالى سنة ٣٨٧ (ق.م) . وكانت هذه المدرسة تتطرق فى دراساتها إلى المسائل الفلسفية الكبرى والميتافيزيقية والسياسية والأخلاق، إضافة إلى تعليم مختلف

أنواع العلوم. وقام ابن أخى الفيلسوف الإغريقى أفلاطون المسمى سبوسيبى Speu-sippe (٣٢٩ - ٢٩٣ ق.م) بعد وفاة عمه، بإدارة هذه المدرسة. وكانت هذه المؤسسة التربوية تعنى بتفسير مؤلفات الفيلسوف أفلاطون وشرحها والتعليق عليها.

ليسّى أرسطو. كانت الفلسفة تعنى بالنسبة إلى أرسطو - المولود فى المدينة المقدونية ستاجير Stagire - علم "الكائن الحى بصفته كائنا". وقد أنشأ هذا العالم الموسوعى المتبحر والفيلسوف سنة ٣٣٥ (ق.م)، مدرسة فلسفية فى مدينة أثينا حملت اسم مدرسة ليسّى Lycée.

ويمكن ذكر بعض الفلاسفة الذين انتموا إلى هذه المدرسة الأرسطوطالية مثل الفيلسوف تيوفراس Théophraste (٢٨٧ - ٣٧٢ ق.م) وديودور Diodore الذى نشأ فى مدينة صور (القرن الأول ق.م). وقد أغنت فلسفة أرسطو ومدرسته العلوم الإغريقية على امتداد عصور طويلة.

وقام أندرونيكوس الذى نشأ فى مدينة رودس بنشر أعمال الفيلسوف أرسطو فى النصف الأول من القرن الأول (ق.م)، وحاول بعض الفلاسفة تدوين دروس المعلم الأكبر وتحديد معانيها. وقد تأكد عمق هذا التقليد فى التفسير الذى انتشر فى القرن الثانى بعد الميلاد، من خلال الأفكار التى طرحها الفيلسوف المعروف الإسكندر الأفروديسى Aphrodise الذى كان يعتبر واحدا من أهم المفسرين الأوائل لفلسفة أرسطو، ثم من خلال الفيلسوف فرفوريوس Porphyre (القرن الثالث الميلادى) ، والفيلسوف ثامسطيوس Thémistius (القرن الرابع الميلادى) والفيلسوف سمبليسيوس Simplicius (القرن الخامس الميلادى) وأخيراً وليس آخرا الفيلسوف جان فيلوبون Jean Philopon (القرن السادس الميلادى) .

المدرسة الأبيقورية Epicurienne نشأت هذه المدرسة التى استمدت اسمها من اسم الفيلسوف الإغريقى المعروف إبيقورس Epicure الذى عاش فى الفترة الهيلينية (٣٤١-٢٧١ ق.م) فى حديقة منزله الشخصى. وكان هذا الفيلسوف يستهدف من مدرسته بلوغ الحكمة استنادا إلى التنمية البديهية، وكانت السعادة تتمثل بالنسبة له

فى معرفة الطبيعة والعيش بعيدا عن العالم، فتكون النفس هادئة وتبحث عن اللذة التى هى الخير بذاته، وتكون الفضيلة أساس الحياة. وقد تبنّى الفيلسوف أبيقورس المبدأ الذرى atomiste لشرح الكون، وقام بتطويره الفيلسوف ديموقراط Démocrite الذى امتدت أفكار مذهبه ووصلت إلى مدينتى أنطاكية والإسكندرية وإلى إيطاليا.

المدرسة الرواقية Stoïcienne ازدهرت هذه المدرسة فى مدينة أثينا حوالى سنة ٣٠٠ (ق.م)، وأسسها الفيلسوف زينون Zénon (٣٣٦- ٢٦٤ق.م) الذى عاش فى مدينة سيتيوم، والذى كان يلقى تعاليمه على تلاميذه تحت الرواق.

اهتم مذهب المدرسة الرواقية بتعليم مبادئ "الفيزياء" استنادا إلى فلسفة وحدة الوجود، إضافة إلى التعمق فى علوم المنطق، وكانت الحكمة بالنسبة لهذا المذهب تتمثل فى معرفة القوانين التى تعمل على إدارة الكون وتسيير حياة الإنسان. وكانت هذه المدرسة توصى بالتجرد وتزيين النفس بالفضيلة والاهتمام الجيد بالعمل السياسى.

انتشرت فلسفة المدرسة الرواقية بشكل واسع فى روما، وعلى امتداد منطقة حوض البحر المتوسط الشرقى والإسكندرية، وفى بلدان المشرق وصولا إلى بلاد الرافدين وبابل. وهناك فيلسوفان من بلاد الرافدين برزا فى تلك الفترة وهما ديوجين البابلى وأبولودور.

نشأ الفيلسوف ديوجين Diogène فى مدينة بابل أو فى مدينة سلوقية، وهما مدينتان متجاورتان، وهذه الأخيرة تأسست على ضفاف نهر دجلة. ثم توجه ابن بلاد ما بين النهرين ديوجين إلى مدينة أثينا ليتتلمذ على يد الفيلسوف زينون الطرسوسى الذى تكفل بتدريسه ليوصله إلى معرفة مبادئ الفلسفة والتعمق فى بحورها الواسعة. وتمكن فى سنة ٢١٠ (ق.م) من احتلال موقع الصدارة، ليخلف الفيلسوف زينون على رأس المدرسة الرواقية. وقام بذلك بتدشين عصر الرواقية الوسيطة، وبدأت بنشر تعاليم جديدة حملت اسم مبدأ البشرية الشاملة، فى فترة صعبة اضطر سكان أثينا إلى إرساله بمعية الفيلسوفين كارنياد Carneade رئيس المدرسة الأكاديمية وكريتولاوس الأرسطوطالى Critolaos، بمهمة إلى روما سنة ١٥٦ (ق.م)، للمرافعة أمام مجلس

الشيوخ الروماني في دعوى تتعلق بتخفيض مبلغ غرامة كبيرة. وقد ألقى هؤلاء الفلاسفة هناك سلسلة من المحاضرات التي نالت إعجاب الشعب الروماني.

كتب ديوجين الرافدي الأصل أعمالا كثيرة واضحة جلية عن : الجدلية Art dialectique، والبلاغة Rhétorique، وإدارة النفس Recteur de l'âme، والقوانين Les lois .

وقد احتلت فكرة الإنسانية أهمية كبيرة لدى هذا الفيلسوف الذي توفي سنة ١٥٠ تاركًا خلفه تراثًا فلسفيا أغنى الحضارة الإنسانية.

هناك مفكر رافدي آخر هو الفيلسوف أبولودور Apollodore الذي نشأ في مدينة سلوقية الواقعة على نهر دجلة والمعروف أيضًا باسم إيفيلوس Ephillos، وهو واحد من أهم تلاميذ الفيلسوف ديوجين. وألف هذا الفيلسوف كتاباً درس من خلاله مبادئ الأخلاق والفيزياء.

واكتسب هذان المفكران اللذان نشآ في بلاد الرافدين شهرة مهمة في العالم القديم.

في حقل الفلسفة برز حادث مهم في تلك الفترة الزمنية في مدينة بابل العامرة، ألا وهو تأسيس مدرسة رواقية فيها من قبل العالم أرخميدس الطرسوسي، وهي المدرسة التي استطاعت أن تربي جيلا كاملا من الفلاسفة المشهورين.

الفلسفة الرواقية الجديدة، استطاعت روما إزاحة الصدارة عن أثينا واحتلال الريادة بدلا منها وأخذت الفلسفة الرواقية تأخذ اتجاها جديدا، واهتمت بصورة خاصة بعلم الأخلاق وباشرت نشره في الإمبراطورية الصاعدة. وقد مثّل هذا التيار فلاسفة قد يكون من الملائم التطرق إلى بعض منهم في هذا المجال :

الفيلسوف سينيك Sénèque (٤ق.م – ٦٥ب.م) الذي أدان بشدة خطر البحث عن الملذات والشهوات وأوصى باللجوء إلى الفضيلة .

الفيلسوف إبيكتيت Epictète (٥٠ – ١٣٠) الذي دعا إلى الحرية الداخلية والامتثال للعقل. وله مقولته المشهورة : "تغيير الرغبات أفضل من تبديل نظام العالم".

وهناك أيضا الإمبراطور مارك أوريل (١٢١– ١٨٠) الذى ألَّف كتاب الأفكار Pensées، ويعتقد أن هناك تعاطفًا موجودًا بين الكائنات البشرية والأشياء. وقد تمحورت أغلب أفكار الفيلسوف مارك أوريل حول مسألة التأمل فى الموت بشكل خاص.

وما لبثت المدرسة الرواقية أن أفل نجمها فى القرن الثالث الميلادى، على الرغم من أن مبادئها الفكرية ما زالت باقية، واستمرت حيويتها لفترة زمنية طويلة.

الفلسفة الأفلاطونية الجديدة néo-platonisme عرفت معتقدات الفيلسوف أفلاطون نجاحًا واسعًا فى بداية القرن الأول الميلادى. حمل راية هذا التيار الفلسفى فيلون اليهودى Philon (فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٣ ق.م و٥٤م). وقد نشأ هذا النظام الفلسفى فى مدينة الإسكندرية وفى مدينة روما. وكان يتمثل فى أعمال الفيلسوف بلوتان Plotin (حوالى ٢٠٥–٢٧٠م) وفرفوريوس Porphyre تلميذه (٢٣٤ – ٣٠٤). وامتدت تفرعات هذه الأفكار الفلسفية إلى مدينة أثينا. ثم تابع الفيلسوف بروكلوس Proclos، وريث بلوتان، (المولود سنة ٤١٢ م) إدارة مدرسة أثينا لمدة نصف قرن، ٤وسار فى هذا الاتجاه.

تعتبر الفلسفة الأفلاطونية الجديدة néo-platonisme فى الواقع، فلسفة مدينةً بأفكارها إلى الفيلسوف فيثاغورس وإلى الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو. ولكنها تعتبر مدينة أيضا إلى الفكر الشرقى وإلى التزهد النابع من الروحية اليهودية والهندوسية، وإلى التطور الذى طرأ على المعتقدات الدينية الجديدة.

القسم الأول

الفلاسفة السريان فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية

الفصل الأول

مارا . الفيلسوف الرواقى (القرن الأول أو الثانى)

تدخل الأمم فى معارك ومواجهات شرسة الواحدة ضد الأخرى، وها هى الأسلحة وهى تنطلق نحو الأمام لا تترك مجالا لسماع شكوى السجناء، ويتراجع الزمن وتتضاعف شدته وقساوته. نطرق باب تاريخ مدينة سميساط وتاريخ الفيلسوف مارا، آملين معرفة غامض الأمور لتلك العصور.

من باكورة الإنتاج الفكرى باللغة السريانية رسالة مارا إلى ابنه سرابيون **Sérapion** .

رسالة جميلة[١] وأصيلة، تلك التى وجهها الفيلسوف الرواقى إلى ابنه الصغير سرابيون **Sérapion**، والتى تنتمى إلى أقدم عصر من عصور الأدب السريانى. استمد مارا السريانى بن سرابيون أصوله من مدينة سميساط، عاصمة مملكة كوماجين **Commagène** العريقة[٢].

كانت مملكة كوماجين الواقعة على سلسلة جبال طورس شمال سوريا ونهر الفرات تشكل دولة انتمت إلى ذلك النوع من السلالات ذات الطابع الهيلينى الإغريقى. خضعت وقتا طويلا للإدارة الإيرانية، وفرض الرومان على هذه المملكة حمايتهم سنة ٦٤ (ق.م) . ثم استطاعت الحصول على الاستقلال بموافقة الرومان وبإرادة من الإمبراطور المشهور كاليغولا (٣٧- ٤١ م).

وخضعت مدينة سميساط إلى سيطرة الرومان فى فترة لاحقة، غير أن المعلومات التاريخية لا تقدم لنا بيانات دقيقة عن الحقبة الزمنية التى حدثت فيها هذه السيطرة.

هل حدث ذلك سنة ٧٢ الميلادية، في عهد الإمبراطور فيسباسيان الذى قاد الحرب ضد مملكة يهوذا، والتي انتهت بانتصار ابنه البكر تيطوس ؟ وهكذا لم يجد الملك أنطيوخس الرابع ملك سلالة كوماجين- الذى وجهت إليه تهمة التآمر مع الفرثيين- نفسه إلا وهو يرى مملكته تتعرض للغزو، الذى أدى إلى إلحاقها بعد ذلك بولاية سوريا الكبرى؟

تحولت مدينة سميساط في عهد الإمبراطور الروماني أدريان (١١٧- ١٣٨ م) إلى مدينة رئيسية مهمة . ثم قامت فرق الجيوش الرومانية في الفترة الواقعة بين سنتى ١٦٣ و ١٦٥، بشن حملة عسكرية تحت إمرة القائد الشهير لوسيوس فيروس في سوريا، وجرى ذلك في منطقة الرها، شمال بلاد ما بين النهرين أثناء الحروب الفرثية الرومانية.

كان مارا رجلا غنيا ومثقفا، مطَّلعا على الفلسفة الرواقية ولا يدين بالنصرانية، كما يمكننا أن نستنتج هذه الحقيقة استنادا إلى النصوص التي احتضنتها رسالته المشهورة. وكان متأثرا بأعمال الفيلسوفين سقراط وفيثاغورس اللذين طالما قيم أفكارهما الفلسفية.

كانت الرواقية تعرض نفسها عقيدة ومسلكًا مرتكزة على مبادئ وحدة الوجود وعلى الفضيلة. وكانت فلسفتها تتمحور حول فكرة العيش وفق مبادئ الطبيعة وقبول الأحداث والخضوع لها باعتبارها ناتجة عن إرادة الآلهة.

وقد اتسمت الفلسفة الرواقية، في العصر الإمبراطوري الروماني، بنوع من التشاؤم الفلسفي والخضوع للأقدار.

رسالة مارا إلى ابنه سرابيون

لا يمكننا تحديد التاريخ الدقيق الذى تمت فيه كتابة هذه الرسالة باللغة السريانية. هل كان تشتت اليهود الذى تتطرق إليه هذه الرسالة تاليا للاستيلاء على

مدينة أورشليم (القدس) من قبل القائد الرومانى تيطوس أو هل يتعلق الأمر هنا بحادث آخر ؟

يعتقد العلماء أن هذه الرسالة ربما تكون قد كتبت بين سنتى ٧٢ و٢٠٠ بعد الميلاد.

وأياً كان تاريخ استيلاء الرومان على مدينة سميساط، فإن مارا الذى وقع فى الأسر تعرض للسجن مع بقية مواطنيه وأصدقائه. وكتب فى هذه الفترة مأثرته الأدبية من داخل السجن الذى وضعه الرومان فى غياهبه، حيث كانوا يعاملونه معاملة العبيد.

بدأ مارا رسالته هذه وهو يتوجه فيها إلى ابنه سرابيون حيث يوصيه بما يلى :

"عندما كتب إلىَّ أستاذك ومربيك ليعلمنى برغبتك الشديدة فى الدراسة على الرغم من صغر سنك، باركت الله وحمدته لأنك أنت الفتى الصغير الذى يعيش بدون مرشد، قد بدأت حياتك بداية طيبة. وهذا الشىء بالنسبة لى مطيب لخاطرى. ولقد علمت بأنك – وعلى الرغم من كونك لا زلت غلاما صغيرا – تتمتع بعقل كبير وتحمل مقصدا جيدا، إن ذلك يدل على صفة لا يشاركك فيها بهذه السرعة الكثير من [الغلمان] .

لهذا السبب أكتب لك هذه الرسالة، المتعلقة بملاحظاتى التى تكونت لدىَّ فى هذا العالم. إن سلوك البشر هو الذى دفعنى إلى أن أقتفى طريق المعرفة. أجل، لقد اكتسبت جميع هذه الأشياء بفضل التعليم الذى أخذته من العلوم اليونانية..." (المقدمة، ص ٧٠)

يصف مارا الحزن الذى سيطر على رفاقه لدى مغادرتهم مدينة سميساط، حيث يتوجه إليه بهذه الكلمات المؤثرة :

"لقد علمت بخصوص رفاقنا الذين اكتنفهم الحزن عند مغادرتهم مدينة سميساط والذين طالما ندبوا وأشفقوا على مصيرهم المؤلم وهم يقولون : نحن اليوم بعيدون عن منازل عوائلنا، ولن نكون قادرين ولا سبيل إلى العودة إلى مدينتنا ورؤية أهلنا والاحتفال بآلهتنا ..."

عندما وصل إلينا خبر مغادرة رفاقنا القدماء إلى مدينة سلوقيا، ذهبنا خلسة للقائهم فاشتد همنا معا عندئذ، وازداد بكاؤنا حقا على ضياعنا وجمعت الظلمة الحالكة حسرتنا .

يوصى مارا ابنه بالمثابرة فى دراسته والبحث عن الحكمة والإصرار على العمل والصبر، ويؤكد على أهمية التربية والثقافة التى شكلت فى رسالته المأثورة موضوعا أساسيا :

"كرِّس نفسك للحكمة، مصدر كافة الأعمال الخيرة والكنز الذى لا ينضب محتواه. أسند رأسك على الحكمة وارتح وخذ راحتك منها، لأنها ستكون بالنسبة لك بمثابة الأب والأم وأفضل رفيق لك فى حياتك. ركِّز جهدك على المثابرة والصبر، لأن الرجال الضعفاء الذين لا يملكون القدرة على تحمل كافة المآسى، عليهم مضاعفة قواهم، ويمكنهم بذلك تحمل المعاناة من الجوع ومكابدة العطش وتخفيف شدة الصعوبات، ويستطيعون عندئذ اقتفاء السلوك المقبول أمام الحياة وأمام الموت.

امنح هذه الأشياء أقصى اهتمام ممكن، و بذلك تستطيع قضاء حياة هادئة، فتصبح بعدئذ زينة والديك."

يؤكد الفيلسوف مارا ذلك لابنه سرابيون ويخبره بأن قراءة الوصايا التى يوجهها إليه لا يمكن أن تشكل العمل الوحيد الكافى له، بل يجب عليه وضعها موضع التنفيذ. ويقدم له نموذجا عليه أن يحتذيه، وهو الحكيم المتجرد من الأشياء الخارجية. إنه قادر على الاقتناع بتفاهة المتعة واللهو، ويتمكن من التحكم فى أهوائه، والبقاء غير آبه بالتبجيل وجمع الثروات، ولا يتأثر بتقلبات الدهر والمصير. يعلمنا هذا الفيلسوف الرواقى المتواضع أن الإنسان قادر على العيش فى جميع الأماكن مهما كانت الاختلافات فيها، وهو يعلمنا أن الحكيم هو ذلك الإنسان الحر الذى يستند إلى العقل والفضيلة لتسيير حياته اليومية، ويعرفنا بأن الله أو الآلهة تكافئ البشر الذين يقتربون من الحكمة.

يتوجه إلينا مارا بهذه العبارات الرزينة :

"ما الفائدة التى جناها سكان أثينا من قتل سقراط ؟ لقد داهمتهم المجاعة وأصابهم مرض الطاعون بسبب جريمتهم هذه. وما الفائدة التى حصل عليها سكان مدينة ساموس بحرقهم للعالم فيثاغورس ؟ لقد تعرضت بلادهم للفناء وغطتها الرمال خلال ساعة واحدة فقط. وما المنفعة التى كسبها اليهود من تنفيذ حكم الإعدام بملكهم الحكيم ؟ لقد انتهت مملكتهم، وللحال زالت من الوجود. انتقم الله بكل عدالة لهؤلاء الرجال الثلاثة: لقد هلك سكان أثينا جوعا وغمرت مياه البحر سكان ساموس وتعرض اليهود للدمار والطرد من مملكتهم وعاشوا مشتتين فى جميع البلدان. لم يمت سقراط بفضل تعليم أفلاطون، ولم يهلك فيثاغورس، بل بقى حيا فى التمثال الذى صنعه للإلهة هيرا. لم يمت الملك الحكيم بفضل القوانين الجديدة التى قام بسنها".

إن هذا النص يحتوى على العديد من النقاط الخاطئة وغير الدقيقة، فالعالم المشهور فيثاغورس، رجل التآليف الواسعة والرياضى العلامة الذى ولد فى مدينة ساموس فى القرن السادس قبل الميلاد لم يتعرض للحرق من قبل مواطنيه، بل ترك جزيرته الإغريقية سنة ٥٣٠ وهاجر إلى إيطاليا الجنوبية حيث لفظ أنفاسه هناك.

هل الموضوع يتعلق بنحات آخر يدعى فيثاغورس ؟ يقال إنه أنجز تمثال الإلهة هيرا، شقيقة الإله جوبيتير وزوجته .

كما أن الفيلسوف الإغريقى سقراط كان قد عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد، ولم تحدث أية مجاعة معروفة فى مدينة أثينا بعد وفاته.

ويتحدث المؤلف أيضا عن ملك حكيم بدون أن يحدد هويته. فهل كان يفكر فى واحد من ملوك بنى إسرائيل أو مملكة يهوذا تعرض للاغتيال من قبل اليهود قبل أن يغزو الملك نبوخذ نصر البابلى مدينة أورشليم (القدس) عام ٥٨٧ (ق.م) ؟

هل من الممكن أن مؤلف الرسالة كان يفكر بالمسيح ؟ لم تنص الأناجيل مطلقًا على تسمية يسوع بالملك الحكيم، فهو لم يقم بسن القوانين، بل بشّر بالأناجيل. إن مارا الذى تميز بالرأى المستقل لم يعتنق الديانة المسيحية.

لنعد إلى الفيلسوف مارا وهو قابع فى سجنه المشئوم يفكر فى نفسه.

لو تصرف الرومان بعدالة تجاهه، وسمحوا له ولرفاقه الآخرين بالعودة إلى بلدهم، لكانوا قد كسبوا فخرا من مثل هذا التصرف. ولو فعل الرومان هكذا لكانوا قد أظهروا عظمتهم، ولعاشوا فى منطقة هادئة وخاضعة لسلطانهم. ولكنهم لو كانوا تصرفوا خلاف ذلك لكان هذا الفيلسوف قد انتظر وفاته بكل صفاء وهدوء.

هناك حوار بين مارا وأحد أصدقائه فى نهاية هذه الرسالة.

وجه أحد أصدقاء مارا، والذى كان يرافقه فى السجن، السؤال التالى:

"أرجوك يا مارا أن تخبرنى عن الشىء الذى يدفعك إلى الضحك !" فما كان من الفيلسوف مارا إلا أن أجابه بهذه الجملة البسيطة: " أنا أضحك من الزمن، لأنه بدون أن أستدين الشر منه، يتقاضى منى ثمنه."

يشهد هذا الجواب جيداً على قوة فلسفة مارا الرواقية.

هوامش الفصل الأول

(١) رسالة محفوظة فى مخطوطة المتحف البريطانى، رقم ١٤٦٥٨، قـــام بترجمها إلى اللغة الإنجليزية ونشـــرهـا و. كيريتون W.Cureton فى مجموعة The Spicilegium syriacum، لندن، ١٨٥٥ .

(٢) تقع مدينة سامو‌سات الحديثة فى تركيا بين مدينتى أورفا وأدیامان.

الفصل الثانى

برديصان من مدينة الرها (١٥٤ - ٢٢٢)

ها هى بلاد الرها تنتشر على أراضيها ينابيع فوارة وتلال مستديرة القمم، إنها تمتد باتجاه ظلال سلاسل جبال طورس. هو ذا نهر الفرات وهو يزداد تقوسا ويشتد بريقه كسيف من الفضة اللامعة.

عرفت مملكة الرها خلال الحروب التى قامت بين الرومان والفرثيين أياما عصيبة، ووقّعت هذه المملكة سنة ١١٥ الميلادية على صك استسلامها وخضوعها للإمبراطور الرومانى تراجان (٩٨ - ١١٧) عند مروره عبر أراضيها، وكان قد احتل جزءًا كبيرًا من بلاد ما بين النهرين.

وكافح الإمبراطور القائد لوسيوس فيروس الفرثيين الغزاة، وتمكن من استعادة مملكة الرها سنة ١٦٥ من حكم الفرثيين، وأعاد العرش إلى الملك معنو الثامن الذى كان الفرثيون قد طردوه من مملكته .

بعد فترة زمنية قام الإمبراطور سبتيمُس سويروس عام ١٩٥ بتوجيه حملة شديدة ضد مناصرى القائد بريسينيوس نيجير Précenius Niger ، حاكم سوريا الذى أعلن نفسه إمبراطورا. وكان قد أنشأ ولاية تحت اسم الأوسرهوين وألحق بها مملكة الرها، ووضعها تحت سلطة أحد الولاة الرومان. وبعد هذه الحملة تمكن الإمبراطور سبتيمُس سويروس أخيرا من إعادة منح الملك أبجر الثامن، بار معنو Bar Maanû مملكته إليه، وعاد هذا الأخير إلى الرها ثانية.

عاش برديصان لدى حاشية الملك أبجر الثامن الكبير

لا يعرف العلماء والمؤرخون إلا القليل عن حياة برديصان، حاولوا بشكل دقيق البحث عن معلومات ومصادر عنه من هنا ومن هناك، فما المعلومات التى قدمتها مختلف مصادر السيرة الشخصية عنه ؟

يروى لنا كتاب تاريخ الرها Chronique d'Edesse – المكتوب قبل سنة ٥٤٠ م من قبل كاتب مجهول – أن برديصان قد أبصر النور بتاريخ ١١ تموز (يوليو) سنة ١٥٤ .

ويذكر القديس إبيفانوس (٣١٥ – ٤٠٣) أن برديصان ربما كان صديق طفولة الملك أبجر الثامن، ملك الرها.

أين تلقى برديصان تعليمه ؟ هل حدث ذلك فى إحدى المدارس المشهورة التى كانت تجذب الطلاب خلال تلك الفترة المزدهرة مثل الإسكندرية أو أثينا أو أنطاكية؟ أو أباميه أو هيروبوليس ؟ لقد تلقى برديصان ثقافة هيلينية إغريقية متينة، واطلع على الفلسفة الرواقية السائدة فى ذلك العصر.

ربما كان قد درس التعاليم الكلدانية فى مدينة بابل التى بقيت تمثل مركزاً مهما من مراكز العلوم فى القرنين الأول والثانى للميلاد. ومن المحتمل أيضا أنه قد درس هناك علم الكونيات.

يخبرنا ميخائيل الكبير، بطريرك السريان الأرثوذكس (١١٦٦ – ١١٩٩) ومؤلف كتاب "التاريخ" المشهور أن برديصان كان قد اعتنق الديانة المسيحية فى الخامسة والعشرين من عمره.

مع ذلك أتيحت الفرصة لكاتبين معاصرين لبرديصان للالتقاء به، كان أحدهما الضابط يوليوس أفريكانوس اليهودى الذى كان منخرطا فى الجيش الرومانى. كان يوليوس أفريكانوس عالما يتكلم عدة لغات، وصديق الفيلسوف المسيحى أوريجينوس، وكان قد رافق الإمبراطور سبتيمُس سويروس سنة ١٩٥ إلى مملكة الرها، حيث تم

استقباله فى بلاط الملك أبجر الثامن. وكان هذا البلاط المشهور الذى تأثر بالفرثيين بالنسبة إلى الأزياء والتقاليد، قد بقى محافظا على التقاليد السائدة فى بلاد ما بين النهرين.

التقى يوليوس أفريكانوس ببرديصان هناك وأعطى وصفا عنه، يبين فيه أنه رجل معرفة، دنيوى السلوك وفيلسوف ؛ لكنه رسام أيضا ورامى سهام بارع[١].

وهناك شخص آخر قد التقى ببرديصان وهو الأسقف هيرابوليس Hierapolis فى فريجيا en Phrygie ويعطى فى كتاب سيرة ألبيرتيوس هذه المعلومات : يقول بأن ألبيرتيوس تعرف فى إحدى رحلاته إلى الشرق على الكاتب برديصان، ولاحظ قبل كل شيء الهيبة التى تعكسها مظاهر نسبه وثروته. ويعود تاريخ النص الذى كتبه عنه باللغة اليونانية إلى الفترة الواقعة فى نهاية القرن الثانى الميلادى.

وكرس المؤرخ أوسابيوس القيصرى Eusèbe de Césarée (٢٦٠ – ٣٤٠ م) سيرة ذاتية موجزة عن برديصان فى كتابه "التاريخ الكنسى" ، أشاد فيه بكفاءته فى علم الفلك وبمعرفته اللغة السريانية واليونانية بهذه العبارات التكريمية :

"حرر برديصان، الرجل الكفء جدا والعالم اللغوى الضليع فى اللغة السريانية، حوارات انتقد فيها المرقيونيين وأشخاصاً آخرين ممن كانوا يعتنقون مبادئ مختلفة. وكتب حواراته هذه بلغته وبخط قومه، مع مؤلفات عديدة أخرى. وقد ترجمت هذه الحوارات من اللغة السريانية إلى اللغة اليونانية من قبل تلاميذه، كان عدد تلاميذه كبيرا جدا لأنه كان يتمتع ببلاغة فائقة، ويتطرق أحد أهم الكتب التى ألفها إلى الحوار البارع الذى وضعه حول موضوع المصير الذى وجهه إلى أنطونان، إضافة إلى كل الكتب الأخرى التى كتبها، وهى تشير كما قيل، إلى ذلك الاضطهاد الذى كان ساريا فى تلك الحقبة الزمنية "[٢].

كان مرقيون (حوالى ٨٥ – ١٦٠) ينتمى إلى الحركة الفلسفية والدينية المعروفة باسم الحركة الإغنوسية. وكان يستند فى أفكاره إلى رسائل القديس بولس ويعتبرها مراجعه الأساسية، وكان يرفض كتب العهد القديم.

أما الشاعر السرياني أفرام (حوالى ٣٠٦ - ٣٧٣) فلم يكن متحمسا لشخصية برديصان، فقد قدمه بصفته إنسانًا دنيويا يحب مظاهر الترف، وبصفته شاعرًا، ويذكر لنا في هذا المجال الأناشيد التي وصل عددها إلى مائة وخمسين ترتيلة لبرديصان، ألفها بمقاطع شعرية خماسية وبإيقاع نغمي متناسق.

وكان شباب مدينة الرها يتفننون بغناء كلماتها على أوتار القيثارة، سواء داخل الكنيسة أو في شوارع المدينة. تعرضت لسوء الحظ أناشيد برديصان إلى الضياع ولم يبقَ منها إلا بعض المقاطع القليلة، كما تعرضت أيضا دراساته وحواراته وبحوثه الفلكية إلى الضياع هي الأخرى.

ويتحدث الكاتب السرياني المولع بالعلوم سويرُس سيبوكت Sévère Sebokt (المتوفى سنة ٦٦٧) أسقف دير قنشرين، المشيد على الساحل الغربي لنهر لفرات، واصفاً هو الأخر برديصان بالعالم وبالفيلسوف، موجها كلامه إلى أحد زوار الدير قائلا :

"لكي تعرف أن هذا الحدث (التقاء الكواكب) لم يكن معروفا فقط من هؤلاء الذين لا ينتمون إلى الفلاسفة الوثنيين، بل إنه كان غير معروف أيضا من قبل بعض السريان الذين استقوا ثقافتهم من الديانة المسيحية. ويتعلق الأمر هنا ببرديصان الذي كانت تطلق عليه تسمية الفيلسوف الآرامي. ذلك الإنسان الحاصل على ثقافة راقية جدا في كل هذه المجالات، والذي كان يغرف بمعرفة تامة من مختلف جوانب علم الفلك، ذلك العلم الذي كان يمثل بالنسبة له واحدا من أهم العلوم"(٣).

وحاول الكاتب الفرنسي رينان من جهته فيما بعد، أن يرسم صورة لشخصية برديصان، مقارنا إياه بالفيلسوف الإغريقي الأفلاطوني نيمنيوس الأفامي Numénius d'Apamée، المشهور في النظرية الفيثاغورية الجديدة، والمنتمي إلى العصر الثاني للميلاد، حيث يقول عنه بأنه يشكل :

واحداً من أهم الشخصيات الأصيلة التي تتمتع بفكر نشيط ومخلص، كتلك التي استطاعت الديانة المسيحية جذبها، ولكن ليس بصورة حصرية لكي تبعدها عن باقي

الأمور، وتجعل منها مجرد أعضاء تنتمى إلى الكنيسة فقط، وهو ما ينطبق على حالة برديصان الرهاوى. لقد كان هذا الإنسان، إذا جاز لنا التعبير، رجلا دنيويا وغنيا وودودا ومتحررا ومثقفا وقادرا على فرض شخصيته على الحاشية، ومطلعا على العلوم الكلدانية والثقافة الهيلينية فى نفس الوقت. كان هذا الإنسان يمثل نسخة مماثلة للفيلسوف نيمنيوس، بمعرفته الواسعة كل أنواع الفلسفة والديانات والمذاهب بمختلف أشكالها، وكان مسيحيا بكل صدق"(٤).

هل نفى برديصان نفسه إلى أرمينيا عندما ضم الإمبراطور كاركلا مدينة الرها إلى إمبراطوريته، وجعلها مستعمرة رومانية فى سنة ٢١٣ الميلادية ؟

لقد توفى هذا العالم الفيلسوف سنة ٢٢٢ ميلادية عن عمر ربما كان قد ناهز ٦٨ عاما.

كتاب شرائع البلدان

اكُتشف هذا الكتاب الذى يحتوى على ثلاثين صفحة فى سنة ١٨٤٥ من قبل المستشرق كورطون Cureton، ضمن مخطوطة موضوعة فى المتحف البريطانى تحمل اسم كتاب شرائع البلدان، وهى المخطوطة التى يعود تاريخها إلى القرن السابع الميلادى (٥).

غير أن قصة كتاب شرائع البلدان كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير.

فقد قام المؤرخ المشهور أوسابيوس القيصرى Eusèbe بدمج مقطعين طويلين من كتاب شرائع البلدان فى كتابه المعنون تحضير التبشير بالإنجيل (الجزء السادس، ١٠، ١-٤٨).

كما احتوى كتاب الاعترافات Récognitions الذى ألفه كاتب غير معروف حمل اسم كليمان (الجزء التاسع، ١٩-٢) على نتف مأخوذة من هذا الكتاب.

يشكل هذا الكتاب تحفة وعملا رائعا عن مفهوم المصير، حرره الكاتب بلغة متينة وجميلة، وهى اللغة السريانية، وبأسلوب رشيق وواضح ونقى.

يتميز هذا العمل بخاصية تتمثل فى نوع من الحوار، على طريقة سقراط، وهو يجرى مع أحد تلاميذ الفيلسوف برديصان، يدعى أفيدا. وقد قام واحد من تلاميذه، وهو التلميذ فيليب، بتحرير حوار هذا اللقاء وكتابة تفاصيله .

والواقع أن الفيلسوف برديصان قد كرس جل اهتمامه لموضوع علم الكونيات الذى كان مرتبطا ارتباطا متينا بعلم الإنسان وعلم خصائص الشعوب، ويهاجم فى كتاب شرائع البلدان القدرية المرتكزة على علم التنجيم، والتى كان معلمو بلاد الكلدان يعتقدونها.

الأنثروبولوجيا فى كتاب شرائع البلدان

تدور نصوص من هذا البحث حول موضوع الانسان وقدره، وذلك بأسوب ناضج. ويبدأ الفيلسوف برديصان فى هذا الكتاب تعليم تلميذه الطريقة التى يجب عليه اتباعها للحصول على التعليم ,التلميذ يسأل والمعلم يجيب :

" إن المعلمين يتسلمون الاستفسارات من الآخرين، أما هم فلا يوجهون الاستفسارات إلى طلابهم، وإذا قاموا بتوجيه مثل هذه الاستفسارات، فإنهم يقومون بذلك لترويض فكر تلامذتهم وإعدادهم للاستفسار جيدا ، والغاية من ذلك التعرف على أفكاره، لأنه من المهم لكل إنسان أن يعرف كيف يجب أن يطرح الأسئلة" .

لذا طرح أفيدا على برديصان أسئلة أساسية مرتبطة باستفسارات مهمة وعرضية :

ألم يكن باستطاعة الله أن يخلق الناس بحيث لا يقدرون على ارتكاب الخطيئة ؟[٦].

ويعترض أفيدا بأنه لا يستطيع أن يؤمن إذا لم يكن مقتنعا بما يؤمن به.

ها هو برديصان يعود إلى الاستفسار المطروح سابقًا، ويجيب عنه بتقديم أمثلة واقعية. ويعلق على ذلك بتأكيده على أن الإنسان يتحول إلى مجرد آلة ليس إلا، إذا كان الله قد خلقه بحالة لا يكون فيها قادرا على ارتكاب الخطيئة:

"إذا كان الإنسان مخلوقا بمثل هذا الشكل فإنه لا يكون سيد نفسه، بل إنه يتحول عندئذ إلى آلة توضع بيد من يحركها. ومن البديهى بعد ذلك أن يتم توجيهه نحو الخير أو الشر من قبل ذلك الذى يحركه ويوجهه كما يشاء. فبماذا يتميز الإنسان إذن عن القيثارة التى يعزف عليها شخص آخر أو عن عربة يقودها إنسان آخر ؟ فأقوال المدح والذم تعود أساسا لقائلها، بينما تجهل القيثارة الأنغام التى يتم عزفها على أوتارها والعربة لا تعرف ما إذا كانت قيادتها تجرى بشكل حسن أو ردىء، فهى عبارة عن أداة صنعت لكى يستعملها ذلك الشخص الذى يمتلك معرفة استعمالها. والله، برحمته الواسعة، لم يرد أن يخلق الإنسان بهذه الطريقة، بل منحه حرية الاختيار، ورفع من قيمته، ليبلغه إلى مستوى أعلى بكثير من مستوى العديد من المخلوقات، ويجعله مساويا لمستوى الملائكة" .

الإنسان الذى خلق من جسد ونفس وروح لا يمكن أن يكون مثل الآلة، فهو يتصرف بكامل حريته، وهو مسئول عن أعماله، ويخضع للمحاسبة فى اليوم الآخر.

"إذا كان الإنسان مخلوقا لكى لا يكون قادرا على ارتكاب أعمال الشر، ولكى لا يكون مذنبا نتيجة عدم ارتكابه لمثل هذه الأعمال، فإن أعمال الخير أيضًا التى يقوم بتأديتها عندئذ لا يمكن أن تنسب إليه، ولا يستطيع فى هذه الحالة تقديم أى تبرير لذلك. فالتبرير الذى يقدمه الشخص الذى لا يمتلك حرية الاختيار بين أعمال الشر والخير، وكذلك الاتهام الموجه إليه يمثلان عندئذ أعمالا تنسب إلى تلك القدرة العبقرية التى توجهه لأداء مثل هذه الأعمال."

يدرس برديصان النظام الذى يخضع له العالم السماوى وعالم الأرض، والحركة المنتظمة للسماء والشمس والقمر والنجوم. وهو يرى أن الكون لم يكن وليدا لصدفة معينة. فالحكمة التى يتمتع بها الله هى التى منحت القدرة للملائكة وللقوى المتحكمة فى

هذا الكون (الكواكب)، وكذلك منحت هذه القوة للعناصر المهيمنة وللإنسان، بل إن الحرية موجودة نوعا ما هى الأخرى حتى فى العناصر: الماء والنار والهواء والضوء ، وفى الظلمات، ولكنها موجودة أكثر بكثير لدى الإنسان.

يستأنف أفيدا حواره هذا، ويعترض على أن الكائن البشرى غير قادر على تطبيق الوصايا الصعبة جدا المفروضة عليه . ويشرح الأستاذ عندئذ أن تطبيق هذه الوصايا لا يعتمد على القوة البدنية للإنسان، وإنما على إرادة النفس لهذا الإنسان، والله لا يطلب من الإنسان القيام بعمل غير قادر على أدائه.

عند ذاك، تدخل أفيدا سائلا معلمه : هل من السهل فعل الخير إذن ؟

فأجابه برديصان :

"من السهولة على الإنسان عمل الخير والابتعاد عن عمل الشر، إذ إن الخير هو الخاصية الفعلية للإنسان، وهو يبتهج عندما يؤدى عملا خيرا، بينما يمثل الشر عملا يأتى من الشيطان. لذلك فإن الإنسان لا يقوم بأعمال ممقوتة إلا عندما يكون خاضعا للأهواء، وعندما لا تكون طبيعته سليمة".

ثم يطرح أفيدا سؤالا عن طبيعة الحيوانات الخاضعة لقوانين ثابتة، إنها لا تملك ميزة حرية الاختيار، وعن طبيعة الإنسان، هل يأتى الشر من طبيعتنا إذن ؟

فيجيبه برديصان بهذا الجواب :

"تحتفظ الحيوانات بطبيعتها كما هى من خلال أعمالها... بينما لا تنطبق هذه القاعدة على البشر... فهم يتبعون الطبيعة مثلهم مثل الحيوانات عندما يتعلق الأمر بأجسادهم، لكن الأمر يختلف عندما يتعلق الأمر بالنفس، فهم فى هذه الحالة يعملون ما يشاءون نظرا لكونهم مخلوقات حرة، وأسياد أنفسهم، وهم على صورة الله".

ويستمر أفيدا فى البحث عن سبب وجود الشر فى العالم، ويتوجه إلى برديصان مستفسرا منه أن يزوده بجواب عن السؤال الآتى :

إذا لم يكن الشر نابعا من طبيعتنا، فهل يا ترى يصدر من القدر ؟

يجيب برديصان قائلا :

"هناك إذن القدر كما يقول الكلدان وليس كل شيء خاضعا لإرادتنا... وهذا الواقع يشكل أمرا بديهيا مثله مثل الثروات والسعادة والصحة والأمراض وجميع رغباتنا التى تعتمد على القدر، والتى لا نقدر على التحكم فيها كثيرا...

لنضف بضع كلمات لكى نبين أن القدر لا يتحكم مع ذلك فى كل الأشياء ، وفى الواقع فإن الشىء الذى نطلق عليه عبارة القدر، ما هو إلا أسلوب عمل منحه الله للقوى المتحكمة وللعناصر" .

وهكذا فإن الإنسان يبقى خاضعا لتأثير الطبيعة والقدر والإرادة التى تمثل حرية العمل، والتى تسمح بالاختيار بين الخير والشر فى كل ما لم تحدده الطبيعة أو المصير. بل إن حرية الإنسان قادرة أحيانا على رفض القدر الذى تتحكم فيه النجوم .

"باختصار، فإن الطبيعة تتحكم فينا نحن البشر جميعا بنفس الطريقة، أما القدر فهو يؤثر علينا بطرق مختلفة، إن كل واحد منا قادر على التصرف مثلما يشاء، بفضل الحرية" .

هنا تبرز المشكلة التالية : كيف نستطيع التحدث عن حرية كاملة للاختيار إذا لم يخرج الإنسان عن نوع من الحتمية ؟ لأنه لا يجرى كل شىء وفق إرادته.

شرائع الشعوب وعاداتهم

يستمر التلميذ أفيدا فى طرح أسئلته واستفساراته ليصل إلى نقطة أخرى رئيسية ومهمة .

هل يخضع البشر للقدر أكثر من خضوعهم لقوانين البلدان التى يعيشون فيها ؟

يجيب برديصان بأن البشر يتصرفون بطرق مختلفة حسب القوانين التى قاموا بسنها لأنفسهم. لقد أعطى برديصان أهمية خاصة فى حياته لعلم خصائص الشعوب وقوانينها.

وتطرق فى هذا المجال إلى شعوب مختلفة مثل الصينيين والهنود والفرس والجيليين Les Gèles والبختاريين والعرب واليونانيين والبريتانيين Bretons والفرثيين والأمازونيين والجرمانيين، وقدم تفاصيل غريبة فى آن واحد عن شرائعهم وعاداتهم وسلوكهم، وهو يعرض جوابه لتلميذه .

الصينيون :

" أبدأ حديثى، حسبما يتعين على، اعتبارا من الشرق الذى يمثل بالنسبة لى بداية العالم.

فقد منعت على الصينيين أعمال القتل والفحشاء وعبادة الأصنام، ولا يمكن فى أية بقعة من هذا البلد رؤية الأصنام ولا فتيات الهوى ولا مرتكبى الجرائم، على الرغم من تكاثر السكان الذين يولدون فى كل يوم وكل ساعة. وعندما يصل كوكب المريخ إلى خط الزوال فإن ذلك لا يؤدى إلى الضغط على حرية أى شخص لكى يقوم بسكب دم قريبه بسلاح حديدى" .

ويستمر برديصان فى الكلام بخصوص شعب الهند:

"تقضى الأوامر المطبقة لدى الهندوس، والموجهة إلى البراهمة الذين يزيد عددهم عن الآلاف بل وعشرات الألوف من البشر، بألا يقتلوا وألا يخدموا الأصنام وألا يرتكبوا الفحشاء وألا يأكلوا اللحوم وألا يحتسوا النبيذ، ولا يحدث أى شىء من هذه الأفعال من قبلهم؛ ويتصرفون منذ آلاف السنين بموجب هذه القوانين التى سنوها لأنفسهم" .

ثم يتناول فيلسوفنا قانون الفرس فيقول :

"وضع الفرس لأنفسهم قانونا يبيح لهم الزواج بأخواتهم وبناتهم وحفيداتهم، ويذهب البعض منهم إلى حد الزواج من أمهاتهم. وقد غادر البعض من أقوام الفرس وسكنوا بلاد ميديا وأطرابتين Atraptène فى بلاد الفرثيين وإلى مصر وفريجية Phrygie ،

ويطلق الناس عليهم فى هذه الأماكن تسمية المجوس. غير أنهم يستمرون مع ذلك وأينما حلّوا بتطبيق قوانين أجدادهم".

ويستعرض برديصان فى أجوبته أمثلة عن الفرثيين :

"توجد أماكن عديدة تقع فى مملكة الفرثيين، حيث يقوم الرجال فيها بقتل نسائهم وإخوانهم وأولادهم دون التعرض لأى عقاب، بينما يطبق الرومان والإغريق عقابا شديدا على من يرتكب جريمة القتل للتكفير عن الدم المسفوك .

عند الفرثيين يمكن للمرء أن يتزوج عدة نساء، يخضعن لزوجهن ولا يملكن إلا الطاعة له بكل عفة، و كل ذلك بفضل حكم القانون السائد فى هذا البلد." (ص ٤٧ و ٥٠)

ويلاحظ برديصان أنه عند البريتانيين Bretons يمارسون عادة تعدد الأزواج :

"يمكن لعدة رجال من البريتانيين أن يتخذوا زوجة واحدة فقط".

لا تتصرف النساء بنفس الطريقة فى أى مكان، فنجد أن الأمزونيات اللواتى يعشن فى مناطق قفقاسيا وآسيا وإفريقيا، على سبيل المثال، يتصرفن بهذه الطريقة:

"لا ترتبط أى من النساء الأمزونيات (اللواتى يشكلن شعبا كاملا) بعلاقة زواج مع أى رجل، ولكنهن يتركن منطقتهن مرة واحدة فى السنة فى بداية فصل الربيع، مثلهن مثل الحيوانات، ويخترقن نهر التيرمودونت، ويقمن باحتفال كبير فوق الجبل بعد عبور النهر. ثم يأتى رجال ذاك البلد حينذاك ويعيشون مع النساء الأمزونيات لمدة أربعة عشر يوما لمضاجعتهن، ثم يرجعن إلى بلدهن وهن حاملات. وتقوم النساء بعد إنجاب أطفالهن برمى الأطفال الذكور والتخلص منهم بينما يحتفظن بالإناث فقط" .

ويتذكر برديصان تصرف الشعوب الجرمانية معلقا على طريقة حياتهم :

"على العكس من ذلك وفى الشمال، نجد لدى الجرمان والشعوب المجاورة لهم، أن الرجال يتزوجون من الشباب الصغار ذوى القوام الرشيق ويقيمون حفلات كبرى بهذه المناسبة، ولا يؤدى هذا العمل مع ذلك إلى الشعور بالخجل أو العيب لديهم بسبب قانونهم...

ويموت جميع الجرمان خنقا باستثناء من يموتون فى القتال، ومع ذلك لا نستطيع القول بأن الأبراج الفلكية لكل الجرمان تشتمل على القمر والساعة بين كوكبى المريخ وزحل".

يستنتج برديصان إذن، بأن هذه الشعوب المختلفة لم تكن مرغمة فى سلوكها من قبل نشاط الحركات الفلكية، وإنما استنادا إلى تقاليدها ونواميسها :

"يولد الرجال فى جميع المناطق، فى كل يوم وفى كل ساعة حسب أبراج فلكية مختلفة جدا، ولكن قوانينهم فقط هى التى تتحكم فى المصير الذى يسيرون عليه ويتصرفون وفقا لعاداتهم".

أجل، يخضع الإنسان لنظام مجتمعه وعاداته، فهو يتطور بالتالى بطريقة مختلفة داخل قومه وبلده ، ويتبع قوانين شعبه بإخلاص، وهناك سلوك وقوانين وشرائع متعارضة ومختلفة من شعب لآخر.

برديصان رجل الثقافة

لقد عاش برديصان فى حاشية ملك الرها، كان مثقفا وله فكر مستقل وعقلية أصيلة، وكان شاعرا خصب الخيال.

وأظهرت كتاباته أنه كان مسيحيا يمتلك إيمانا متينا، لكن بعضا من آباء الكنيسة مثل أفرام السريانى قد أساءوا استيعاب معتقده، ولم يترددوا عن نعته بالهرطقة. ولكن ما هى يا ترى هرطقته ؟

لقد اقتفى برديصان بطريقة عقلانية، الأطروحات الفلكية التى كانت سائدة فى الفترة الزمنية التى عاش فيها . نبذ نظام الحتمية والقدر الذى تبناه المنجمون الكلدان، وتعرض لتأثير التيارات الفكرية السائدة، مثل تيار الفلسفة الرواقية المتأخرة. كان هذا التيار قد وضع تعريفا للحكمة يجعلها تتمثل فى معرفة القوانين التى تسير سلوك البشر، وأيضا معرفة قوانين الكون بأكمله والعيش بالتناغم معها .

على صعيد علم الإنسان فهم برديصان أنه كائن يتمتع بكرامة كاملة، وحاصل على نوع من الحرية التى تؤمن له إمكانية مواجهة المصير.

يعتقد الكثير من المفكرين اليوم أن مصير الكائن البشرى لا يمكن أن يعتمد على القوى الخارقة، فالإنسان هو الذى يحدد مصيره بنفسه، ويبنى مستقبله بشكل مستقل بغض النظر عن أى قيود خارجية، لأن مصير الإنسان هو الإنسان نفسه.

ترك الفيلسوف برديصان، عند وفاته، ابنا واحدا سماه هرمونيوس، وهو الذى درس فى مدينة أثينا وكتب أناشيد شعرية باللغة السريانية. وقد كان تلاميذه الذين حملوا تسمية البرديصانيين، ينحدرون من طبقات غنية وعائلات مثقفة استقرت فى الرها، وشكل هؤلاء التلاميذ جماعة مهمة بقيت حاضرة فى المجتمع إلى سنة ٣٤٥ تقريبا.

وتتواصل البحوث والدراسات فى أيامنا هذه عن برديصان، ذلك الفيلسوف السريانى.

هوامش الفصل الثانى

(١) ج. ر. فيلفوند J.R.Villefond، دروع المصارع Les Cestes يوليوس الإفريقى Julius Africains دراسة عن مقاطع مع نشر وترجمة شروح، نشر وطبع المعهد الفرنسى فى فلورنسا، باريس، ١٩٧٠، ص. ١٨٠-١٨٢ .

(٢) التاريخ الكنسى Histoire ecclésiastique، الجزء ٤، ٣٠، ترجمة ج. باردى G. Bardy، مجموعة المصادر المسيحية Sources chrétiennes، نشر دار سيرف Cerf، باريس ٣١، الجزء ١، ص ٢١٤-٢١٥ .

(٣) ف. نو F. Nau، الكون "الكوزموغرافيا" فى القرن السابع لدى السوريين La cosmographie au VIIème siècle chez les Syriens، مجلة المشرق المسيحى، ١٥، باريس، ١٩١٠، ص ٢٣٩ .

(٤) إ. رينان E.Renan ، تاريخ أصول المسيحية Histoire des Origines du Christianisme، مارك أوريل Marc-Aurèle، دار نشر روبير لافون R.Laffon، باريس، ١٩٩٥، الجزء ٣، ص ٩٧٤ .

(٥) المتحف البريطانى، المخطوطة ١٤٦٥٨، موجودة فى Spicilegium syriacum ، لندن ١٨٥٥ . ف. نو F. Nau، برديصان الفلكى، كتاب شرائع البلدان، النص السريانى وترجمة باللغة اللاتينية Patrologia syriaca، ١-٢، باريس، ١٩٠٧ .

(٦) برديصان الفلكى Bardesane l'astrologue، كتاب قوانين البلدان، دار نشر إرنيست لورو Emest Leroux، الترجمة الفرنسية من قبل ف. نو F. Nau .

الفصل الثالث

هيباس المترجم (ت٤٥٧) ومدرسة الرها الشهيرة

نشأة المدرسة

ينزلق الزمن مليئا بحركاته الهائجة، وتدور الشموس والأقمار وتسطع إشعاعاتها الدافئة، ويسرد التاريخ قصة تلك المدينة الصاعدة فى السماء اللازوردية التى عاشت فى الماضى الحى، وهى تنشر أشرعتها بين أمواج الرياح العاصفة من كل حدب وصوب، تلك المدينة التى حملت اسم الرها.

عاد الأسقف يعقوب النصيبينى من مدينة نيقية الواقعة فى آسيا الصغرى، سنة ٣٢٥ بعد أن شارك فى أول مجمع مسكونى عقده الإمبراطور الرومانى قسطنطين. وفتح للحال يعقوب مدرسة فى مدينته الأسقفية نصيبين. اتخذت هذه المؤسسة التعليمية الرائدة اسم "مدرسة الفرس"، نظرا إلى أن الطلاب الذين كانوا يرتادون صفوفها كانوا ينتمون إلى الديانة المسيحية، وينحدرون من عوائل ميسورة ومقيمة فى الإمبراطورية الساسانية.

وقام ملك الفرس شابور الثانى سنة ٣٣٧ - منتهزاً فرصة الفوضى التى عمَّت عقب موت الإمبراطور قسطنطين - بمهاجمة مدينة نصيبين. ويحدثنا "التاريخ السعردى" المكتوب قبل سنة ١٠٢٠ ميلادية[١]، بأن المدينة المحصنة لم تنجُ من الكوارث إلا بفضل صلوات الأسقف يعقوب والشماس الإنجيلى أفرام.

بعد فترة قليلة من ذلك شن الإمبراطور الرومانى جوليان (٣٦١- ٣٦٣) حملة على بلاد فارس، ولكنه ما لبث أن تعرض للإصابة بجرح قاتل، وفضَّل جيشه المغلوب على

أمره عندئذ التفاوض مع الملك شابور الثانى. وهكذا فقد تنازل الرومان عن مدينة نصيبين وعن منطقة أرمينيا للساسانيين، فأصبحت تابعة للإمبراطورية الفارسية.

ودخل جنود الملك شابور الثانى مدينة نصيبين سنة ٣٦٢ ونشروا الذعر بين أهاليها، وهرب مدرسو المدرسة وطلابها نحو تلال مدينة الرها فى الإمبراطورية الرومانية .

وكان أفرام (٣٠٦-٣٧٣) واحداً من هؤلاء الأشخاص الذين لم يجدوا أمامهم من حل إلا مغادرة مدرستهم وترك نصيبين مدينتهم الجميلة. أبصر هذا الشاب السريانى النور فى مدينة نصيبين سنة ٣٠٦ ، وخدم فى أحد أديرتها، ودرس بكل همة ونشاط، وأصبح بعدئذ شماسا إنجيليا بطلب من الأسقف يعقوب النصيبى لكى يعمل مفسراً للكتب المقدسة فى مدرسة نصيبين، على رأس المدرسين العاملين فيها.

تسرد لنا التقاليد المتوارثة بأن أفرام جلب معه حماسه التعليمى ومعارفه، فبعد أن لجأ إلى مدينة الرها فتح مدرسة فيها وُضعت تحت إمرة أسقف هذه المدينة، واستمر بعمل التعليم باللغة السريانية. وكان التلاميذ يتبعون دروسهم مع الخضوع التام لقوانين صارمة، كانت مدرسة مدينة الرها متأثرة بالأسلوب الذى كان سائدا فى المدرسة الأنطاكية المنحازة إلى الفلسفة الأرسطوطالية.

تطورت وازدهرت المدرسة فى زمن مديرها قيُّورى (٤٣٧) وتولى بنفسه إلقاء دروس لتفسير الكتاب المقدس. وتابع التلاميذ أيضا فى هذه المدرسة دروسا مختلفة عن مواضيع متنوعة، مثل البلاغة والفلك والتاريخ والجغرافية والفلسفة.

ورغب قيُّورى فى الحصول على ترجمة إلى اللغة السريانية لتفاسير نصوص الكتاب المقدس التى كان أسقف تيودورس المصيصى Théodore de Mopsueste (٣٥٠ - ٤٢٨) ، قد أعدها سابقا باللغة اليونانية، وكان تيودورس تلميذا للأستاذ الوثنى ليبانيوس (٣٥٠ - ٣٩٣)، أستاذ البلاغة فى أنطاكية، وهو الذى كتب ٦٤ خطابا و١٦٠٠ رسالة.

هيباس المعلم والمترجم والأسقف

ألم يكن ذلك الشخص هو هيباس المنحدر من بلاد ما بين النهرين، والذى قام بترجمة تفاسير تيودورس المصيصى إلى اللغة السريانية ؟

إن هيباس درس وعلم فى مدرسة الرها، وهو الذى منح هذه المدرسة نهضتها المهمة التى عرفتها.

ما المعلومات التى نعرفها عن أصول هيباس وطفولته ؟ نحن لا نعرف بالتأكيد معلومات كبيرة عنه للأسف الشديد. فى أى تاريخ بدأ هذا المترجم دراسته وأين قام بها ؟ كثيرة هى الأسئلة التى بقيت وتبقى بدون أجوبة أكيدة. على أن مشكلة لاهوتية حدثت مع ذلك وأدت إلى قلب حياة الأستاذ القدير رأسا على عقب.

فقد انعقد المجمع المسكونى الثالث سنة ٤٣١، فى مدينة أفسس، بدعوة من الإمبراطور تيودوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠). وأصدر أمرا بإقالة بطريرك القسطنطينية نسطورس، وأدان فيه معتقداته الدينية التى كانت تتبع التقليد العقلانى الذى كانت مدرسة أنطاكية قد اعتمدته فى منهجها الفكرى، وكان هذا المعتقد - المعروف باسم مبدأ الطبيعتين - يميز فى يسوع المسيح وجود طبيعتين متميزتين ومتكاملتين فى نفس الوقت، وهما الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية، مع إعطاء الطبيعة البشرية أهمية كبيرة، وله أيضا جوهران متحدان بشخصية واحدة فقط.

فى سنة ٤١٢ عُين رابولا الوثنى الذى اعتنق الديانة المسيحية أسقفا لمدينة الرها. وكان رابولا يدير شئون أبرشيته باقتفاء أسلوب إدارى صارم جدا، وانحاز إلى جانب الأسقف قورلوس الإسكندرى (٣٧٨-٤٤٤) الذى كان يقر بعقيدة الطبيعة الواحدة المعروفة بالمونوفستية. كانت هذه العقيدة تؤكد بشدة على جانب طبيعة المسيح الإلهية، وتعترف مع ذلك بوجود طبيعتين فى شخصه تشكلان معًا شخصية واحدة (جوهراً واحداً).

كان رابولا يفضل إذن المذهب المطبق فى كنيسة الإسكندرية، وكان يبذل كل جهده بحماس شديد فى أبرشيته لمهاجمة فكرة بطريرك القسطنطينية نسطورس.

وقد قام رابولا بطرد المترجم هيباس من مدينة الرها التى كان يشغل فيها وظيفة مدير المدرسة، لأنه كان قد انضم إلى مجموعة المفكرين الأنطاكيين ذوى النزعة الأرسطوطالية. كما أنه منع تراتيل الفيلسوف برديصان، وأحرق كتاب الدياتيصارون الذى وضعه الكاتب ططيانوس، وشرع أيضا يحرق كُتب تيودورس المصيصى، ونبذ أفكاره المؤيدة لمبدأ الطبيعتين.

ويذكر كتاب تاريخ مدينة الرها أن هيباس لم يرجع إلى مدينة الرها إلا بعد وفاة الأسقف رابولا، أى فى حدود سنة ٤٣٥ وقام على الفور ببناء كنيسة جديدة:

فى الثامن من شهر آب (أغسطس) سنة ٧٤٦ السلوقية[٢] فارق رابولا أسقف مدينة الرها الحياة، وخلفه الأب هيباس الكبير الذى شيد كنيسة جديدة تدعى اليوم بيت الرسل.

وفى سنة ٧٤٩ زمن أسقفية هيباس النابغة المشهور، أهدى عضو من أعضاء مجلس الشيوخ منضدة فضية كبيرة بقيمة تبلغ حينها ٧٢٠ ليرة، ووضعت فى كنيسة الرها القديمة[٣] .

أعطى كاتب هذا التاريخ الصفات المذكورة أعلاه مثل الكبير والنابغة المشهور لكى يعبر من خلالها عن احترامه وتقديره له. وهكذا فقد استلم هيباس الكرسى الأسقفى ونجح فى الحصول على الإعجاب الشديد من قبل الرعية أجمعها.

وكتب حوالى سنة ٤٤٦ رسالة مشهورة، وجهها إلى تلميذ قديم كان معه فى مدرسة الرها اسمه مارى، إنه مطرابوليط مدينة رواردشير الواقعة فى بلاد فارس. وقد عبر فيها عن أسفه الشديد للإدانة التى كانت قد صدرت بحق البطريرك نسطوروس الذى اضطر إلى الانزواء بعيدا فى أحد الأديرة الواقعة فى مصر، ومدح فى هذه الرسالة المعلم الكبير تيودورس المصيصى.

لم يتأخر الرد كثيرا، فقد تعرض مترجمنا هيباس للاتهام من قبل أربعة أعضاء من رجال الدين المنتمين إلى نفس أكليروسه، ولكنه استطاع أن يثبت لهم أنه ليس من أتباع نسطوروس، وتمكن بذلك من الحصول على البراءة التى صدرت من المجمع الدينى لمدينتى صور وبيروت، والذى عقد اجتماعا لهذا الغرض بدعوة من بطريرك مدينة أنطاكية. ولكنه تعرض للإدانة مع ذلك وحُكم عليه أخيرا مع مطارنة آخرين فى مجمع أفسس الثانى الذى انعقد سنة ٤٤٩ بدعوة من الإمبراطور تيودوس الثانى.

توصل بطريرك الإسكندرية ديوسقوروس الذى خلف قورلس الإسكندرى إلى دفع المجمع لكى يعترف بمبدأ الطبيعة، وحرم هيباس وعدداً من الأساقفة.

"انعقد مجمع ثان فى مدينة أفسس، وتمكن البطريرك ديوسقوروس من تطبيق عقوبة الحرم anathème على كل من أسقف القسطنطينية الكبير فلافيانوس وعلى دومنوس من أنطاكية وهيرونيموس من صور وهيباس من الرها وأوسيبيوس من دوريتيه ودانيال من حران وسوفرونيوس من مدينة تيلا وتيودوريت من سيير"(٤).

وهكذا، غادر هيباس إلى المنفى وحل محله الأسقف نونوس الذى كان يعتقد اعتقادا راسخا بمذهب المونوفستية (الطبيعة الواحدة).

ويذكر تاريخ الرها الحدث ويقول :

"ترك الأسقف هيباس سنة ٧٥٩ السلوقية مدينة الرها فى الأول من شهر كانون الثانى، وحل محله نونوس بتاريخ ٢١ تموز (يولية) . وبقى هذا الأخير فى الكرسى الأسقفى لمدة سنتين، وشيد مصلًى صغيرا داخل الكنيسة."(٥)

وحدث أن تعرضت الإمبراطورية الرومانية عند مجىء الإمبراطور مارسيان Marcien إلى السلطة سنة ٤٥٠ لأزمة دينية حادة. عندئذ، وبهدف احتواء هذه الأزمة، دعا الإمبراطور الجديد إلى عقد المجمع المسكونى الرابع فى مدينة خلقيدونية، المدينة الواقعة فى آسيا الصغرى على ضفاف نهر البوسفور. وهكذا فقد حرم المجمع فى هذا الاجتماع مذهب المونوفستية، وطلب من الكنيسة اعتماد قانون الإيمان المطبق فى مجمع نيقية المنعقد فى ٣٢٥ . كان هذا القانون يقر بأن للمسيح شخصية واحدة تمتلك طبيعتين.

واستعاد هيباس كرسيه الأسقفى ثانية وبقى يديره لمدة ست سنوات، كرسها للعمل على تحسين نوعية التعليم فى مدرسة الرها.

يذكر لنا فهرس المؤلفين الذى كتبه الفيلسوف ورجل القانون عبديشوع الصوباوى (١٣١٨) متحدثا عن المترجم هيباس بأنه ترك عدة مؤلفات قام بكتابتها، وكتب بهذا الخصوص معلقا على الأعمال التى أنجزها المترجم هيباس قائلا :

" هيبا وكومى وبربا نقلوا فن اليونانية إلى السريانية، كتب المفسر ومؤلفات أرسطو ، ووضع هيبا المترجم شرح الأمثال و تراجم وتراتيل ومناظرات مع الماحكين"(٦)

من الأرجح أن هيباس هو تلك الشخصية التى تمكنت من إدخال علم المنطق الأرسطوطالى إلى طريقة التعليم اللاهوتى، فقد ساهم هذا الأسقف مساهمة فعالة فى أعمال الترجمة من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية للمؤلفات والأفكار المنطقية العقلانية التى عبر عنها ديودورس الطرسوسى (٣٩٤) أستاذ تيودورس المصيصى.

توفى هيباس بتاريخ ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ٤٥٧، كما يذكر لنا ذلك كاتب تاريخ مدينة الرها .

وجاء الأسقف نونوس (٤٥٧ - ٤٧١) ليخلف مترجمنا الأسقف هيباس، وطُرد مناصرو الأسقف الراحل من مدينة الرها ليلجأوا بعدها إلى بلاد فارس، حيث تمكنوا من نشر مذهبهم هناك.

استحق الأسقف هيباس لقب "مترجم" بحق وحقيق، وبكل ما تعنيه هذه المهنة من معان فى حياته المضطربة، فقد تمكن هذا الإنسان الغيور من فتح طريق جديد أمام طلاب مدرسة الرها، هؤلاء الطلاب الذين فتنتهم حكمة الإغريق مثلهم مثل أستاذهم الذى استهوته هذه الحكمة قبلهم. وهكذا، فقد أصبح من الطبيعى أن تدرس مؤلفات أرسطو ومفسريه مثل الفيلسوف فرفوريوس (٢٣٤-٣٠٥ م) فى هذه المدرسة السريانية.

ويذهب أحد المستشرقين الألمان، وهو أ. بومستارك، إلى حد تأكيد أن الأسقف هيباس هو الذى قام بأقدم ترجمة إلى السريانية لكتاب الفيلسوف فرفوريوس المعروف باسم إيساغوجى Isagoge ، وهذا الكتاب هو موجز وشرح لكتاب المقولات Catégories للفيلسوف أرسطو. أهم ميزة لهذا الكتاب هى أن فرفوريوس قدم بأسلوب بسيط للقراء المبادئ الأساسية التى تميزت بها فلسفة أرسطو. ويشرح فيه المصطلحات الخمسة الرئيسية لهذه الفلسفة، أى الجنس والنوع والاختلاف والخاص والعارض.

ومن ناحية أخرى، يؤكد لنا الكاتب الفرنسى أرنست رينان فى كتابه المشهور عن الفلسفة المشائية لسيروس،[٧] أن الأسقف هيباس هو الذى "أدخل الفلسفة الأرسطوطالية والنسطورية" فعليا إلى مدينة الرها.

أيمكننا القول إن هيباس هو ذاك المفكر الذى منح لهذه الفلسفة دفعا قويا جعلها تصل إلى مثل هذه الشهرة ؟

وهكذا فقد ولدت وبرزت اعتبارا من القرن الخامس فى المشرق، حركة تفسير الفكر القديم وترجمة الكتب الإغريقية إلى اللغة السريانية، إنها حقا حركة ريادية.

هوامش الفصل الثالث

(١) التاريخ السعردى Chronique de Séert، دار نشر أدى شير Addai Scher, Brepols, Belgique، ١٩٨١ .
عن تاريخ هذه الأحداث راجع ج. م. فاى J.M. Fiey، علامات لتاريخ الكنيسة فى العراق Jalons pour une histoire de l'Eglise en Iraq، سوبسيديا CSCO, Subsidia ١٩٧٠ ، الجزء ٣٦ لوفين Lou-vain، ص ٢٢، الملاحظة ٩٣ .

(٢) يستعمل المؤرخون السريان التقويم السلوقى الذى يبدأ فى اليوم الأول من شهر تشرين الأول لسنة ٣١٢ قبل الميلاد.

(٣) أحداث مدينة الرها Chronique d'Edesse، ١، جيدى Guidi، CSCO، السريان، ١٩٥٥، (أحداث مدينة الرها، الجزآن ٥٩ و٦٠) .

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) فهرس المؤلفين، لعبديشوع الصوباوى ، فهرس الكتب الكنسية Catalogue des livres ecclésiastiques، ج. س. عصمانى J.S. Assemani، المكتبة الشرقية B.O، القسم ٣، الجزء ١، روما ١٧١٩-١٧٢٨ ، دار نشر وترجمة بالعربية جوزيف حبى، بغداد ١٩٨٦، ص٦٧

(٧) إ. رينان E.Renan، عن الفلسفة المشائية De Philosophia Peripatética Apud Siros، ص ١١٠ .

الفصل الرابع

بروبا الحكيم (القرن الخامس أو السادس)

لم يغادر ذاكرتنا الفيلسوف بروبا، ذلك الإنسان الذى نشأ فى أديم بلاد سوريا. لقد غرس هذا الفيلسوف شجرة العلم بكامل راحة يديه، واستهدف من معرفة الأشياء البلوغ إلى عناصرها الأساسية. هذا الفيلسوف الذى تمكن من وضع أسس أدت إلى إنشاء علاقة متينة بين الفكر والفلسفة الإغريقية من جهة وبين الثقافة السريانية الصاعدة من جهة أخرى.

كان بروبا دون أى شك واحداً من الفلاسفة الأوائل الذين كرسوا جزءًا كبيراً من وقتهم للاهتمام بالفلسفة اليونانية. عمل كاهنا ورئيس كهنة ورئيس أطباء فى مدينة أنطاكية في سوريا، يحتمل أن يكون بروبا قد عاش فى القرن الخامس وفق ما يورده بعض العلماء، أو فى القرن السادس وفق رأى بعض من العلماء الآخرين[١].

ترجم بروبا إلى السريانية كتاب إيساغوجى للفيلسوف فرفوريوس، وقام بعدئذ بشرحه.[٢]

لا بد أن يكون بروبا قد سمع الصوت القديم لأرسطو صاعدا نحوه ومتوجها إليه عبر ظلال غرفته، ليقوده إلى مؤلفاته الرائعة. لم يجد بروبا نفسه إلا وهو يستجيب مسحورا لهذا الصوت، وأن ينحنى ملبيا نداء المنطق، لأنه علم أن هدفه هو التمرن على التفكير الصحيح وكشف الخطأ فى آراء الآخرين .

وضع أرسطو مجموعة من ستة كتب لعلم المنطق، وسميت فيما بعد الأورجانون organon أى الآلة أو الأداة، وضع أرسطو فى هذه الكتب قواعد المنطق ونظامه بصورة جلية :

كتاب المقولات، وهى تدل على عدد وقوانين المفردات، يركز فيه الفيلسوف أرسطو على عشر مقولات رئيسية، وهى: الجوهر والكمية والنوع والنسبة والمكان والزمن والوضع والامتلاك والفعل وأخيراً الانفعال.

كتاب العبارة Interprétation، وهو دراسة شاملة لقوانين الألفاظ المركبة، وهى المقولات المركبة من مقولتين متميزتين.

البحث الثالث يحمل تسمية القياس، وهى التحليلات الأولية Premiers analytiques، وهو عبارة عن نموذج تحليلى يبحث من خلاله المؤلف موضوع الاستدلال الاستنتاجي Syllogisme وترتكز طريقته على القياس المنطقى الذى يؤدى إلى نتيجة وبرهان من المقدمتين الكبرى والصغرى من القياس.

البرهان هو موضوع التحليلات الثانية Seconds analytiques، فإنه يتطرق إلى علم البرهان الإثباتى. يتساءل المؤلف من خلالها عن الدور الذى يلعبه الاستدلال الاستنتاجي وعن الشروط التى أدت إلى نشوء هذا العلم الحقيقى.

المواضيع الجدلية Les Topiques تتمثل فى البحث عن موضوع النقاش دون البحث فى المشكلة المتعلقة بالحقيقة أو الجوانب الخاطئة التى يحتويها الخطاب.

وأخيرا الحكمة المموهة Les réfutations sophistiques، وقد احتل هذا الكتاب المركز السادس فى هذه السلسلة الخاصة بعلم المنطق. رفض أرسطو من خلال هذا الكتاب العيوب التى يعرضها التفكير السفسطائى والخطباء البارعون فى موضوع البلاغة والبيان.

بروبا وكتاب القياس

دفع بروبا إلى كشف وإدراك علم المنطق عند معلمه أرسطو، لذا باشر فورا ترجمة كتاب العبارة إلى لغته السريانية وشرحه، وينسب اليوم بعض المفكرين إلى الفيلسوف بروبا مهمة شرح كتاب العبارة L'interprétation (٣)، وترجمته(٤) .

قام بروبا بترجمة كتاب القياس لأرسطو، لكنه اهتمَّ بشرح دقيق لهذا الكتاب الذى هو ركيزة أساسية لعلم المنطق. ويهدف من هذا الشرح، كما يذكر لنا الفيلسوف بروبا، إلى عرض موضوع القياس المنطقى للمبادئ المثالية بصورة عامة. وهو يقسم القياس المنطقى إلى ثلاثة مقاييس، هى المقاييس القطعية الثابتة والجدلية والسفسطائية.

ويقدم لنا الفيلسوف بروبا فى مقدمة شرحه تعريفا للمنطق :

"قد يسأل سائل ما موضوع هذا الكتاب ؟ نجيبه بأن الموضوع يتعلق بالمنطق. ولكن السائل يطلب فى استفساره ويسأل ما المنطق ؟ هل هو إذن جزء من الفلسفة؟ أو أنه أداة هذه الفلسفة ؟ صحيح أن الرواقيين يدعون أنه يشكل جزءًا من الفلسفة، لكن أرسطو يعتقد أن المنطق يشكل أداة الفلسفة ويعتبره جزءًا منها فى نفس الوقت."

اعتراضات الرواقيين

"يسعى الرواقيون لإظهار المنطق على أساس أنه يشكل جزءًا من الفلسفة استناداً إلى اعتراضين اثنين.

الاعتراض الأول : أن كل ما يستخدم من قبل علم، ولا يشكل بأى حال من الأحوال جزءًا من علم آخر، ولا عنصراً ينتمى إلى جزء يستخدمه، يشكل بالضرورة جزءًا من العلم الذى يستخدمه. هكذا علم الفلك يستخدم المنطق الذى يشكل جزءًا من الفلسفة. المنطق لا يشكل جزءًا من أى علم آخر، فإن الأمر يبدو شيئًا بديهيا...

تنقسم الفلسفة إلى جزأين هما الفلسفة التفكيرية والفلسفة التطبيقية، ويحتوى كل منهما مع ذلك على موضوع وهدف محدد لكل منهما. يمكن بهذه الطريقة القول : إذا كان الطب يهتم بموضوع جسم الإنسان وأن غايته تتمثل فى الاهتمام بصحة الإنسان، فإن العناية التى يقدمها تتمثل أساسا فى منح الصحة للإنسان والمحافظة عليها. ينطبق نفس الشيء على الفلسفة الفكرية التى تتناول الأشياء الموجودة كافة، والتى تتمثل غايتها فى التوصل إلى العلم الحقيقى للأشياء. ونجد من جهة أخرى أن الفلسفة التطبيقية تهتم بموضوع روح الإنسان وأن غايتها تتمثل فى تجميل هذه الروح البشرية. تستخدم الفلسفتان، الفكرية والتطبيقية إذن، واستناداً إلى نفس القاعدة، مبادئ المنطق وتطبيقاته، حتى وإن لم يشكل هذا المنطق مع ذلك عنصرا ينتمى إلى جزء من الفلسفة."

جواب برويا

"نحن نجيب بما يلى : اعتراضكم الاستدراكى غير كامل... لذلك فإن هذا الاعتراض الاستدراكى لا يمكن أن يكون مقبولا. وهكذا فإنهم يعرضون اعتراضهم الثانى استنادا إلى الطريقة التالية : كل شيء ينتمى إلى الأشياء التى يقوم نظام من الأنظمة بشرحها لا بد أن يشكل جزءًا من هذا النظام. جوابنا عن هذا الالتباس هو الرفض أيضا لأنه غير كامل هو الآخر..."

المنطق يمثل أداة بالنسبة لأرسطو

"يسعى أرسطو إلى إبراز المنطق على أساس أنه يشكل أداة للفلسفة. يرتكز مبدأ هذا الاعتقاد على أن كل ما يستخدمه نظام من الأنظمة، وأن كل ما يخضع لأمر، يتم وضعه استنادا إلى أن مثل هذا النظام ينتمى بالضرورة إلى مستوى أدنى من مستوى النظام الذى يستخدمه. نرى استنادا إلى ذلك أن صناعة الكوابح تمثل مهنة تخضع

ممارستها لخدمة فن ركوب الخيل. وينطبق بالتالى نفس الشىء أيضا على مواضيع النحو والبلاغة والأنظمة الأخرى المماثلة لها، والتى تستخدم المنطق الذى تم وضعه لأجل خدمة هذه العناصر. بالتالى يحتل جزء من الفلسفة مستوى يقل عن المستوى الذى يحتله علم النحو والبلاغة، وهو ما يمثل أمراً غير معقول وعبثياً" (٥).

كرس الفيلسوف بروبا اهتماما كبيرا بكتاب التحليلات الأولية، بل قد نُسبت إليه ترجمة قديمة جدا لهذا الكتاب. ويجب الإشارة مع ذلك إلى الأهمية التى يكتسيها شرحه الذى يقدم لنا فيه موجزاً مفيدا لأشكال القياسات الاستنتاجية القطعية فى موضوع الفلسفة المعقدة. وقد اقتفى فى الواقع، الكثير من المؤلفين السريان هذا الشرح فى القرنين السادس والسابع.

ظهر هيباس وبروبا فى هذه الفترة المزدهرة، وعملا على تزويدها بالكثير من أفكارهما، وكأن ظهورهما لم يجئ إلا لتطوير حركة ترجمة الفكر الإغريقى وصياغته وإغنائه عن طريق نقل مبادئه إلى اللغة السريانية. والواقع أنهما طالما بحثا فى أفكارهما الفلسفية عن جواب، بل عن أجوبة للعديد من الأسئلة التى طرحاها على امتداد ليالى أثينا الطويلة بالكامل، والتى كان أرسطو يخترق أجواءها، مثله مثل نيزك وهو يخترق آفاق السماء الواسعة.

هوامش الفصل الرابع

(١) أ. بومستارك A. Baumstark يعتقد أن نشاط بروبا بدأ فى القرن الخامس، بينما يرى مستشرقان آخران هما الإنجليزى س. بروك S. Brock والفرنسى هـ. هوجونار روش H. Hugonnard-Roche أنه بدأ فى القرن السادس.

(٢) إيساغوجى Esagoge، ترجمة بروبا إلى اللغة السريانية، راجع أيضا بهذا الصدد كتاب ج. فوسته J. Vosté، فهرس المكتبة السريانية الكلدانية فى دير سيدة الزروع بالقرب من القوش فى العراق، باريس، المكتبة الشرقية، المستشرق ب. غوتنير P. Geuthner، ١٩٩٢، كوديكس Codex LIII ، وقد نشر الجزء الثانى من شرح إيساغوجى من قبل أ. بومستارك A. Baumstark، المذكور نصه أعلاه، ص ١٤٨ .

(٣) ينسب أ. بوستارك إلى بروبا ترجمة التحليلات الأولى .Premiers Analytiques

ويمكن للقارئ مراجعة الجدول الخاص بالفلاسفة الإغريق المترجمة أعمالهم فى نهاية الكتاب الحالى.

(٤) منشور من قبل ج. هوفمان G.Hofmann فى كتاب تحت عنوان De Hermeneuticis apud Syros Aris-toteleis، ص ٦٢، الترجمة اللاتينية. ص ٩٠ .

راجع أيضا فهرس المكتبة السريانية الكلدانية فى دير سيدة الزروع كوديكس ٥٣ .Codex LIII وهو يحتوى على كتب إيساغوجى Esagoge والتحليلات Analitiques والأصناف Catégories و Peri-Hermaneıas (لغاية الكتيب ٢٤) وترجمة الإيزاكوج لبورفير Porphyre (لغاية الكتيب ٤) المترجمة من قبل بروبا .

(٥ص) بحث الفيلسوف السريانى بروبا حول التحليلات الأولى Le Traité du philosophe syrien Proba sur les Premiers Analytiques d'Aristote، ترجمة أ. فان هوناكير A. Van Hoonacker، الصحيفة الآسيوية Journal Asiayique، الجزء ١٦, الصفحات ٧٠-١٦٦، باريس ١٩٠٠ .

الفصل الخامس

سرجيوس الرأسعينى الطبيب والفيلسوف (ت ٥٣٦)

رسول آت من زمن بعيد، ذلك هو الطبيبُ سرجيوس الذى نشأ فى مدينة رأس العين، والذى عاش تحت دفء إشعاعات شمسها المشرقة، وارتوى من ينابيع مياهها الغزيرة، ونهل من رحيق الكتب الإغريقية. لقد استطاع هذا الطبيب البارع سحب خيط الفلسفة الحساس والرفيع بين يديه، وحمَّله بأجمل الرسائل التى وجهها إلى أصدقائه السريان.

اهتم المؤرخ السريانى المشهور ابن العبرى الذى عاش فى القرن الثالث عشر بهذه الشخصية الفذة، وتطرق إلى حياة الطبيب سرجيوس وأعماله النادرة حيث يقول عنه :

" وفى هذا الزمن عُرف سرجيوس الرأسعينى، الفيلسوف ومترجم الكتب من اليونانية إلى السريانية ومصنفها، وكان على مذهب ساورى "[(١)] .

الطبيب سرجيوس كان أيضًا فيلسوفا ومترجما ورئيس أطباء وكاهنا سريانيا غربيا من أتباع عقيدة سيوريوس . كان سيوريوس الأنطاكى يعتبر رئيس المذهب المونوفستى (٤٦٤ – ٥٣٨) داخل الإمبراطورية الرومانية فى بلاد المشرق، بعد أن تعرضت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب للزوال سنة ٤٧٦ تحت ضربات البرابرة.

وكانت التقاليد والمؤسسات التربوية لهذه الإمبراطورية مستمرة وقائمة مع ذلك فى مراكز المدن الكبرى. ازدهرت فى ذلك الوقت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فى مدن مختلفة مثل روما، وترعرعت هذه الفلسفة خصوصا فى مدينتى الإسكندرية وأثينا، ممزوجة بتيارات أرسطوطالية متصلة اتصالا وثيقا بالعلوم.

سرجيوس التلميذ فى مدينة الإسكندرية

لم يتمكن المؤرخون من معرفة مكان ولادة سرجيوس، ولم يذكروا أى شيء عن طفولته. ويقدم كتاب التاريخ الكنسي - الذى حُرِّر سنة ٥٦٩ من قِبَل كاتب مغمور انتحل اسم زكريا، وكان راهبا ينتمى إلى المذهب المونوفستي - معلوماتٍ عن هذه الشخصية البارزة، ورسم لنا فى كتابه صورة عن سرجيوس، تميزت بصفة خاصة بكونها خالية من المجاملة نحوه، حيث يصفه على سبيل المثال بأنه :

"كان رجلا بليغا ومنهمكا فى قراءة العديد من المؤلفات اليونانية، ومتبحرا فى مذهب الأوريجين، وقد كرس فترة ليست بالقصيرة من حياته قضاها فى مدينة الإسكندرية لدراسة تفسير كتب علماء آخرين. كان يقرأ ويتكلم اللغة السريانية، وكان خبيرا فى الأمور الطبية. وكان معتنقاً للديانة المسيحية، كما تشهد على ذلك المقدمة التى كتبها وترجمته القيمة للكاتب دنيس، والخطاب الذى حرره حول الإيمان فى عصر الأسقف بطرس الشهير. ولكن سرجيوس كان مع ذلك يسلك فى أخلاقياته تصرفا آخر فى علاقته مع النساء، فقد كان فاسدا وخليعا، وكان مولعا ولعا شديدا بالعشق والمادة على حد السواء" (٢).

يؤكد هذا المؤلف أن سرجيوس كان قد توجه - لمتابعة دراسته وهو لم يزل شابا فى مقتبل العمر - إلى مدينة الإسكندرية التى كانت تمثل حينئذ المدينة الثانية فى إمبراطورية الشرق والتى كان يسكنها ما لا يقل عن ٦٠٠ ٠٠٠ ستمائة ألف نسمة. كانت موانئ هذه المدينة تشهد فى تلك الفترة حركة بحرية مهمة، حيث كانت تمر عبر موانئها منتجات متنوعة: الكتان وأوراق البردى والعطور والصناعات الزجاجية ومختلف أنواع المجوهرات. كانت الأفكار هى الأخرى تنتقل عبر أجواء هذه المدينة المصرية المتميزة بحيوية روحها المتقدة وبأجناسها المختلفة، مثلها مثل حركة البضائع التى كانت تتداولها الأيادى من كل حدب وصوب. يتجه الطلاب إليها من أنحاء الشرق الأدنى كافة لدراسة الفلك والهندسة والطب والبلاغة وعلوم اللاهوت وشرح الكتاب المقدس.

ومن المحتمل أن سرجيوس قد تابع فى مدينة الإسكندرية حوالى سنة ٥٠٠ محاضرات الفيلسوف أمُونيوس (٤٤٠-٥١٧) الذى كان مشهورا بشرح مبادئ فلسفة

أرسطو. كان أمُّونيوس بن هيرمياس تلميذا من تلاميذ الفيلسوف بروكلوس. مما سهَّل لسرجيوس تعميق معارفه فى ميدان الفلسفة والطب واللغة اليونانية.

مدينة رأس العين

ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة رأس العين، تلك المدينة الهادئة الواقعة فى أعالى بلاد ما بين النهرين بالقرب من ينابيع مياه نهر الخابور. وقد شهدت أيضا هذه المنطقة تطورا واسعًا فى الحياة الفكرية كما هو الحال فى كل مراكز الثقافة، أنطاكية وحران والرها، وكان تدريس اللغة اليونانية والفلسفة المشائية فى هذه المراكز. وهكذا بدأ النسيج المخملى للأفكار يبسط أبعاده أمام الدارسين بعناية تامة.

خضعت مدينة رأس العين للاحتلال من قبل الإمبراطور الرومانى سبتيمُس سويروس (١٩٣-٢١١). ويحدثنا كتاب تاريخ مدينة الرها بأن الإمبراطور ثيودوس الأول قد أطلق اسمه الشخصى عليها سنة ٣٨١ حيث حملت عندئذ اسم ثيودوسيوبوليس :

"لقد أنشأ الإمبراطور ثيودوس الكبير سنة ٦٩٢ السلوقية فى منطقة أوسرهوين مدينة رأس العين" (٣).

ويسرد لنا المؤرخون السريان مثل ميخائيل الكبير وابن العبرى أنه بعد وفاة سرجيوس بمدة طويلة اجتاح الفرس مدينة رأس العين سنة ٥٧٨ ، لكنه بعد فترة زمنية تنازل عنها بعد ذلك للرومان الملك الساسانى خسرو الثانى سنة ٥٩١ .

أما اليوم، فإن مدينة رأس العين قضاء صغير ينتمى إداريا لمدينة الحسكة فى سوريا الحالية.

استقر سرجيوس فى هذا المكان الريفى المزدان بخضرة الطبيعة الخلابة، ومارس وظيفته طبيبًا فى المدينة. ووصل سريعا أعلى مرتبة مهنية، ألا وهى وظيفة رئيس الأطباء.

انكب بفضل كفاءته وإرادته على دراسة مبادئ الفلسفة وممارسة فن الترجمة فى نفس الوقت. إلا أن سرجيوس هذا رغم ارتباطه بالكنيسة المونوفستية، مثلما يذكر لنا ذلك ابن العبرى، بقى بعيدا، كما تشير الأحداث، عن الخصومات الدينية حول شخصية المسيح، والتى ولدت مشاحنات كثيرة أدت إلى تمزيق واسع فى الكنيسة، من بين ما أدت إليه .

لقد ألف طبيبنا وفيلسوفنا سرجيوس عدة كتب دينية وروحية، أشهرها بحثه الذى حمل عنوان "مذكرات عن الحياة الروحية"(٤).

الأعمال الطبية والفلسفية

وقد تمكن سرجيوس من ممارسته الواسعة فى مجال الطب أن يعرِّف السريان بأعمال أشهر الأطباء الإغريق.

وهكذا، نجد أن فيلسوفنا هذا هو الذى عرف قومه بشخصيات مثل أبيقراطس (٤٦٠ –٣٧٠ ق م) الذى اشتهر بأسفاره العديدة على امتداد بلاد الإغريق وآسيا الصغرى، والذى استقر أخيرا فى مدينة كووس ؛ فاتسعت دائرة شهرته بفضل كتابه المعروف "كوربيس" الذى جمع فيه كمية نادرة من البحوث الطبية الرائدة.

وقام سرجيوس بتقديم علوم جالينوس الطبية والفلسفية إلى السريان. جالينوس من مدينة بيرغام (١٣١-٢٠١ ق م)، أكبر شخصية طبية للعصور القديمة بعد الطبيب أبيقراطس، تابع دراسته فى مدينة الإسكندرية ، وأصبح فيما بعد طبيبا للإمبراطور مارك أوريل فى روما. وهو الذى أنشأ ميدان الطب التجريبى، وشكلت أعماله الغزيرة أساسا للمعارف الطبية. وقد ألف جالينوس أكثر من خمسة وثلاثين بحثا حول المسائل الفلسفية المهمة. هو الذى بحث نظرية البراهين De Demostratione ، وهو الذى درس مبادئ التكوين المنطقى Institutio logica والقياسات المنطقية والفلسفية والأخلاقية ...إلخ.

يؤكد الطبيب والمترجم السرياني الشرقي الشهير، حنين بن إسحاق الذي عاش في بغداد في القرن التاسع الميلادي، في رسالته المعنونة "رسالة إلى علي بن يحيى عن كتب غاليان المترجمة" حسب معرفتي، أن سيرجيوس كان قد قام بترجمة ١٢ كتابا لأبيقراطس و٢٦ بحثا لجالينوس، وكانت هذه التراجم متفاوتة من حيث نوعية الترجمة.

أما ابن أبي أصيبعة (١١٩٤-١٢٧٠)، المؤرخ البيليوجرافي العربي المشهور، فإنه قد أشار في كتابه المعروف "عيون الأنباء في طبقات الأطباء إلى تراجم سرجيوس المنقحة على يد حنين، حيث يقول :

"سرجيوس الرأسعيني، وهو أول من نقل كتب اليونانيين على ما قيل إلى لغة السريانيين، وكان فاضلا، وله مصنفات كثيرة في الطب والفلسفة. من أهل مدينة رأس العين، نقل كتبا كثيرة، وكان متوسطا في النقل. وكان حنين يصلح نقله، فما وجد بإصلاح حنين فهو الجيد، وما وجد غير مصلح فهو وسط." (٥).

اكتشف الكاتب أرنست رينان بسرور كبير - خلال إحدى زياراته إلى مدينة لندن سنة ١٨٥٢ - بحوثا أو نوعا من الكتيِّبات الفلسفية المحررة باللغة السريانية. كانت محفوظة في المتحف البريطاني داخل ثلاث مخطوطات (الملاحق ١٤٦٥٨ و ١٤٦٥٩ و ١٤٦٦٠). وقد تحدث العالم الفرنسي بحماس شديد مع أحد أصدقائه عن هذه المخطوطات في رسالته الشهيرة التي حمل عنوانها "رسالة إلى السيد رينو عن بعض المخطوطات السريانية في المتحف البريطاني"(٦).

احتوت المخطوطة (لندن، الملحق ١٤٦٥٨) على عدة نصوص منسوبة من قبل المستنسخ إلى سرجيوس. وكانت من بين مواضيعها بحوث تتحدث عن أسباب الكون بحسب مبادئ أرسطو، وتتطرق أيضا لموضوع الجنس والنوع والفرد، إضافة إلى موضوع عن كيفية التعرف على مسار القمر.

وكان سرجيوس قد وجَّه هذه البحوث إلى تيودور تلميذه وصديقه، والذي أصبح سنة ٥٤٠ رئيس أساقفة لمدينة مرو في خراسان (بلاد فارس)، وقد كرس تيودور نفسه لدراسة الفلسفة المشائية.

ويعتقد رينان أن سرجيوس أنجز أيضا بحثا فلسفيا عن موضوع الاسم والفعل وبحثا آخر عن موضوع التأكيد والنفى. ونقل إلى اللغة السريانية المؤلَّف المعروف "إيساغوجى" للفيلسوف فرفوريوس.

كما نقل سرجيوس من اللغة اليونانية إلى السريانية بحثا تحت اسم "دراسة عن العالم" وهو البحث المنسوب خطأً إلى الفيلسوف أرسطو، وفيه تُعرَّف الفلسفة بأنها موضوع إلهىٌ وسامٍ.

كتب سرجيوس بحثا عن العبارات موجها إلى شخص يدعى فيلوتيه(٧). ويحتوى دير سيدة الزروع الواقع بالقرب من مدينة القوش أيضا على بحث حرره سرجيوس حول العبارات(٨).

بحث سرجيوس عن المنطق

هناك دراسة لسرجيوس عن المنطق تتكون من سبعة أجزاء (غير كاملة)، تقدم شرحا واسعا عن كتاب المقولات، وهى الدراسة المحفوظة فى المخطوطة المودعة فى مدينة لندن (الملحق ١٤٦٥٨). وكانت هذه الدراسة موجهة إلى تلميذه تيودور من مدينة مرو، والذى طالما كان يحث أستاذه سرجيوس على القيام بمثل هذا العمل.

صحيح أن الجزء الأول من هذه الدراسة مازال مفقودا، إلا أن كل من أراد قراءته يجده ضمن مخطوطة سريانية تحت الرقم ٣٥٤، وهى المخطوطة المحفوظة اليوم فى المكتبة الوطنية بباريس.

يعبر سرجيوس فى دراسته و بحثه هذا عن تحمسه وإعجابه بفلسفة أرسطو التى تحمل قوة كبيرة، منحتها لها المبادئ التى توصلها إلى جميع أنواع المعارف.

وعندما كان يقوم بترجمة مؤلفات الطبيب جالينوس سأله صديقه و تلميذه تيودور عن الطريقة التى استطاع هذا من خلالها العثور على مبادئ المعرفة، وعن كيفية

بدايتها لديه، فما كان منه إلا أن أجاب عن ذلك بتحليل جليل، يجعل من الفلسفة أساسا لبلوغ مبادئ المعرفة البشرية :

"أما بالنسبة لي، فلقد أجبت عن ذلك بكامل الحب الذى أكنه للدراسة، والمنغرس في داخلي . أؤكد أن أصل وبداية كل معرفة كان أرسطو، ليس فقط بالنسبة إلى جالينوس وإلى الأطباء الآخرين المماثلين له، وإنما بالنسبة إلى كل المؤلفين الذين يحملون تسمية الفلاسفة .

لقد كانت جميع أجزاء الفلسفة و المعرفة مبعثرة مثل تبعثر الأدوية هنا وهناك، بدون أن تخضع إلى أى نظام أو أى علم لدى جميع المؤلفين، إلى اليوم الذى أتى فيه هذا الرجل أرسطو إلى الوجود .هو أرسطو الذى استطاع باعتباره عالما وطبيبا، أن يوحد كل هذه الأجزاء التى كانت مبعثرة قبل مجيئه، ثم جمعها بطريقة فنية وعلمية، بحيث استطاع أن يعدّ – اعتبارا من هذه الأجزاء – بلسما يزيل المرض و الجهل عن كل من ينكب على دراسة كتبه بجدّية "(٩).

كان قد سبق لسرجيوس أن عبّر شفهيا لتلميذه وصديقه تيودور عن إعجابه الشديد بأرسطو، ذلك الفيلسوف المنظم والمركب بطريقة منهجية للعلوم .

تنقسم الفلسفة، حسب التقاليد المتوارثة فى مدينة الإسكندرية، وكما فهمها سرجيوس، إلى جزأين اثنين، هما الجزء النظرى والجزء التطبيقى أو العملى. يشتمل القسم النظرى منها على اللاهوت وعلوم الفيزياء والرياضيات. أما القسم التطبيقى أو العملى، فإنه يشتمل على طريقة إدارة الشعب والفرد معا . ويشرح هكذا :

"يقال أيضًا، بما أن النفس العاقلة التى هى أُمُّ المعارف منقسمة إلى قسمين، فإن الفلسفة أيضا، والتى تشكل أساس المعرفة لكل شىء، وللسبب عينه ، تنقسم هى الأخرى إلى قسمين. وجميع قوى النفس منقسمة أيضا إلى نوعين من القوى، وهو ما يقال فى العديد من الأماكن. ويقال فى هذا الصدد إن قسما منها هو قواها الإدراكية مثل العقل والذكاء والتفكير، والأقسام الأخرى هى القوى الحيوانية مثل الرغبة

والشهوة والإرادة. أجل إن الفلسفة تسعى إلى تطهير النفس بأكملها وتنقيتها تنقية تامة ، لذلك يقال أيضا إنها تنقسم إلى جزأين."(١٠).

بقى أرسطو وما زال باقيا بالتأكيد الأب الحقيقى للمنطق، وبواسطته مهد السبيل لولادة العلوم. المنطق يعدُّ القواعد التى يجب أن يراعيها الفكر فى عمله، كان علم المنطق يتعامل بأقصى عناية مع المفاهيم والقضايا الفكرية والاستدلال بغض النظر عن محتواها.

كان علم المنطق يمثل بالنسبة لسرجيوس أداة أو وسيلة يستعملها كل من فرعى الفلسفة النظرى والتطبيقى على حد سواء ؛ وهكذا بإمكان المرء بناء ركائز العلم وتشييد أسس المعرفة الشاملة. ويُستخدم المنطق بداية ضرورية قبل البدء فى تنفيذ أى جزء أو عمل علمي؛ لأن المنطق يعطى قواعد البرهان تحت أنواع متعددة. ويشكل القاعدة الواسعة لمختلف أشكال وأنواع القياس المنطقى Syllogisme بأوسع معانيه وأدق مدلولاته. يزوِّد علم المنطق الفكر الإنسانى بآلة قوية لمعرفة الصواب. وكان المنطق يمثل ذلك المفتاح القادر على فتح باب الدخول إلى "كتب الطب" وإلى "مذاهب الفلاسفة" وإلى "الفكر الحقيقى للمؤلفات الدينية". لنترك الكلام لسرجيوس:

"إذا كان الوقت متاحا لنا وإذا سمحت لنا الظروف بكتابة كل المؤلفات وجمعها الواحد بعد الآخر حول علم المنطق فإنك سوف تكتشف أنه بدونها تبقى أبواب معانى المؤلفات الطبية موصدة أمام الفهم ومذاهب الفلاسفة بدون استيعاب، وكذلك بالنسبة للكتب السماوية (...). لا يمكن أن يتوفر فى الواقع، أى مسلك ولا أى طريق يسمح بالوصول إلى أنواع العلوم كافة، على مستوى القدرات البشرية، إلا ذلك الطريق الذى يقود إلى تعلم مبادئ علم المنطق" (١١).

استعاد الفلاسفة السريان إذن هذه التقاليد التى أكدت على مبدأ تقسيم الفلسفة إلى فرعين رئيسيين، غير أن المنطق الصورى التحق فيما بعد بعلوم مثل الرياضيات وحمل عند ذلك اسم المنطق الرياضى أو المنطق الرمزى وفق المصطلحات الحديثة.

عالج الفيلسوف سرجيوس موضوع الفلسفة باعتباره طبيًا أولا وقبل كل شىء، واستخدم لذلك مفردات طبية على مستوى المنطق، مثل الأجزاء والدواء والشفاء. وبدأ بصياغة المصطلحات التقنية انطلاقا من مبادئ علم المنطق، وأنشأ بذلك صلة وثيقة بين الفلسفة الأرسطوطالية والعلوم الطبية.

ويبدو أن هذا البحث الأصيل الذى كتبه سرجيوس عن علم المنطق لدى أرسطو يبقى عمله الفلسفى الأكثر أهمية فى هذا المجال.

وقد كان المستشرقون الذين تعمقوا فى أعمال سرجيوس ومؤلفاته مجمعين على الاعتراف بدور فكره الواضح والمتفتح، والتأكيد على التقدم الذى استطاع هذا الفيلسوف الطبيب إحرازه فى فن الترجمة التى مارسها مهنة، فتحت آفاق الفلسفة أمامه بشكل رئيسى. كانت التراجم التى يقوم بها تتسم بنقص المهارة فى البداية، ولكنها أصبحت مع مرور الزمن قادرة على منح محتوى النص اليونانى صورة شدت من قوته، وجعلت منه نصا أقرب ما يكون من لغته المترجم إليها.

كان سرجيوس يرغب بالتأكيد من خلال كتاباته، فى نشر علم الطب الإغريقى- اعتبارا من مؤلفات جالينوس- فى بلدان الشرق. واهتم كثيرا بإطلاع الشعب السريانى على نظرية المعرفة التى اعتمدها أرسطو فى إرساء مبادئ علم المنطق، وذلك انطلاقا من التعليم العميق الذى تمكن من كسبه على أيادى أساتذته الإسكندريين.

كان سرجيوس يقتفى فى الواقع مسارا أراد من خلاله إنجاز أعمال مدرسة الرها عن موضوع المنطق، ومحاولة تقريب الحضارتين الإغريقية والسريانية، ونشر المعرفة الإغريقية فى الشرق.

وقد توفى كاتبنا الطبيب والفيلسوف فى مدينة القسطنطينية أثناء سفرة له إليها فى ربيع سنة ٥٣٦ .

وكانت تلك الفترة الزمنية مطابقة للفترة التى قام فيها الإمبراطور يوستينيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) بالانتهاء من آخر مرحلة من مراحل تشييد كنيسة آيا صوفيا المتألقة، والتى أهداها الإمبراطور للحكمة الإلهية، استنادا إلى التصاميم العمرانية التى وضعها كل من المهندس المعمارى أنطيميوس الذى نشأ فى مدينة طرال وإيزيدور من مدينة ميليه.

هوامش الفصل الخامس

(١) ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول : دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص ٨٧.

(٢) هـ. هوجونار-روش H. Hugonnard-Roche، : أضاف سرجيوس الرأسعينى أرسطو فى مقدمة الفلسفة فى الشرح السريانى (ت ٥٣٦). Les catégories d'Aristote comme introduction à la philosophie, dans un commentaire syriaque de Sergius de Resh aina، فى Documenti e studi sulla tradizione filosofica medievale، الجزء ٨، ١٩٧٧، ص ٣٤٤ .

(٣) أحداث مدينة الرها Chronique d'Edesse، ١، جيدى Guidi، CSCO، السريان ١٩٥٥ .

(٤) ب. شيروود P. Sherwood ، مذكرات عن الحياة الروحية Memro sur la vie spirituelle، المصدر السابق، نسخة سنة ١٩٦٠، الجزء السادس، ١٩٦١ .

(٥) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت ص ١٥٩ ، وص ٢٨١ .

(٦) الصحيفة الأسيوية Journal asiatique، السلسلة الرابعة، الجزء التاسع عشر، ١٨٥٢ .

(٧) دى برلين ساشو Ms de Berlin Sachau، العدد ٨٨، الكتيب b-104a - 83

(٨) ج. فوست J. Vosté. فهرست المكتبة السريانية الكلدانية فى دير سيدة الزروع، باريس ١٩٢٩، Codex Ll 3 (لغاية الكتيب ١٧، ص ٢).

(٩) مخطوطة المكتبة الوطنية فى باريس عن السريان ٣٥٤، الكتيب 2r، راجع أيضا هـ. هوجونار - روش H. Hugonnard-Roche، أصول التأويل الشرقى لمنطق أرسطو : سرجيوس الرأسعينى (المتوفى سنة ٥٣٦) الطبيب والفيلسوف Aux origines de l'exégèse orientale de la logique d'Aristote : Sergius de Reshaina, médecin et philosophe، الصحيفة الأسيوية ٢٧٧، ١٩٨٩ : ١-١٧، ص ٩-١٠ .

(١٠) مخطوطة المكتبة الوطنية فى باريس عن السريان، ٣٥٤ الكتيب 3V ، ترجمة هـ. هوجونار-روش H. Hugonnard-Roche،

(١١) المخطوطة المحفوظة فى المتحف البريطانى ١٤٦٥٨، الكتيب 60vb - 61ra، راجع أيضا هـ. هوجونار-روش H. Hugonnard-Roche، أصول التأويل الشرقى لمنطق أرسطو، المذكور اعلاه، ص ١٢ .

القسم الثانى

الفلاسفة السريان فى إمبراطورية الفرس الساسانيين

الفصل السادس
مدرسة نصيبين، نرساى وخلفاؤه

نرساى (٣٩٩ - ٥٠٤) ، حياة مكرسة للمعرفة

ذكر فى المؤلفات القديمة أن الشخصية الرئيسية لمدرسة الرها المشهورة، تمثلت فى نرساى الذى كان أحد زملاء هيباس وصديقه. كان هذا الكاتب العريق ينهل من رحيق الكتب المقدسة، وكان يحب التجول فى حدائق الفكر للتأمل.

ذكر الكاتب برحذبشبًا عربايا، المؤلف السريانى الذى عاش فى نهاية القرن السادس عشر، فى مؤلفاته هذه العبارات التى تقدم وصفا أمينا لنرساى:

"رجل الله هذا نشأ فى بلاد معلثا، وكانت قريته تدعى عين دولبا. كانت أفكاره تدفعه منذ نعومة أظفاره وفى صباه إلى إرواء عطشه من ينابيع الكتب المقدسة"[١].

وُلد نرساى سنة ٣٩٩ فى قرية لا تبعد كثيرا عن بلدة معلثا القريبة من مدينة دهوك الحالية، والواقعة شمال العراق. دخل نرساى وهو لم يزل فى السابعة من عمره إلى مدرسة عين دولبا، حيث أمضى فيها تسعة أعوام، استطاع خلالها صقل نفسه بالفضيلة والعلم :

"كان قد عرف وتعلم من أساتذته أن الأشخاص الغارقين فى شهوات الجسد لا يمكنهم إرضاء الله؛ لذلك ابتعد عن الشهوات وانكبَّ على تحسين الإرادة الحرة فى ذاته وفى نفسه العاقلة..."[٢]

التحق نرساى، بعد أن فقد والديه، بعمه عمانوئيل. ويتكلم عن هذه الفترة الكاتب برحذبشبًا قائلا :

"بعد ذلك بفترة، عندما تعرض نرساى للحرمان من التعليم بسبب وفاة والديه، سمع عن وجود أخ لأبيه اسمه عمانوئيل، الذى كان فى رئاسة دير كفر مارى الواقع بالقرب من مدينة بيت زبداى. ويقال بحسب الروايات المسرودة، إن عمانوئيل كان قد تلقى تعليمه فى مدارس مدينة الرها وقدم بعدها إلى هذا المكان، وساهم مساهمة فعالة فى إغنائها بالدعوات الرهبانية. وكان قد أسس مدرسة، وبسبب تعليمه واستقامة أخلاقه وغيرته على الحقيقة، كان قد عُيِّن فى وظيفة زائر عام Périodeute لهذه المنطقة، وتم تكليفه فى نهاية الأمر بإدارة شئون كنيسة أمد.

نهض نرساى وتوجه إليه، وعندما وجده عمانوئيل وتعرف عليه لاحظ حسب خبرته أنه يتفوق فى العلم على فقهاء ورهبان ذاك المكان، فطلب منه عمه وكل أعضاء جماعة الدير أن يقوم بتعليمهم قراءة المخطوطة. وافق على القيام بهذا العمل وأمضى فصل الشتاء بينهم، ثم سمع عن وجود (جماعة) مدرسة فى الرها، فما كان منه إلا أن تركهم وتوجه إلى هذه المدينة. عندما وصل إلى المدرسة وتعرف عليها، وجد هذه الجماعة متألقة فى الروحانيات ومتبحرة فى معرفة الكتب (المقدسة)، ومكث هناك لمدة عشر سنوات"(٢).

أراد نرساى العيش بالقرب من عمه الذى طلب منه عندئذ تولى مهمة تعليم الرهبان، وعاش فى هذه الأجواء فترة معينة. ثم قصد مدينة الرها مدفوعًا بحبه للدراسة وشغفه بها، حيث مكث فيها مدة عشر سنوات أخرى.

وعاد ثانية إلى دير عمه، وقضى سنة كاملة بعد وفاة عمه فى منطقة كفر مارى، وأوكل مهمة التدريس بعد ذلك إلى راهب يعمل فى الدير، لكى يعود مرة أخرى إلى مدرسة مدينة الرها التى كان يعز عليه أن يفارقها.

وعندما توفى مدير مدرسة الرها "قيُّورى" فى سنة ٤٣٧، طلبت إدارة المدرسة من نرساى القيام بمهام إدارتها، فأصبح بذلك رئيسا ومديرا برتبة المفسر.

عندما تعرض للضغوط بشتى الطرق، وافق على أن يتولى مهمة التعليم فقط، وطلب أن يلحق به أستاذ معاون لمادة القراءة والتهجية، لكى يساعده فى البحث لتفسير معانى الكتب المقدسة، وقام بإدارة هذه المدرسة لمدة عشرين سنة فى جميع القضايا المفيدة..." (٤) .

لفظ هيباس أسقف مدينة الرها أنفاسه الأخيرة سنة ٤٥٧، وخلفه على كرسى الأبرشية نونوس الذى كان مؤيدا لمبادئ قورلوس الإسكندرى. وقد انتقد هذا الأخير نرساى ووجه إليه اللوم، لتبنِّيه أفكار ثيودورس المصيصى ونسطوروس، ولتشجيعه مذهب الطبيعتين.

وهكذا فقد اتهم بعض رجال الدين نرساى المفسر بزرع البلبلة ونشر الاضطرابات، والوقوف إلى جانب الفرس، مع نيَّة تسليم مدينة الرها إليهم.

اضطر نرساى أمام التهديد بتعريض حياته للخطر،إلى الهرب من مدينة الرها أثناء الليل مصطحبا معه ما تيسر له من كتبه.

قرر بكل عزيمة وإصرار الذهاب إلى بلاد فارس. وصل أولا إلى مدينة نصيبين، المدينة المهمة المليئة بالبساتين والحدائق، والتى كانت تشكل نقطة رئيسية لمرور القوافل. كانت مدينة نصيبين تقع على ضفاف مجرى ماء، هو نهر ميدونِّيوس القديم Myddonïus، ممتدة على حدود الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية.

على أن نرساى لم يدخل فى البداية المدينة ، "بعد أن وصل هذا الرجل القديس إلى مدينة نصيبين، لم يدخلها لأنه فكّر حينذاك فى أنه انحرف عن الهدف الذى كان قد حدده لنفسه، وهو ما لم يكن بعيدا عن الصحة. لكنه توجه إلى دير الفرس الواقع شرقى المدينة، وكان قد اتخذ قراره بالتوجه إلى الشرق، أى ذلك الاتجاه الذى يقود إلى وسط بلاد فارس، لكى ينشئ فيها وينشر فى ربوعها تعليم مبادئ التقوى، أو على الأقل لدى بعض من سكان هذا البلد" (٥) .

ولكن ما لبث أن عرف أسقف مدينة نصيبين المدعو برصوما الذى كانُ فى تلك الفترة الزمنية صديقا لملك الفرس بيروز (٤٥٧-٤٨٤) وحارس الحدود، عرف بقدوم زميل دراسته القديم، فدعاه للحال إلى دخول مدينة نصيبين .

"حال دخوله المدينة، خرج مار برصوما للقائه بموكب كبير، وأدخله إلى الكنيسة باحتفال رائع للتحدث معه بعض الشيء. وعندما اطلع على نيته مغادرة مدينته، سأله عن إمكانية عدوله عن مشروعه الأول والبقاء فيها قريبا منه، ولتنفيذ ما كان يروم القيام به بعيدا، انتهاز فرصة اللقاء بينهما لتأسيس مجلس (مدرسة) ما بين النهرين، لمنح أقصى فائدة للجانبين الرومانى والفارسى فى نفس الوقت" (٦) .

وبذلك فقد توفرت هذه الفرصة، وقام برصوما الذى كان يمثل شخصية مهمة تتمتع بعقلية منفتحة وروح ثاقبة، بدعوة نرساى لتأسيس مدرسة أكاديمية فى مدينة نصيبين وللتدريس فيها، ووعده بتقديم كل المساعدات المكنة لنجاح هذا المشروع.

مدرسة نصيبين المتألقة

اشترى برصوما إسطبلا كان قد تم تشييده سابقا للجمال بالقرب من الكنيسة، ووضع هذا المكان تحت تصرف نرساى، فتكاتف الإخوة بسرعة كبيرة حول نرساى لتحقيق مشروع المدرسة.

هناك كتاب من نهاية القرن السادس يحمل عنوان "سبب بناء المدارس"، يتحدث مؤلفه الذى يحمل اسم برحذبشبًا أسقف مدينة حلوان ويزودنا بمعلومات دقيقة عن نرساى:

"تمكن نرساى، خلال فترة وجيزة، من جذب العديد من الإخوة، بحيث إنه لم يتمكن من جذب الإخوة الفرس والسوريين فقط إليه، وإنما جذب معظم الإخوة الذين كانوا يرتادون مدرسة الرها أيضا. كان الجميع يمجدون الله فى هذا المكان، وازدادت المدارس وتعددت أنواعها فى الإمبراطورية الفارسية. وبدأ بذلك نور مدينة الرها

يضمحل شيئا فشيئا، بينما أخذت مدينة نصيبين فى التألق، وامتلأت الإمبراطورية الرومانية بالأخطاء، بينما ازدهرت فى الإمبراطورية الفارسية المعارف وخشية الله" (٧).

كان نرساى قد حصل على خبرة غنية سابقة استمدها من مدرسة مدينة الرها، لذا وضع لهذه المؤسسة الجديدة نظاما وبرنامجا سليما، وسن لها قانونا يتناسب مع قدراتها العلمية. وكانت المدرسة تابعة لرعاية رئيس أساقفة مدينة نصيبين، وأصبحت فيما بعد جامعة حقيقية خاضعة للكنيسة الشرقية.

لذلك حرر نرساى حوالى سنة ٤٩٦ نص القوانين الجديدة للمدرسة، وقام بعرض هذه القوانين على زملائه الإخوة الذين يعملون معه لإبداء رأيهم فيها قبل تبنيها نهائيا. وقد احتوى هذا النظام الداخلى على اثنتين وعشرين مادة، وقد وصلتنا لحسن الحظ مواد هذا النظام(٨)، ولم تتعرض للضياع أو التلف كما هو الحال فى العديد من النصوص التى كتبها فلاسفة السريان الذين تطرقنا أو قد نتطرق إليهم فى هذا الكتاب.

كان التلاميذ، العلمانيون منهم أو رجال الدين من الناحية المذهبية، موالين للكنيسة الشرقية، يتقاسمون غرف السكن على شكل مجموعات تتكون من ثمانية أشخاص أو عشرة، ويكرسون كل وقتهم أو معظمه للدراسة والصلاة، وكانت العزوبة تشكل أمرا إلزاميا يجب التقيد به أثناء الدراسة، إضافة إلى الالتزام التام بالمشاركة فى الاحتفالات والشعائر الدينية. وكان واجبا على جميع التلاميذ التقيد بتصرف ينسجم مع القواعد المفروضة عليهم مثل المظهر اللائق والالتزام بسلوك حسن. وكانت مدة التعليم تبلغ فى هذه المدرسة ثلاث سنوات تتوزع على عدة أشهر فى السنة الواحدة، وكانت العطل المدرسية تحتل فترة زمنية تمتد من شهر آب (أغسطس) إلى شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وهو ما كان يتيح للتلاميذ كسب بعض مواردهم المالية عن طريق أداء بعض الأعمال خلال فترة العطلة هذه.

كان مدير المدرسة هو المكلف بتفسير الكتاب المقدس لهم، يحمل لقب الربّان الذى يعنى "أستاذنا"، أما مدرس الفلسفة فكان يدعى (بادوقا).

فتحت مدرسة مدينة نصيبين إذن أبوابها واسعة أمام كتابات الفلاسفة مثل أرسطو وفرفوريوس وتفاسير ثيودورس المصيصي، وقامت بذلك بتهيئة الطريق وإعداده أمام الفلاسفة السريان الكبار للأجيال القادمة.

وقد استوعب تعليم الكتاب المقدس والدراسات اللاهوتية علوما أخرى، ما لبثت أن اقتحمت ميادين هذه المدرسة الواسعة، بحيث امتدت الدراسات إلى علم الطب والعلوم الطبيعية والجغرافية والتاريخ وفن البلاغة.

كان نرساى يعتبر أن ترويض العقل مدخل للكمال، وقد عاش هذا الإنسان الذى أحب العلم وبذل معظم سنوات عمره له ولأجله بتواضع وزهد تامين، بل إنه كان لا ينام إلا لفترات قصيرة على حصير بسيط مصنوع من سعف النخيل. ويمكننا القول إن هذا الرجل كرس حياته كلها للتعليم وللتأليف، كما يمكننا أن نرى هذه الحقيقة على لسان شهادة إن دلت على شيء فإنما تدل على محبته العميقة للتعليم وللتأليف.

"تولى نرساى إدارة هذه المدرسة لفترة امتدت إلى خمس أربعين سنة، وكتب أكثر من ثلاثمائة موعظة ومؤلفات متنوعة أخرى" (٩).

استمر نرساى، وعلى الرغم من حالته الصحية السيئة، فى إدارة المدرسة لمدة طويلة، باستثناء ست سنوات، جاءت نتيجة للخلاف الذى نشأ بينه وبين صديقه وزميله برصوما. ثم عاد ثانية إلى مدرسة نصيبين.

مؤلفات نرساى عمود المشرق

زيَّن نرساى هذه المدرسة بجعل رفوفها تتألق بمؤلفاته وكتاباته العديدة، وقد أدرج فى كتبه وخطبه وقصائده ومواعظه شروحا لنصوص الكتاب المقدس، وهى التى تعرض معظمها ، للأسف الشديد، للضياع أو التلف، بحيث لم يصلنا منها إلا الشيء القليل.

وقد تميزت خطبه الشعرية (ميمرى) بأنها على شكل بحور متوازنة تتكون من عدد بين ٧ مقاطع إلى ١٢ مقطعًا[١٠]. وقد أدى أسلوبه الكتابى الجميل جدا فى اللغة السريانية إلى منح نرساى الشاعر ألقابًا خاصة به، مثل عمود المشرق أو قيثارة الروح القدس.

لنتمتع إذا بمقطع بسيط من إحدى مواعظه الشعرية ميمرى، وهو مقطع مأخوذ من موعظة المثل الذى يقدمه الإنجيل عن حبة الحنطة والزؤان :

" الحسد هو ذلك السيف الذى يقتل النفس والجسد معًا، إنه يسكن فى داخلنا مثله مثل قائد العسكر ذلك الذى تعظمه أفكارنا.

والكبرياء هى ذلك السوء الذى يؤدى إلى هدم خيراته، وذلك الصديق الذى يقتل أصدقاءه ، نرتدى الكبرياء مثلما نرتدى حُلة ثم نعتبرها زينة لذاتنا.

والكذب الذى يتلفظ الواشى به فى البداية يؤدى إلى جعل لساننا رسولا يعمل على خدمة مآربه"[١١] .

لم تتوقف شعبية نرساى، بل استمرت فى النمو والانتشار إلى أن وافته المنية سنة ٥٠٣ . وقد توفى عن عمر ناهز مائة سنة، ووُرى التراب فى الكنيسة التى عرفت باسمه فى مدينة نصيبين. واشتهرت المدينة وكانت محط الأنظار، وأصبحت بفضل مدرستها والدراسات التى كانت تجرى بين أروقتها وداخل قاعاتها تحمل اسمين شاهدين على عظمتها، هما "أم المدن " و"أم العلم" .

إليشاع وإبراهيم من بيت ربان

استمر أساتذة آخرون وبرزوا فى مختلف ميادين الفكر والعلوم، تمكنوا من نشر التعليم وتوسيع آفاقه فى هذه المدرسة المشهودة التى استطاعت أن تؤثر على عالم تلك الفترة الزمنية المهمة، وكتب برحذبشبًا الذى ولد ونشأ فى مدينة حلوان عن مدرسة نصيبين شهادة أخرى، تعكس المستوى الرفيع الذى وصلت إليه، ودور مديريها المرموقين .

"أجل، تعرفون أصل تأسيس هذه المؤسسة، والأسباب التى أدت إلى اختفائها من مدينة الرها وإنشائها فى هذه المدينة، والتى جاءت نتيجة للجهود التى بذلها كل من الأسقف مار برصوما والمعلم مار نرساى الكاهن، من أجلها.

وأنتم تعرفون أيضا كيف أنها، على الرغم من وفاتهما، لم تتعرض للسقوط أو للاندثار، وإنما تمكنت من الاتساع والازدهار الواسع، بفضل المساعدة الإلهية لها، وعلى الرغم من الاضطرابات والفتن التى أثيرت ضدها من وقت لآخر، وهى الأعمال المدفوعة من قبل الشيطان. لقد جنت مملكة الفرس فوائد جمة من هذه المؤسسة، كما تشهد على ذلك المدارس المختلفة التى تفرعت عنها، والموجودة الآن فى أماكن عديدة." (١٢).

خلف إليشاع (٥٠٩) نرساى وشغل وظيفة المفسر لمدة سبع سنوات متواصلة. وبعد وفاة إليشاع تولى إبراهيم من بيت ربان (٥٦٩) إدارة مدرسة نصيبين، وكان واحداً من أقارب نرساى. عمل إبراهيم الذى كان معروفا بالتحلى بحس تربوى عميق وبالتواضع وبالتقوى، بحيوية متواصلة ليلا ونهارا فى إدارة المدرسة لمدة ستين عاما، حسب ما يذكره لنا كتاب "التاريخ السعردى"، الذى يعلمنا أيضا أن عدد تلاميذ هذه المؤسسة قد وصل إلى ألف تلميذ (١٣). شرع إبراهيم يُشيِّد بناية جديدة مزودة بثمانين غرفة وعيادة طبية وحمامات، وقام بإجراء إصلاحات مهمة على الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس، ووزعها على مدة ثلاث سنوات كاملة، كما قام بمراجعة تراجم ثيودورس المصيصى فى اللغة السريانية.

ولم يتردد فى وضع كتب الأورجانون فى علم المنطق لأرسطو فى متناول أيادى التلاميذ لتوسيع مداركهم. وقد تم خلال إدارته لمدرسة نصيبين تقسيم السنة الدراسية إلى فصل دراسى صيفى وفصل دراسى شتوى آخر. وأتاح بذلك الفرصة أمام التلاميذ للعمل خلال فصل الصيف وكسب المال فى مجال الحصاد وقطف الفواكه.

يعطينا برحذبشبًا أسقف حلوان معلومات جديدة عن إبراهيم مدير المدرسة ومستواه الراقى فى الدراسة، ويقدم لنا جانبا آخر عن هذا الإنسان المبجل الذى وصلت شهرته إلى العديد من شعوب المنطقة .

"لقد كتب أيضا شروحا عن الأنبياء وعن سفر الجامعة وعن النبى هوشع وعن القضاة. لا حاجة لى أن أسرد الأعمال الكبيرة التى قام بها فى المدرسة والأبنية الرائعة التى بناها والمكاسب الكبيرة التى حققها لها ؛ لأن أعماله المختلفة أبرز وأكثر تلألؤًا من أشعة الشمس : لقد استنارت بلاد الفرس قاطبة بتعليمه. كان يشبه بأبينا إبراهيم، أبا للعديد من الشعوب وقد خلَّف إبراهيم بعده الكثير من الأبناء الروحيين واكتسب سمعة طيبة امتدت إلى مملكة الفرس لتصل إلى بلاد الروم أيضا." (١٤).

فى سنة ٥٤٠ وفى غمرة الحرب التى نشبت بين الدولة البيزنطية والساسانية، وأمام الاضطهادات المحلية وهدم الكنائس والأديرة، أمر كسرى ملك الفرس الساساني بغلق مدرسة نصيبين، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن أعادت فتح أبوابها بعد سنتين من ذلك.

وتولى بعد ذلك إيشوعياب الأرزنى - المولود فى بيت عربايى (منطقة طور عبدين) قبل أن يصبح جاثاليق الكنيسة الشرقية (٥٨١-٥٩٥) - إدارة شئونها، ثم انتقلت الإدارة إلى إبراهيم النصيبينى (٥٧٢)، وكان شخصية فريدة فى اهتمامه ومعرفته لكل حقول العلم فى زمانه.

حنَّا الحديابى المترجم

جاء حنَّا الحديابى (٥٧٢ -٦١٠) ليأخذ منصبه بعد وفاة إبراهيم النصيبينى الذى تحدثنا عنه. وكان حنَّا الحديابى قد درس سابقا فى مدرسة نصيبين وتلقى علومه ومعارفه فى صفوف هذه المدرسة، ليصبح كما يذكر لنا برحذبشبًا أسقف حلوان "رجلاً تميز بالتواضع وبكل المواهب التعليمية التى يقتضيها عمل القيام بمهمة المفسر" (١٥).

ابتعد حنَّا - الذى كان متأثرا بمبادئ أوريجين وفيلون الإسكندرى - عن تفسير ثيودورس المصيصى. واقتربت أفكاره من عقيدة الكنيسة الغربية، معترفا بأقنوم واحد وطبيعتين للمسيح، وما كان ذلك ليوافق مذهب الكنيسة الشرقية المنتشرة فى الإمبراطورية الفارسية.

وقد قام سنة ٥٩٠، بتطوير الدروس الطبية فى نصيبين وجعلها مستقلة، واستحق بذلك مديحا واسعا مثل المديح التالى الذى كتبه برحذبشبًا فيه :

"كما أن مائدة الملك عامرة بكل أنواع المأكولات، هو أيضا يقدم لنا دائما مائدة روحية مزدانة بكل أنواع التعاليم المستوحاة من الكتاب المقدس، واستطاع رفع مذاقها بإضافة توابل الكلمة الجميلة للفلاسفة إليها" (١٦).

انتشرت كتابات حنا واشتهرت بسرعة مدهشة، وألّف عدداً مهما من التراتيل والمواعظ الراقية، وامتدت شهرة مدرسة نصيبين فى زمانه إلى البلدان والأصقاع البعيدة.

بعد تعيين كاسيودور (٤٩٠ – ٥٨٣) Cassiodore، الكاتب الرومانى المسيحى الذى تعود أصوله إلى جنوب إيطاليا، فى منصب المحافظ فى عهد تيودوريك ملك القوطيين، قام ببناء دير فى مدينة فيفاريوم الواقعة فى منطقة كالابر الرومانية. أراد كاسيودور بناء مدرسة شبيهة بمدرسة نصيبين التى كان قد زارها سابقا وانبهر بدراساتها ومواضيعها(١٧).

يحدثنا المؤرخ السريانى مارى بن سليمان (القرن الثانى عشر) بأن المدرسة قد شهدت تطوراً مشهوداً فى عهد الجاثاليق حزقيال (٥٧٠–٥٨١) إذ بلغ عدد طلابها فى زمن مديرها حنًا إلى ٨٠٠ تلميذ (١٨).

تعرضت مدرسة نصيبين إلى ضعف فى مقوماتها لفترة زمنية، ولكنها استمرت مع ذلك فى فرض نفسها بعد الفتح العربى، وزودت خلفاء الدولة العباسية فى بغداد بالعديد من الأطباء والفلاسفة، واستطاعت المحافظة على لعب دور مؤثر ومهم فى الكنيسة النسطورية بواسطة أساتذتها وطلابها. احتفظت أيضا بسمعتها الفعلية لغاية القرن الثانى عشر، وساهمت فى انتشار الثقافة الهيلينية الإغريقية فى الغرب.

وبرزت مؤسسات فكرية أخرى فى المشرق قد يكون من أهمها مدرسة ساق– قطيسفون ومدرسة جنديسابور.

هوامش الفصل السادس

(١) برحذبشبًا عربايا، تاريخ الآباء القديسين الذين عانوا من الاضطهاد لأجل الحقيقة Histoire des saints pères qui souffrirent de la persécution pour la vérité، ف. نو F. Nau، الجزء التاسع، ١٩١٣، ص ١٠٢.

(٢) برحذبشبًا عربايا، تاريخ الآباء القديسين الذين عانوا من الاضطهاد لأجل الحقيقة Histoire des saints pères qui souffrirent de la persécution pour la vérité، ص ١٠٣–١٠٤ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٠٨ .

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١١١ .

(٥) برحذبشبًا عربايا، تاريخ الآباء القديسين الذين عانوا من الاضطهاد لأجل الحقيقة Histoire des saints pères qui souffrirent de la persécution pour la vérité، الجزأين التاسع والثالث والعشرين، ص ١١٧، ١٩١٣٠ .

(٦) نفس المصدر السابق، ص ١١٨ .

(٧) برحذبشبًا الحلواني، سبب إنشاء المدارس Cause de la fondation des écoles، الجزء الرابع، الكتيب رقم ١٨، ١٩٠٧، دار نشر أداى شير Addai Scher، مطران سعرت الكلداني، ص ٧٢

(٨) نشر إ. جويدى I. Guidi القوانين تحت عنوان Gli statuti della scuola di Nisibi، روما، ١٨٩٠ .

(٩) برحذبشبًا الحلواني، سبب إنشاء المدارس Cause de la fondation des écoles، الجزء الرابع، الكتيب رقم ٤، العدد رقم ١٨، دار نشر أداى شير Addai Scher، ص ٧٢ .

(١٠) المخطوطة المحفوظة فى المتحف البريطاني، رقم ٥٤٦٣ تحتوى على ٧١ ميمرى. وقد وصلت إلينا حوالى مائة موعظة كنسية عُثر عليها فى مخطوطات متنوعة. وقد طبعت من قبل مطبعة الآباء الدومينيكان فى الموصل. ونشر الأب أ. منجنا (١٨٧٨ – ١٩٣٧) A. Mingana فى الموصل ٤٧ موعظة كنسية.

(١١) دار نشر كاريسكريبت Cariscript، باريس ١٩٨٤، ص ٩٥، ترجمة إيمانويل باتاك سيمان Emmanuel Pataq Siman

(١٢) برحذبشبًا الحلواني، سبب إنشاء المدارس Cause de la fondation des écoles، الجزء الرابع، الكتيب ٤، ١٩٠٧رقم ١٨، ص ١٨ .

(١٣) التاريخ السعردى Chronique de Séert، دار نشر أداى شير Addai Scher, Brepols، ١٩٨١ . الجزء الثاني، ص ٢٤ .

(١٤) برحذبشبًا الحلواني، سبب إنشاء المدارس Cause de la fondation des écoles، الجزء الرابع، الكتيب ٤، رقم ١٨، ص ٧٥.

(١٥) نفس المصدر السابق، ص ٧٦ .

(١٦) نفس المصدر السابق، ص ٧٨ .

(١٧) ميغن Migne ، باترولوجيا Patrologia، السلسلة اللاتينية، ٧٠، المجموعة ١١٠٥ د.

(١٨) مارى بن سليمان، كتاب البرج Le livre de la tour، للكاتب هـ. جيسموندى H. Gismondi، روما، ١٨٩٦-١٨٩٩، ص ٥٤ .

الفصل السابع
المدارس الكبرى فى شرق بلاد ما بين النهرين

لا بد أن يكون نهرا دجلة والفرات قد تعرفا، مثلهما مثل السكان الذين عاشوا على ضفافهما الخصبة، على الكثير من القصص المتنوعة عن العلم وعن تشييد الكنائس والأديرة وبناء المدارس. ولا بد أنهما قد قاما بسرد هذه القصص مرصعين مقاطعها بحروف من الذهب وبكل هدوء ونعومة.

تأسيس مدرسة دير قونى

تأسست مدرسة دير قونى فى نهاية القرن الرابع على يد مار عبدا على الضفة الشرقية من نهر دجلة، وعلى مسافة تبعد حوالى ١٥٠ كيلومترا جنوب مدينة بغداد الحالية. تذكر التقاليد المتوارثة بأن التلميذ مار مارى يرقد فى هذا المكان منذ نهاية القرن الأول، لذا بُنى دير فى هذا المكان تخليدا لذكراه.

ما المعلومات التى نمتلكها اليوم عن مار عبدا ؟ يقدم لنا كتاب "التاريخ السعردى" موجزا مفيدا .

"ينتمى هذا القديس إلى دير قونى، وكان قد تابع دراسة ممتازة فى مدرسة القرية. وقام بعد إنجاز رسالته الدينية الكهنوتية، ببناء دير كبير ومدرسة شاملة، كان يرتادها طالبو العلم من كل حدب وصوب، حيث لم يتوفر فى تلك الفترة الزمنية دير آخر فى بلاد الآراميين (عنَّابات). وقد أدى عمله هذا إلى ازدهار المنطقة واشتهارها،

حيث أسهم عدد وصل إلى ستين شخصية من الشخصيات المثقفة فى هذه الشهرة، شخصيات مثل الجاثاليق أحَّاى والأب يهبالاها اللذين يدلان على المكانة التى وصل إليها هذا الدير. وكان مار عبدا لا يتوقف عن التجوال عبر مناطق بلده وهو يعمِّد المؤمنين ويدعو الآراميين إلى اعتناق الدين المسيحى... ووصل مستوى مدرسته فى تلك الفترة إلى درجة عالية، بحيث إن تلاميذها كانوا يستغنون بذلك عن ضرورة التوجه إلى مدرسة الرها"(١).

كان التدريس باللغتين اليونانية والسريانية يمثل أمراً مألوفا فى مدرسة دير قونى التى كانت تدرس فى صفوفها مواضيع متنوعة، شملت الفلسفة والطب والفيزياء والعلوم الدينية.

وتعرضت هذه المدرسة للتهديم من قبل ملك الفرس فيروز (٤٥٩ - ٤٨٤) الذى كان قد اتخذ قراراً بالقضاء على الديانة المسيحية قبل أن يتوجه إلى بلاد هون هيفتاليتس، الواقعة فى منطقة بختريان ومناطق الأوكسوس، كما يحدثنا عن ذلك كتاب "التاريخ السعردى" .

"لقد أصدر أمرا وجهه إلى مرزبان قبل مغادرته العراق، طلب منه فيه أن يقوم بهدم الكنائس والأديرة بانتظار عودته. وقد قام هذا الأخير بتدمير مدرسة مار عبدا وهدم العديد من الأديرة. وقد حزن المسيحيون لهذا الأمر، والتجأ عدد كبير منهم إلى أماكن بعيدة. ولكن فيروز قتل مع ذلك ثلاثمائة مسيحى وهو يقتفى طريقه." (٢)

ولقى فيروز مصيره فى معركته ضد الهون، وسنحت بذلك فرصة إعادة بناء المدرسة التى واصلت تعليم كوادر الكنيسة الشرقية والموظفين الكبار فيها، إضافة إلى كاتمى الأسرار والأطباء الذين عملوا لدى الخلفاء فى عهد الدولة العباسية. وقد اقتفى عالم المنطق الكبير متى بن يونس (ت٩٤٠) دروسه فيما بعد فى هذه المدرسة.

مدرسة سلوقية قطيسفون

تذكر لنا الأخبار والتواريخ السريانية بأن آكاس (٤٨٤-٤٩٦) الذى شغل وظيفة الجاثاليق فيما بعد قد ألقى دروسا ولمدة طويلة فى مدرسة سلوقية البطريركية. ويذكر كتاب "التاريخ السعردى"، فى هذا الصدد أن مار آبا الأول (٥٤٠- ٥٥٢) قد تمكن من منح انطلاقة جديدة لهذا المركز الدينى والثقافى المهم، حيث يقول :

"لقد أسس فى مدينة سلوق مدرسة، عين فيها المترجم إيشاى ثم المترجم راميشو فيما بعد. وقام عندئذ بتجديد قوانينها وأنظمتها الإدارية التى كانت قد أعدت سابقا فى بلاد الإغريق وبلدان المشرق وفى مملكة الرها، مضيفا إليها مواد تتلائم مع المتطلبات التى فرضتها الظروف" (٣).

كانت هذه المدرسة البطريركية النسطورية تتنافس مع مدرسة نصيبين، بعد أن تعرضت هذه الأخيرة إلى الإغلاق المؤقت من قبل الملك كسرى الأول سنة ٥٤٠ .

وكان التلاميذ والأساتذة يردون فى تلك الفترة الزمنية إلى سلوقية من كل مكان، وما لبث أن اتسعت المدرسة لتصبح أكاديمية لاهوتية، تهتم بشرح الكتاب المقدس وتدريس الطقوس والشعائر الدينية المسيحية، وكسبت شهرة واسعة جعلتها محط الأنظار. وقد قامت بتخريج شخصيات من أعلى المستويات، شخصيات شغلت مناصب مهمة فى تاريخ السريان فى بلاد ما بين النهرين.

ومن بين هذه الشخصيات المهمة، ينبغى ذكر أحد أساتذتها الذى لعب دوراً مهما فى التاريخ السريانى، ألا وهو الأستاذ غريغوريوس الذى نشأ فى مدينة كشكر، والذى درس فى فترة شبابه فى هذه المدرسة بعد أن جاء إليها من نصيبين، مثله مثل الكثير من التلاميذ الذين جذبتهم مدرسة سلوقية، والذى اشتهر خاصة فى كتاباته الدينية عن واجبات الحياة فى الأديرة.

"عندما انتهى من قراءة مزامير داود وأصبح قادرا على الإدراك والاستيعاب توجه إلى مدرسة سلوقية، حيث أمضى فيها فترة من حياته، وتوجه بعد ذلك إلى مدرسة نصيبين لكى يتابع فيها دروس المترجم إبراهيم"(٤).

كما أن غريغوريوس (٦٠٨-٦٠٥) الذى نشأ فى مدينة ميشان وشغل فيها منصب الجاثاليق، كان واحدا من مرتادى مدرسة ساليق، حيث يذكر لنا ذلك كتاب "التاريخ السعردى" .

"كان غريغوريوس دكتوراً وكان يتابع دروس الأستاذ إيشاى، دكتور مدينة سلوق المشهورة" (٥) .

وقد قام الأسقف ماروثا بزيارة للمدرسة ، وهو الذى أرسله الإمبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) بمهمة لدى الملك كسرى الثانى (٥٩١- ٦٢٨)، والذى استقبله أسقف كنيسة بيت دارايى، الأبرشية الواقعة على بعد ٢٥٠ كم جنوب شرقى بغداد حاليا، وأمين سر ومدير المدرسة الأب بختيشوع. ويحدثنا كتاب "التاريخ السعردى" عن مغزى هذه الزيارة والأهمية التى تكتسبها المدرسة من خلال الزيارة:

"قام بزيارة المدرسة وحضر الدرس والشرح وطلب تفسيراً لبعض الجوانب. وقد أعار اهتماما بالتلاميذ والضعفاء والفقراء منهم، وأغدق عليهم هداياه. وعاد ماروثا فرحا وشكر الله العلى على كل ما رآه، وقد أهداه الجاثاليق عطوراً كانت قد أرسلت إليه من الهند والصين، وودعه مرسلا برفقته أسقف أبرشية بيت دارايى وأمين أسراره بختيشوع" (٦) .

وتعرضت مدرسة سلوقية للضعف بعد مغادرة الجاثاليق إلى بغداد فى القرن التاسع، واستمرت مع ذلك، وعلى الرغم من ضعفها النسبى، فى استقبال التلاميذ فى صفوفها لغاية القرن الحادى عشر.

مدرسة جنديسابور

كانت مدينة جنديسابور الواقعة فى بلاد عيلام فى الجنوب الغربى من إيران الحالية، تعرف باللغة السريانية تحت اسم بيت لاباط، قام الملك سابور الأول بإعادة تعميرها بعد أن تعرضت للدمار، وذلك بعد الهزيمة التى لحقت الإمبراطور الرومانى فاليريان (٢٥٣ - ٢٦٠).

وقد جهد ملك الملوك، نحو سنة ٢٦٠، فى إسكان الأسرى المسيحيين الذين اقتيدوا إليها من بلاد الروم ومن منطقة أنطاكية بالتحديد فى هذه المدينة، وقد أدى إسكانهم فيها إلى تكاثر عددهم، بحيث شكلوا فيما بعد مجموعة بشرية مهمة .

وأصبحت مدينة جنديسابور فيما بعد حاضرة كبيرة للكنيسة الشرقية النسطورية، وتحولت إلى مقرٍ إقامة مطروبوليط السريان الشرقيين.

يذكر لنا بعض الكتّاب احتمال أن تكون هذه المدرسة قد تأسست خلال الفترة التى حكم فيها الملك كسرى الأول (٥٣١ - ٥٧٩). ولكن هذه المدرسة لم تشهد نهضتها الفعلية إلا فى نهاية القرن السادس.

بعد تشييد مؤسستنا ألحق بها المستشفى، وبدون أى شك بسواعد المسيحيين النساطرة الذين سكنوا المدينة، كما يشهد على ذلك كتاب "التاريخ السعردى".

وقد حدث أن تمرد الأمير أنوشازاد بن الملك كسرى، والذى ثار والتجأ إلى مدينة جنديسابور، وتذكر لنا الروايات فى هذا الصدد أن الملك كسرى قد حزن كثيرا على هذا الأمر، وطلب من الجاثاليق مار آبا (٥٤٠-٥٥٢) التوسط لدى مسيحيى المدينة الذين كانوا يساندون تمرد الأمير الشاب على والده .

"وقد أجاب الملك بعد أن هدأت نفسه قائلا: أريد أن تكتب إلى أهالى مدينة كونديشابور [جنديسابور] بأن لا يتخذوا جانب هذا الشاب الطائش. وكتب لهم الجاثاليق مهددا إياهم بحرمانهم من الكنيسة، فابتعدوا عن ابن الملك وفتحوا أبواب مدينة كونديشابور أمام الجيوش الملكية التى دخلتها عندئذ، وقد تعجب الملك هو ورجاله من مثل هذه الطاعة والخشية من التحريم الكنسى عليهم، وامتنع من الإضرار بالمسيحيين لفترة زمنية" (٧) .

واستأنفت هذه المؤسسة الدراسية - التى ارتكز مبدأ تنظيمها على النموذج المستوحى من مدرسة نصيبين - تدريس الفلسفة الهللينية. وكان سكان مدينة جنديسابور لا يزالون ينطقون فى الحقيقة باللغة الإغريقية إضافة إلى اللغتين الفارسية والسريانية.

ويذكر بعض المؤرخين أن عددا كبير من المعلمين كانوا يلقون الدروس في هذه المدرسة باللغة السريانية، وكان الأساتذة يدرّسون فيها مؤلفات الفلاسفة، وفلسفة أرسطو وفرفوريس وعلم المنطق والرياضيات والطب، إضافة إلى دراسة مؤلفات جالينوس وأبيقراطس.

وقد أصبح التعليم الطبي في هذه "المدرسة العلمانية" أكثر تخصصا من التعليم الذي كانت تقوم به مدارس مدينة الإسكندرية أو أنطاكية، فقد كان الأطباء المسيحيون يعيشون جنبا إلى جنب الاختصاصيين القادمين من كل جهة، مثل العالم المشهور برزويه الذي أرسله الملك كسرى إلى الهند لاستنساخ المخطوطات هناك. وكانت العلوم الهندية والإغريقية والتقاليد الفارسية تلتقي في أجواء هذه المدرسة، وتتناغم في صفوفها معًا، لتقدم نخبة فريدة من المعارف جعلت منها مدرسة نموذجية، تندمج فيها مثل هذه التشكيلة الواسعة من الأجناس.

وتذكر لنا المصادر أن المجوس كانوا يدرسون في هذه المدرسة مواضيع الفلك، ويراقبون النجوم والكواكب بواسطة مرصد فلكي. نالت المدرسة في القرن الثامن شهرة فائقة وأصبحت تزود خلفاء الدولة العباسية في بغداد بما يحتاجونه من أطباء لحاشيتهم.

ويحدثنا المؤلف السرياني إيليا النصيبيني (٩٧٥- ١٠٤٦) برواية يذكر فيها أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور (٧٥٤- ٧٧٥) استقدم إليه الطبيب المشهور جرجيس بختيشوع من مدينة جنديسابور لمعالجته لأنه كان يشكو من مرض في معدته، وقد تمكن رجل العلم هذا من شفاء الخليفة العباسي سنة ٧٦٥ .

"وقع الخليفة أبو جعفر مريضا شاكيا من آلام حادة في معدته، وأرسل رسله لاستقدام العالم جرجيس، رئيس الأطباء في بيت لاباط. وقد فرح الخليفة عند وصول جرجيس وأكرمه، وشُفي الخليفة بعد أيام قليلة من علاجه، وأمر بأن تُلبّى جميع رغبات الطبيب المعالج" (٨) .

وقد شيد الخليفة العباسى هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩) فى مدينة السلام بغداد مستشفى وضع إدارته تحت إشراف الأطباء القادمين من المناطق القريبة من مدينة جنديسابور، وكان لهؤلاء الأساتذة تأثير كبير على تطوير الطب الإسلامى، بفضل إدخال العلوم اليونانية إلى مدينة بغداد.

المدارس الأخرى

برزت خلال القرنين الخامس والسادس مدارس أخرى فى المشرق السريانى، قد يكون من المهم التطرق إليها بإيجاز، باعتبارها شكلت مجموعة ساهمت بشكل أو بآخر فى نشر الفكر الإنسانى فى المشرق بطرق مختلفة وبأساليب متنوعة يجهلها الكثيرون.

مدرسة الحيرة، عاصمة اللخميين، التى قام قيُّورى الرهاوى بتأسيسها.

مدرسة أربيل فى منطقة حدياب، وهى المدرسة الأولى التى قام بإدارتها المعلم بولس البصرى الذى ألقى فيها دروسا متنوعة لمدة ثلاثين سنة.

مدرسة كشكر : وقد أنشاها الأب غريغوريوس الذى أصبح فيما بعد أحد أهم أساتذة مدرسة نصيبين، فى الفترة الأولى من شبابه، فى منطقة بيت أرمايى (بابل القديمة)، كما يحدثنا عن ذلك كتاب "التاريخ السعردى" .

"ولقد أنشأ مدرسة كانت تجمع ثلاثمائة تلميذ، ثم شيد بعد ذلك مدرسة أخرى فى قرية كشكر وأوصى فيها تلاميذه بممارسة الصوم والصلاة" (٩) .

مدرسة باشوش (تقع مدينة شوش اليوم على مسافة تبلغ حوالى اثنى عشر كيلومترا من مدينة العقرة، شمال العراق). شُيِّدت هذه المدرسة فى منطقة جبلية واقعة بين رافدى نهر دجلة، الزاب الكبير والخابور. وقد أسسها باباى الذى نشأ فى منطقة جيبيلتا، والذى عاش فى زمن الجاثاليق صليوا زخا (٧١٤- ٧٢٨). وقد قام باباى بتعديل نظام الموسيقى المقدسة التى تصاحب التراتيل والأناشيد الدينية، وبنى ستين

مدرسة فى ضواحى منطقة حدياب ومرغا، لا سيما فى منطقة باشوش الواقعة فى مقاطعة صفصافا.

وقد ألقى الأستاذ إبراهيم، الذى كان يحمل كنية "الأعرج" أو "المفسر" فى هذه المدرسة، العديد من الدروس، وكان الأستاذ إبراهيم هذا مولعا بثقافة آباء الكنيسة والفلسفة والموسيقى الدينية المقدسة. وكان لديه الكثير من التلاميذ، نذكر منهم طيماثاوس الذى أصبح فيما بعد جاثاليقا (٧٢٧ - ٨٢٠) للكنيسة الشرقية.

وقد اشتهر فى هذه المدرسة أيضا ربان بثيون، الذى كان أول من خلف إبراهيم، بعلمه الواسع وتقوى فضائله الأخلاقية.

وقد أضافت هذه المدرسة إلى الدروس المتعلقة بتفسير وشرح الكتاب المقدس والشعائر والطقوس الدينية، إلى دروسها مواضيع امتدت إلى دراسة فلسفة أرسطو، وكانت تدرب التلاميذ وتؤهلهم لقراءة كتابات الآباء اليونان.

وقد أعاد الجاثاليق سبريشوع الثانى (٨٣٣-٨٣٦) فى مدينة بغداد تشييد دير مار بثيون وأقام فيه مدرسة، قام بتمويل نفقاتها المالية على حسابه الخاص، بحسب أقوال بعض المؤرخين التى يشهدون فيها على هذه الحقيقة، مثل المؤرخ مارى بن سليمان والمؤرخ صليوا بار يوحنا. والواقع أن التعليم كان موضوع اهتمام كبير فى القرن الثالث عشر، كما يعلمنا ذلك المؤرخ صليوا.

قام الجاثاليق سبريشوع المسيحى (١٢٢٦- ١٢٥٦) المنحدر من عائلة أطباء مشهورة، على سبيل المثال، بتشييد مدارس لم يتمكن من تشييدها إلا بتمويل مالى، إذ كان يولى أهمية كبرى لتطوير الفكر بدون أن يعنى ذلك إهمال الاحتياجات الجسدية، إذ أعارها الاهتمام الذى تستحقه .

"كان يُولى جلَّ اهتمامه لتشييد المدارس، وكان يهتم بتمويل تكاليفها ودفع أجور أساتذتها، وكان يجهزها بالطعام والشراب والملبس، ويتولى تنظيف الملابس، بل وحتى الحمامات أيضاً" (١٠) .

لم تسمح جميع هذه المدارس للتلاميذ الذين كانوا يرتادونها بالكفاح ضد الأمراض والجهل واكتساب الحكمة فقط، ولكنها علمتهم أيضًا مبادئ الإيمان خاصة، وكيفية الدفاع عنه بكل شجاعة وحماس.

هوامش الفصل السابع

(١) التاريخ السعردى Chronique de Séert، دار نشر أداى شير Addai Scher, Brepols، ١٩٨١ .
الجزء الأول، ص ١٩٥-١٩٦ .

(٢) نفس المصدر السابق، الجزء الثانى، ص ١٥ .

(٣) التاريخ السعردى Chronique de Séert، دار نشر أداى شير Addai Scher, Brepols، ١٩٨١ .
الجزء الثانى، ص ٦٥-٦٦ .

(٤) نفس المصدر السابق، الجزء الثانى، ص ١٨٧ .

(٥) نفس المصدر السابق، الجزء الثانى، ص ٢٠١ .

(٦) نفس المصدر السابق، الجزء الثانى، ص ١٧٦-١٧٧ .

(٧) التاريخ السعردى Chronique de Séert، دار نشر أداى شير Addai Scher, Brepols، ١٩٨١ .
الجزء الثانى، ص ٧١ .

(٨) ل. ج دى لابورت L.J. Delaporte، مواقيت مار إيليا النصيبينى La Chronographie de Mar Elie Bar Sinaya, Métropolitain de Nisibe)، مكتبة مدرسة الدراسات العليا، الكتيب ١٨١، مترجم من السريانية إلى الفرنسية، باريس ، ١٩١٠ .

(٩) التاريخ السعردى Chronique de Séert، دار نشر أداى شير Addai Scher, Brepols، ١٩٨١
الجزء الثانى، ص ١٨٨ .

(١٠) هـ. جيسموندى H. Gismondiمارى أمرى وسليباى Maris Amri et Silbae، من Patriarchis nes-torianorum commentaria، روما ، ١٨٩٦-١٨٩٩، ص ١١٧ .

الفصل الثامن

بولس الفارسى (القرن السادس)

هناك شعور بأننى أقرب من تلك الأزمنة البعيدة والقريبة منى فى آن واحد، وأنا منغمر داخل ذلك الأفق الواسع من الصلصال الذى يغطى سهل بلاد ما بين النهرين المترامى الأطراف، حيث تطبع الشمس على سطحها آثار بصماتها الحارقة. إنها الذاكرة الطويلة التى تستمد أصولها من صفحات الأنهار ومن أشجار النخيل الباسقة، ذاكرة يخترقها فى الوقت المناسب – وعندما تنشر السماء نجومها الساطعة فى آفاقها الممتدة وعلى جوانبها الهادئة – موكب أزلى محمل بالهدايا والنسمات عبر الجنائن المعلقة فى أعماق المعرفة.

هنا تعكس الفلسفة صورة سامية، إذ تفوق ثمارها أثمان الذهب الصافى، كما عبر عن ذلك الفيلسوف السريانى بولس الفارسى.

فى حضرة الفرس الساسانيين

أتطرق إلى سنة ٥٢٩ المؤسفة، حيث قام الإمبراطور الرومانى يوستينيانوس (٥٢٧ – ٥٦٥) بسن قوانينه ضد هؤلاء الذين كان يعتبرهم جزءاً من الهراطقة، وأصدر أمراً بإغلاق المدارس الفلسفية العريقة فى أثينا، ومنع التعليم " لأساتذة وثنيين". وقد أدت تعليمات هذا الإمبراطور إلى منح الصورة المتألقة للعاصمة الفكرية والفنية القديمة لونا باهتا، أثر تأثيرا شديدا على بريقها، وترك جرحا عميقا فى قلب العديد من العلماء والأدباء المتمسكين بالثقافة اليونانية القديمة. وكانت هذه الثقافة الغنية التى ازدهرت

فى المنطقة منذ ثمانية قرون قد حوفظ عليها، على الرغم من الحروب العديدة ومصائب الزمن.

بمجيء هذا الإمبراطور إذن، نزل ستار من الصمت على عالم الفلسفة العميق، وأخذ الجهل يقتفى مساره فى عمق الإمبراطورية الرومانية؛ لذا أخذ الفكر اليونانى فى البحث عن ملجأ له فى الشرق.

على أن الأحداث ما لبثت أن تسارعت فى الإمبراطورية الكبرى الأخرى، أى فى إمبراطورية الساسانيين، إذ توفى الملك العجوز قباذ سنة ٥٣١ ليخلفه على العرش ابنه المفضل الملك كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩).

رسمت الكتابات الفارسية وأعمال المؤرخين السريان، صورة براقة لكسرى أنوشروان، وجعلت منه ذلك الأمير "ذا الروح الأزلية" والإنسان العادل والمتحرر الذى يتمتع بذكاء شديد وثقافة كبيرة.

وقد قام هذا العاهل الفارسى بإصلاحات مهمة فى إمبراطوريته، وخفف عن كاهل الفقراء، وعمل على تسهيل التعليم وتيسيره أمام طبقات المجتمع التى لم تكن تنتمى إلى مجتمع النبلاء. وكان هذا الملك شديد التحمس للعلم والفلسفة اليونانية، ويشهد المؤرخ السريانى يوحنا الآسيوى (٥٠٧ -٥٨٦) الذى عاش فى ذلك العصر على هذا الجانب الإنسانى لدى الملك كسرى، حيث يقول :

"كان فطنا وحكيما، وأمضى كامل حياته فى دراسة الفلسفة"[(١)].

أقام الملك الأعياد ونظم الاحتفالات، مرتديا حُلة مطرزة بأجمل الألوان، وسروالا تميز بطياته الرائعة. واحتضن هذا الملك ببالغ التقدير والإعجاب أهل العلم والحكماء القادمين من الغرب الإغريقى والشرق الهندى على حد سواء، وأصبح بلاطه البراق والنشيط مكانا مفضلا يتبادل العلماء فى ساحاته الآراء ويتحاورون فى شتى المواضيع، وانفتحت أبوابه، بين لعبتى شطرنج، على الملاحم الهندية. وحدث أن سمع ملك الملوك بوجود كتاب ثمين يدعى كتاب البانكاتانترا أو ما يسمى لدى العرب "كليلة

ودمنة"، الذى كان يجمع فى طيات صفحاته مجموعة من الأمثال والحكايات القديمة. فقام عندئذ بإرسال رئيس أطباء البلاط المدعو برزويه، إلى الهند فى مهمة خاصة تمثلت فى جلب نسخة من هذا الكتاب وترجمته من اللغة السنسكريتية إلى اللغة البهلوية.

وانتهل الكاتب بود البريودوط Périodote الذى كان زائرا للكنيسة السريانية الشرقية، من ينابيع الحكم الهندية والفارسية. وكان يتقن اللغة البهلوية جيداً أراد أن يضع فى متناول مواطنيه كتاب البانكاتانترا، فما كان منه إلا أن بدأ بنقله بكل أمانة إلى اللغة السريانية من الترجمة البهلوية التى قام بها سابقا الطبيب برزويه.

وقد عمل الملك كسرى على ضم الكثير من العلماء السريان حوله مثل الطبيب النسطورى حزقيال أسقف مدينة زابى الواقعة فى بابل الجنوبية، وبرصوما أسقف مدينة قردو الواقعة على الضفة الشرقية فى أعالى نهر دجلة. وقد تعلم كسرى مبادئ الفلسفة وتعمق فى أفكارها على يد هذا الأخير، كما استدعى المعلم يوحنا من بيت ربان الذى كان يدرِّس فى مدينة نصيبين، للعمل فى خدمته، إضافة إلى الطبيب النسطورى جبرائيل النصيبينى. وجعل الطبيب يوسف النصيبينى فيما بعد طبيبه الخاص عام ٥٤٨ . ولم يستثنِ بالطبع فيلسوفنا بولس الفارسى الذى التحق بنخبة العلماء العاملين حول هذا الملك.

يذكر لنا المؤرخ البيزنطى أغاثياس أنه - بعد إغلاق مدرسة أثينا بفترة قليلة - التجأ كل من الفيلسوف داماسيوس آخر عميد لمدرسة أثينا الإغريقية والأستاذ الشهير سيمبليسيوس السيليزى، مفسر مؤلفات أرسطو، إلى مدينة سلوقية - قطيسفون، مندفعين إليها تجذبهم الحكمة والشهرة اللتان كان يتحلى بهما الملك الساسانى كسرى.

كما أن مفكرين آخرين مثل أولاميوس الفريجى، وبريسانيوس الليدى وهيرمياس وديوجين الفينيقى وأيزيدور الغزاوى كانوا قد توجهوا، كما يبدو، إلى قلب الإمبراطورية الفارسية لهذا الغرض نفسه.

غير أن هؤلاء الفلاسفة الوثنيين الناطقين باللغة الهيلينية الإغريقية لم يلبثوا أن رجعوا إلى بلادهم بعد عقد معاهدة سلام عام ٥٣٢ فى نهاية الحروب بين الإمبراطوريتين، آملين التمكن من العيش بهدوء وبحسب اختيارهم فى الإمبراطورية البيزنطية، يقال إنهم أصيبوا بخيبة أمل من الملك كسرى.

اقترح الملك كسرى على الإمبراطور يوستينيانوس سنة ٥٣٢ معاهدة سلام دائمة، وهى المعاهدة التى أسرع الإمبراطور بالتوقيع عليها، وبهذه المناسبة توجه بعض "العلماء الفرس" من كنيسة المشرق إلى مدينة القسطنطينية .ويقول "التاريخ السعردى" فى هذا الصدد :

عند تمام الصلح بينه وبين كسرى سأله أن ينفذ إليه جماعة من الملافنة من بلد الفرس، فبعث إليه فولوس مطران نصيبين ومارى أسقف بلد وبرصوما أسقف قرداى وإيشى المفسر بالمدائن وإيشوعياب الأرزنى الذى صار جاثاليق المشرق وبابى أسقف سنجار، فأكرمهم جميعهم، ووقعت المناظرة بينهم ثلاثة أيام وهى مدونة وعرّفوه الأمانة الصحيحة[٢].

بولس الفيلسوف الفارسى

عاش بولس الفارسى وعمل فى هذا المناخ الفكرى والاجتماعى والسياسى الذى تجاذبته فترات سلام، تخللتها أجواء اضطرابات وتقلبات وحروب، فهل استقر بولس فى مدينة سلوق – قطيسفون ؟

لا نعرف حياة هذا المسيحى النسطورى معرفة جيدة. هل درس فى مدرسة نصيبين الواقعة فى الإمبراطورية الساسانية ؟ "التاريخ السعردى" يتهمه اتهاما واضحا بالتخلى عن الكنيسة وتركها لأسباب مادية فقط .

" و كان كسرى عالما بالفلسفة فاهمًا إياها ، وقيل إنه تعلمها على مار برصوما أسقف قرداى فى وقت مقامه بها، وعلى فولوس الفيلسوف الفارسى الذى كفر بالنصرانية لما لم تتم له مطرانية فارس[٣].

ويستعيد المؤرخ السرياني الغربي ابن العبرى نفس هذه المعلومات ثانية ويضيف إليها معلومات أخرى تدعى أن بولس الفارسي قد اعتنق الديانة الصابئة.

إن هذه التصريحات لا تستند إلى مصداقية ثابتة، نظرا لأن أن هذا الفيلسوف كان قادراً بدون أى شك على الحصول وبدون عناء كبير على كرسى الأبرشية لدى الملك كسرى، نظرا لمكانته الرفيعة لديه.

ومن المؤسف أن بعض المؤرخين المستشرقين يخلطون فى كتاباتهم أحيانا بين اسم بولس الفارسى فيلسوفنا وشخص آخر يحمل اسم بولس، وهو أحد اللاهوتيين المعروفين، إضافة إلى أسقف مدينة نصيبين الذى كان يحمل اسم بولس هو الآخر.

إهداء كتاب تفسير المنطق لأرسطو إلى الملك كسرى

ألّف بولس تفسيرا مهمًا كتبه باللغة السريانية عن الفيلسوف أرسطو. ويلوح ابن العبرى إلى ذلك عندما يتحدث عن بحث مهم كتبه بولس حول موضوع المنطق. فالمنطق بالنسبة لبولس كما يعرِّفه يمثل أداة العلم التى تتيح الفرصة للإنسان للوصول إلى الحقيقة وبلوغ أهدافها .

"لقد كان بارعا فى العلوم الدينية والفلسفة العلمانية، وكتب مدخلا رائعا فى موضوع المنطق"(٤).

لقد ألف بولس شرحه هذا وأهداه إلى الملك كسرى أنو شروان فخوراً، وعلى الرغم من أن بولس قد كرسه شخصيا لكسرى باستخدامه فى محتواه أسلوب المدح الشخصى له، فإنه بعد هذا الإهداء بدأ يعبر فيه عن تعمقه فى الفلسفة، بحيث يمكن القول بأنه يقدم خلال هذا البحث تعريفا منطقيا للفلسفة فى سطور قليلة، حتى إن كان هذا التعريف مخفيا بين هذه السطور. قد يكون من المناسب تقديم مقطع صغير مستمد من هذا البحث الفلسفى(٥).

"أتوجه إلى كسرى سعيد الحظ وأفضل إنسان فى الوجود، أقدم تحية أزجيها إليك من بولس خادمك، سلام عليك !

إن الفلسفة التى هى العلم الحقيقى لكل الأشياء تكمُن فى شخصك، بل إننى أزجى إليك هذه الفلسفة نفسها، التى تتمثل فيك، على شكل هبة أقدمها لك. ليس فى هذا الأمر غرابة؛ إذ إن ذلك يعنى منحك هبات مأخوذة من نفس ثمار حديقتك الشخصية. أعرف أن القرابين المهداة لله ما هى إلا قرابين مأخوذة من كائنات مخلوقة من قبَله ويتم تقديمها من قبِلهم إليه.

إن الهبة التى أرسلها إليك هى هبة موجودة بفضل وجود الكلام. فمن خلال الكلام هذا تبرز الفلسفة وتظهر، هذه الفلسفة هى أفضل هبة موجودة من بين جميع الهبات الممنوحة الأخرى.

إن الفلسفة تعرِّف بنفسها عندما تتحدث عن ماهيتها: إن ثمارى أفضل من الذهب النقى، وإن منتجاتى أفضل من الفضة المنقاة. ها هى هذه الثمار ، الصحة والقوة والقدرة والسلطة والاقتدار والملوكية والسلام والحقوق والقوانين، وباختصار كافة الأعمال الحسنة.

والحق يقال، لقد تم خلق العالم وإدارته بالحكمة، وإن عين النفس التى ما هى إلا عين عمياء وغير قادرة على رؤية الأشياء، تستطيع مع ذلك بنورها أن تنير ذاتها، وتصبح عندئذ أسمى وأرقى من ملايين وملايين العيون البشرية. إن هذه العين وحدها هى العين المعبرة عن الحقيقية، لأنها تُرى داخل كل شىء بسبب قربها من الحقيقة الكائنة فى جميع الأشياء. وكما أن العين المادية ترى بفضل تفاعل الطبيعة مع الضوء، كذلك عين النفس، ونظرا لقربها من الضوء المدرك والكامن فى كل شىء، فهى قادرة على رؤية الضوء الموجود فى كل شىء"(٦).

عين النفس، تلك العين الروحية، هى أداة للمعرفة بالنسبة لبولس الفارسى، ويستطيع الإنسان بواسطتها معرفة الحقيقة وإدراك أمرها.

العلم يتطرق إلى كل شيء ويبحث عن كل شيء، ولذلك يمثل مصدر الحقيقة التى توصل الإنسان إلى الحكمة، فالمرء يعثر عليها ويكسبها عن طريق التعلم. والتعلم يقود إلى المعرفة التى تؤدى بدورها إلى الوصول إلى الحكمة. معادلة منطقية هى هذه المعادلة التى يقدمها لنا الفيلسوف بولس بقوله :

" الإنسان، بفضل نفسه، يصبح ذلك الكائن الحى العاقل. الإنسان يبلغ إلى ما هو عليه، بفضل العلم الذى يكسبه" (٧).

يميز بولس بين العلم والإيمان، إذ إن كلاً من هذين الموضوعين يمتلك مجاله الخاص به، ويبدو من خلال أفكاره الفلسفية أنه يتخذ موقفا مساندا للعلم، عندما يقول إن العلم أسمى من الإيمان، لأن مادة العلم وموضوعه أكيدان، بينما يجد أن مادة الإيمان وموضوعه قد يكونان غير أكيدين .

"العلم يهتم بمواضيع قريبة وواضحة ومعروفة، أما الإيمان فإنه يتناول أموراً بعيدة وغير مرئية ولا يمكن معرفتها بدقة تامة، فهو فى حالة الشك، أما العلم فلا شكٌ فى موضوعه. أجل إن الشك يؤدى إلى التفرقة بينما يؤدى التأكد من الشيء إلى الإجماع على الشيء.

العلم إذن أفضل من الإيمان، ويجدر بنا تفضيل العلم على الإيمان، حتى إن كان المؤمنون يعتذرون عند مواجهتهم للعلم، وهم يقولون تبريرا لاعتذارهم بأن ما نؤمن به الآن سنعرفه فى المستقبل. نحن اليوم نرى كما لو كنا نرى من خلال المرآة، عن طريق الأمثلة ومن خلالها، ولكن فى المستقبل سنراه وجها لوجه.

العلم يفضى بالتأكيد إلى السلطة وإلى جمال العالم وسلام الروح والبهجة لدى المفكرين، ولكن يجب مع ذلك الإشادة بالإيمان بشكل خاص..." (٨).

يتابع المؤلف شرحه، ويحاول من خلاله أن يستمر فى تعريفه للفلسفة :

"إذا كان الفلاسفة يحاولون البحث عن معرفة علم الأشياء كافة، يمكن عندئذ أن نضيف إلى التعريف بالفلسفة عبارة تقول إن الفلسفة تعالج ما هو موجود، لأن

الشخص الذى يرغب فى معرفة ماهية الإنسان أو الحصان أو أى شيء آخر، لا يبحث عن الطريقة التى يكون الإنسان أو الحصان موجودا على أساسها فى العالم، أو عن الطريقة التى وجدوا فيها، أو تلك التى يجب أن يوجدوا عليها، إذ إن مثل هذا البحث يمثل بحثا غير محدد، ليس من قبل الطبيعة ولكن بالنسبة لنا نحن : الشيء غير المحدد لا يمكن أن يكون معروفا بالنسبة لنا.

الطبيعة البشرية هى جوهر الإنسان، والطبيعة البشرية تشمل جميع البشر. العلم يعالج إذن هذا التشابه المشترك، ولكنه لا يعالج ما هو غير محدد، وهو ما ينطبق أيضا على الأشياء الأخرى... الفلسفة وحدها تملك أداتها الخاصة، وهى لا تحتاج إلى أى فن آخر، وأعمالها ما هى إلا أعمال مرغوبة أكثر فأكثر. لقد قلت فعلا إن الفلسفة هى فن لجميع الفنون الأخرى، وهى حكمة جميع الحكم الأخرى.

أجل إن الفلسفة كالصورة الإلهية طالما أن البشر قادرون على التشبه بها. الله يعلم ويبدع، كذلك الفلاسفة أيضا على صورته، يعرفون ويفكرون لكن من خلال التخيل" (٩).

يتغنى بولس الفارسى من خلال نصه هذا بالفلسفة، علم الموجود وعلم الأشياء المحسوسة. وكما هو الحال بالنسبة إلى أمُونيوس الإسكندرى، يرى بولس الفارسى أن الفلسفة تنقسم إلى قسمين :

القسم النظرى الذى يهتم بالأشياء القابلة للإدراك والاستيعاب، مثل علم قوى النفس والكائنات غير المنظورة، ويهتم هذا القسم أيضا بعلم الكائنات الحساسة القابلة للتحسس والشعور، وعلم الرياضيات والمقاييس والهندسة والموسيقى والفلك، وهى الأشياء التى تدخل ضمن نطاق الأشياء القابلة للإدراك والأشياء المحسوسة.

أما القسم العملى، فهو ذلك القسم الذى يعالج مسألة إدارة الدولة وإدارة الإنسان.

أما الأداة المستخدمة فى كل من هذين القسمين للفلسفة، فما هى إلا المنطق الذى وجد بفضل بناء الخطاب المتكون من الفعل والاسم. إنه بحث لغوىٌّ وفنىٌّ.

استمر منهج تقسيم الفلسفة المستمد من تراث الفلسفة الإسكندرية، وترك بصماته واضحة على تفكير الفيلسوف سرجيوس الرأسعيني، واستمر هذا المنهج لدى المفكرين السريان، ولم يستثنِ المفكرين العرب منه.

كتب بولس الفارسي بحثا آخر وجهه إلى الملك كسرى، وهو عبارة عن مقدمة أعدها للمساعدة على قراءة كتب أرسطو قراءة سليمة، وهو البحث المعروف من خلال النسخة العربية التي أدرجها الفيلسوف العربي مسكويه (١٠٣٠) في مؤلفاته.

أحب بولس الفارسي التفكير الفلسفي وأحب العلم وطريقته التي تقود إلى معرفة الحقيقة.

هوامش الفصل الثامن

(١) يوحنا الأفسسى Jean d'Asie، التاريخ الكنسى Histoire ecclésiastique، الجزء الثالث والخامس ٢٠ ، نشره كيورتن Cureton، أوكسفورد ١٨٥٢، أعاد نشره إ. و بروكس E. W. Brooks CSCO، ١٠٥/٥٤، ١٩٣٥ .

(٢) كتاب التاريخ السعردى، نشره المطران أدى شير Addai Scher، دار نشر بريبولس، بلجيكا Brepols, Belgique، ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه، الجزء الثاني، ص٥٥ .

(٤) ابن العبرى، التاريخ الكنسى Chronique ecclésiastique، الجزء الثانى، ص ٩٧ .

(٥) بحث عن أعمال المنطق لأرسطو الفيلسوف إلى الملك كسرى Traité sur l' uvre d'Aristote le philosophe pour le roi Korso، محفوظ باللغة السريانية فى المتحف البريطانى تحت رقم ١٤٦٦٠، منشور من قبل J.P.N. Land فى Anecdota syriaca، الجزء الرابع، ليدن Leiden 1875، مع ترجمة باللغة اللاتينية.

(٦) ترجمه إلى الفرنسية خافير تيكسيدور Javier Teixidor، برديصان الرهاوى Bardesane d'Edesse، دار نشر سيرف Cerf، ١٩٩٢، ص ١٢٩ .

(٧) نفس المصدر السابق، ص ١٢٩ .

(٨) نفس المصدر السابق، ص ١٣٠ .

(٩) نفس المصدر السابق، ص ١٣٠ .

الفصل التاسع

أحُودمِّيه (القرن السادس)

كاتب أصيل

وجوه أخرى من فلاسفة السريان، تخترق هى أيضا القرن السادس الميلادى. كاتب يتمثل فى ذلك الإنسان الذى عرفته الفلسفة السريانية باسمه المألوف، ألا وهو أحُودمِّيه. يقترب منا بخطى صامتة، حاملا خبرته وعلمه فى البحث عن الإنسان، قبل أن ينغمر فى غياهب الزمن الطويل وتضمه صفحاته داخل طياتها العميقة.

من هو أحُودمِّيه ؟ يذكر لنا التاريخ وجود أربعة أشخاص قد حملوا هذا الاسم. يخبرنا العلامة الفرنسى جان فِيِّه J.M Fiey أنه من غير الممكن إسناد أى كتاب أو تأليف إلى المتروبوليت اليعقوبى أحُودمِّيه، لأن رجل الدين هذا لم يعمل فى ميدان الكتابة، ولهذا السبب لم يترك أى مؤلف له(١).

كان أحُودمِّيه هذا على الأغلب كاتبا نسطوريا، وقام بتأليف عدة كتب فلسفية مختلفة. يشير المؤلف عبديشوع الصوباوى (ت ١٣١٨) فى فهرس المؤلفين إلى عشرة أعمال قام أحُودمِّيه بتأليفها، يضمنها خمسة مؤلفات تميزت بمادتها الفلسفية، وهى : بحث عن النفس البشرية، وبحث عن حرية الاختيار، وكتاب عن تعريف مواضيع المنطق كافة، وكتاب عن ماهية الإنسان باعتباره عالما مصغرا، وكتاب آخر عن تكوين الإنسان ونشأته(٢).

الكتاب الخاص بتكوين الإنسان ونشأته

يوجد البحث الخاص بتكوين الإنسان الذى ألّفه الكاتب أحُودمِّيه محفوظا جزئيا فى لندن ضمن مخطوطة سريانية قديمة [٣]. ويتعرض الكاتب فى مؤلفه هذا لأصدقاء العلم، كيف أن الإنسان، إذ يشكل "تجمعا عجائبيا"، مكون من جزأين هما النفس والجسد.

العقل هو ذلك العنصر الذى يوجه الفكر نحو الكمال، بينما طبيعة الإنسان تحثه نحو الرغبة.

"لقد تكلمنا عن الحرية والإرادة فى المؤلف الذى كتبناه بعنوان (الإنسان عالم مصغر)، بأن الرغبة والشجاعة تنتميان إلى القوة الحيوية للنفس. على أن الطبيعة وليست الإرادة هى التى تدير هذه الحركة، والمعرفة هى المحرك الذى يوصل الإنسان إلى الإدراك، ويعمل الفكر على تقوية الإدراك فيعطيه زخما قويا.

إن العقل ينظم عملية الوصول إلى الكمال والحكمة والاستيعاب والكلام السليم والحذر والمنطق، أما الطبيعة فإنها تثير الرغبة والغضب، للاقتراب مما هو مفيد لها وللابتعاد عما يضرها، وتوجد هذه العوامل أيضا لدى الحيوانات. وقد تكلمنا عن هذا الموضوع فى كتاب "الإنسان عالم مصغر"، كما بحثنا أيضا فى هذا الكتاب كيف تتقارب عمليات الجسد البشرى.[٤]

يدرس أحُودمِّيه كل جزء يتكون منه الإنسان، ويعالج موضوع النفس البشرية التى كانت بالنسبة للفيلسوف أرسطو المبدأ الأساسى لتغذيته وإحساسه وتفكيره وحركته وقواه المختلفة.

"لنبدأ دراستنا عن الإنسان بدراسة النفس، فهى فى الواقع تشكل مبدأ وأساس جميع الأعمال وجميع التصرفات والأقوال، إذ إن حركات الجسم هى التى تؤدى إلى أن تبرز هذه الأعمال. ونظرا لأن تركيبة الشخص الفريدة هذه تركيبة مزدوجة، فإن العمليات التى يقوم بها الإنسان وحركاته المعبَّر عنها بالأعمال والأقوال لا بد وأن تكون مزدوجة هى أيضا، ويقع البعض منها تحت الحواس بينما يقع البعض الآخر فوق الحواس، ولا يمكن إدراكها إلا من خلال العقل.

وهكذا فإن البصر والسمع والشم والذوق والحس نفسه مع عملياته، تتضمن شيئا آخر لا يمكن أن يبصره إلا العقل والعلم لهؤلاء الذين يتقصون الحقيقة ويرغبون فى التوصل إلى المعرفة الدقيقة(٥).

يصنِّف أحُودميه قوى النفس التى تتمثل فى العقل والحياة، وتنقسم القوى الحيوية بالنسبة له، إلى اثنتين هما الغضب والرغبة. وتحتوى القوى التابعة للعقل على أربع خصائص، هى التفكير والذهن والإدراك والفكر. وتنجز هذه الخصائص عمليات مثل الحكمة والعلم والتصرف والأعمال، وهى تعمل مثلما تعمل الخادمات لإرادة سيدها، وهى بالتالى تعتمد على الإرادة التى تجمع بداخلها عناصر الذكاء والإدراك التى تسمح لها ببلوغ المعرفة. تبقى الحرية إذن تابعة للإرادة التى هى أعلى من الجسد.

يعود أحُودميه بعد ذلك إلى موضوع الاتحاد الحاصل بين الجسد والنفس، ويوضح كيف تتحد هذه القوى مع حواس الجسم الخمس، أى البصر والسمع واللمس والذوق والشم. ويشير إلى دور الأعضاء التى تعمل على توجيه هذا الجسم وتحريكه.

"الأعضاء الرئيسية التى تدير الجسم هى المخ والكبد والقلب والمعدة والكليتان، وتتمثل القوى الكامنة داخل هذه الأعضاء فى الخصائص التالية : التمييز والرغبة والغضب والشهوة والإحساس. ويقع الإحساس فى المخ والتمييز فى القلب والرغبة فى المعدة والشهوة فى الكليتين والغضب فى الكبد. أما بالنسبة للنفس، فإن المخ هو العنصر الذى يخدم العقل وتتوفر فيه خمس حواس تعمل لصالحه، هى حواس البصر والشم والسمع والذوق واللمس، بينما القلب يخدم المعرفة.(٦)

ويشرح أحُودميه نشوء الفعل البشرى، ويصل إلى نتيجة وحدة الشخص مع أعماله، "تنبثق قوى النفس والجسد من شخصية واحدة فقط، لأنه حتى هذه الأعضاء التى تقوم بالعمليات الخاصة، والتى تؤدى إلى إنجاز كل العمليات، تشترك ضمن نفس القوى من أجل الوصول إلى هذه الأعمال. وتتحرك قوى النفس مع هذه الأعضاء وصولا إلى الحركة التى تحدثنا عنها، لكى تصبح إدارة الأعمال وتنفيذها مجتمعة فى نفس الشخص، ولا يهم هنا إن كان مصدر الحركة من الخارج أو من الداخل بناءً على أهواء متعلقة بالقوى الطبيعية للرغبة والغضب"(٧).

تدل اللغة الفلسفية لهذا البحث على القدرة الغنية والوضوح الذى تكتنفه مفرداتها على الرغم من عدم استعارته لأى كلمات إغريقية، أو استخدامه للأسلوب الثقيل الذى غالبا ما يشوب البحوث الفلسفية، وبالرغم من وجود بعض من التكرار فى السرد.

كان كُتَّاب اللغة السريانية، فى تلك الفترة الزمنية، وعلى الرغم من الصعوبات، يعملون بكل جدٍّ، كما هو واضح من خلال هذا النص، على تطوير التعابير الفنية والفلسفية، وجعل مفرداتها سلسة فى متناول القارئ.

وقد قدم أحُودمِّيه، المفكر الأصيل والفيلسوف الذى تأثر تأثيرا كبيرا بمبادئ وأفكار الفيلسوف أرسطو، حجرا مهما ساهم من خلاله مساهمة فعالة فى بناء الصرح الكبير للفكر السريانى الذى نشأ معه وبه وبالفلاسفة الآخرين الذين سوف نتطرق إليهم فى بحثنا هذا.

هوامش الفصل التاسع

(١) مجلة ميزيون Museon، العدد ٨١، ١٩٦٨، ص ١٥٥-١٥٩ .

(٢) عبديشوع الصوباوى، فهرس المؤلفين، نشره ى. س. السمعانى J.S. Assemani، روما، ١٧١٩- ١٧٢٨، المكتبة الشرقية، الجزء الثالث، ص ٣-٣٦٢ .

(٣) مخطوطة محفوظة فى المتحف البريطانى، تحت الرقم ١٤٦٢٠، ترجمها ونشرها فرنسيس نو (F. Nau) فى Patrologia orientalis، الجزء الثالث، الكتيب الأول، تحت عنوان تاريخ أحُودمِّيه وماروتا، يليه بحث حول أحُودمِّيه عن الإنسان Histoire d'Ahoudemmeh et de Marouta, suivi du traité d'Ahou-demmeh sur l'homme، باريس، ١٩٠٦ .

(٤) ص ١٠٧ .

(٥) ص ١٠٢ .

(٦) ص ١١٠ - ١١١ .

(٧) ص ١١٤ .

القسم الثالث

الفلاسفة السريان فى عهد الأمويين الأوائل

الفصل العاشر
ساويرا سابوخت (ت ٦٦٧)

دير قنشرين عش النسور

هبت فى هذه الفترة الزمنية على دير قنشرين ريح محملة بالمعرفة. أسس يوحنا بر أفتونيا(ت ٥٣٨) دير قنشرين، وكان سابقا رئيس دير القديس توما الواقع فى سلوقيا نهر العاصى. أراد الاختلاء فى مكان هادئ ومنعزل، وهو المكان الذى كان واقعا على الضفة اليمنى لنهر الفرات، وذلك فراراً من اضطهاد الإمبراطور الأرثوذكسى يوستين (٥١٨- ٥٢٧) الذى كان يمارسه ضد الأشخاص الذين كانوا يعتقدون بمذهب الطبيعة الواحدة. وقد قام يوحنا بر أفتونيا بتشييد دير مقابل منطقة جرابلس الواقعة شمال سوريا الحالية، واشتهر هذا الدير فى بداية القرن السابع بمدرسته التى أصبحت وريثة لمدرسة الإسكندرية.

تلقى ساويرا تعليمه فى دير قنشرين، ولا يخفى ابن العبرى، فى كتابه الذى حمل تسمية التاريخ الكنسى، إعجابه الشديد بهذا العالم السريانى الغربى اللامع.

ساويرا سابوخت فى عهد الفتوحات العربية

ولد ساويرا فى مدينة نصيبين، مدينة الألف حديقة، فى نهاية القرن السادس الميلادى، وتوجه إلى دير قنشرين لمتابعة دراسته فى مدرستها ذات الصبغة الإغريقية. ويؤكد ابن العبرى هذه الحقيقة، حيث يخبرنا بأن ساويرا درس فى هذا الدير مادة

الفلسفة والرياضيات والعلوم الكنسية، وتعمق هناك في دراسة اللغات السريانية والإغريقية والفارسية، وعُيِّن فيما بعد أسقفا للدير نفسه. وقام سنة ٦٣٨ بتطوير دراسة مواضيع الفلسفة الإغريقية وأعمال الترجمة بجميع أنواعها.

وكان ساويرا شاهداً على وصول العرب الذين احتلوا فلسطين سنة ٦٣٤ وسوريا سنة ٦٣٦ . وكان غزو مدينة الرها حوالى سنة ٦٣٨، من قبل الجيوش العربية ، هو الذى أدى إلى وقوع المدينة تحت ادارتها. وقد واصل العرب فتوحاتهم وأصبحوا أسياد بلاد ما بين النهرين سنة ٦٤٢ ، وبسطوا سيادتهم على أرمينيا سنة ٦٤٦ ، كما فتحت مصر والإسكندرية فى نفس السنة. وأدت هذه الفتوحات الواسعة إلى إضعاف الإمبراطورية الفارسية التى اختفت بعد وفاة الملك يزدجرد الثالث، آخر ملوك هذه الإمبراطورية الواسعة سنة ٦٥١ ، وعاد السلام إلى سوريا بعد أن استتب النظام فى أراضيها المحتلة.

كانت المنطقة الواقعة غرب نهر الفرات حتى هذه الفترة، تفصل الإمبراطورية البيزنطية عن الإمبراطورية الفارسية الساسانية، على أن هذه الحدود لم تلبث أن اختفت نتيجة لهذه الفتوحات الكبرى. وتمكن النساطرة الساكنون الجانب الشرقى لنهر الفرات واليعاقبة الساكنون الجانب الغربى له عندئذ من التحرك بحرية أكثر من السابق داخل الدولة العربية الواسعة.

اكتشف العرب فى بلاد ما بين النهرين، بعد فتحهم لهذه المنطقة المهمة، بلدا منظما تنظيما جيدا على صعيد الديانة المسيحية، وهناك أسقف فى كل المدن الكبيرة، مثل أربيل ونصيبين وكرخا (كركوك) وتكريت والحيرة وغيرها من المدن الأخرى، على رأس أبرشية تضم عددا كبيرا من المسيحيين الناطقين باللغة السريانية. وكان جاثاليق كنيسة المشرق يقيم فى ساليق - قطيسفون.

وقد أطلق العرب المتسامحون على المسيحيين تسمية (السُّريان). وقد رحب السريان على الأرجح بقدوم العرب، آملين التخلص من التشدد البيزنطى والساسانى. وكانت الإمبراطوريات الكبرى فى بداية القرن السادس قد زجت بنفسها فى حرب ضروس، بهدف الحصول على الهيمنة العسكرية فى هذه البقعة من العالم.

خضع أهلُ الكتاب للدولة الجديدة، وسمتهم الأقوام العربية حالا تسمية الذميِّين (أهل الذمة) أو المحميين. وكانوا يدفعون جزية الرأس لقاء حصولهم على حرية العبادة.

وتابع ساويرا – الذى مثل بحق الشاهد الأول على الفتح العربى – دروسه فى المواضيع اللاهوتية والفلسفة والرياضيات فى ديره المشهور، وكان منشغلا بالبحث وكثير الاهتمام بالكتب التى منحت عقله ثقافة واسعة. وتوفى بعد حياة حافلة أمضاها فى العمل والتأمل، بعد عمر طويل، سنة ٦٦٧ .

أعمال ساويرا المختلفة

تتكون الكتابات اللاهوتية لهذا الأسقف اللامع، والمحفوظة فى مخطوطات المتحف البريطانى، من بحث كرسه عن كتاب أسابيع دانيال والطقوس الدينية، ورسالة موجهة إلى الكاهن باسيل القبرصى عن القمر الرابع عشر فى نيسان (أبريل) ٦٦٥ يتمثل هدفها فى تحديد موعد عيد الفصح. وقد وجه الرسالتين اللتين حررهما عن خطابى غريغوريوس النزيزى إلى سرجيوس، رئيس دير سنجار.

وقد ألف ساويرا، فى المجال العلمى، كتابا بعنوان صور الأبراج[١] . وكانت هذه الصور التى توصل إليها مطابقة بشكل منتظم لمجموعة الاثنى عشر نجما التى وصفها الفلكى الإغريقى بطليموس (نحو سنة ١٠٠–١٧٨ ب.م)، وكانت تعرض أشكالا مماثلة للأشكال التى تمكن البابليون من تحديد صورها.

كان ساويرا يرصد السماء الزرقاء الصافية فى نزهاته وجولاته الليلية، هذه السماء التى مثلت أول كتاب كان قدماء بلاد الرافدين يطالعونه. فهل كان يفكر أو ربما يحلم مثلهم بالفلكيين الذين قسموا اليوم إلى "اثنتى عشرة ساعة مكررة" ؟ كان ساويرا يرغب فى تعليم الناس الطرق التى تساعدهم على قياس الزمن. وكان ينهمك فى عمله بنشاط وحيوية منقطعى النظير، عندما يعود إلى غرفة عمله، بكتابة بحث فريد من نوعه حول تصميم الإسطرلاب. وربما استخدم هذا البحث فى تحديد ساعات النهار والليل، إذ كان يسمح بالحصول على تحديد موقع الشمس والقمر والكواكب.

بحوزتنا اليوم نسخة واحدة من المخطوطة المتعلقة بهذا البحث عن الإسطرلاب، وهى المخطوطة التى تحمل تاريخ سنة ٩٥٦، والموجودة الآن فى مدينة برلين(٢) .

وقد قام العالم الفرنسى فرنسيس نو François Nau بطبع هذه المخطوطة ونشرها(٣) .

كان ساويرا مطلعا اطلاعا تاما على تاريخ أجداده القدماء، فقام بإعداد دراسته عن العلم الشرقى، وهى الدراسة التى لم تستمد جذورها من الإغريق، ورثة الكلدان والمصريين، وإنما اعتبارا من علماء بلاد ما بين النهرين القدماء ومن شعوب الشرق الأدنى العريقة.

وقد أكد ساويرا أن العلوم ومنذ البداية، أتت من الشعوب الناطقة بلغات مختلفة، من بينهم الإغريق، بل حتى البرابرة أيضا .

"كيف يمكن للبعض منهم (الإغريق) أن يفتخروا بكونهم الأوائل فى اكتشاف معرفة علوم الرياضيات والفلك ؟ بالطبع ليس هذا بصحيح، لأن العلم لم ينشأ لكى يتم التعبير عنه بلغة معينة فقط، بل على العكس، فاللغة هى أداة مستخدمة للعلم"(٤).

تميَّز ساويرا أيضا بالتعمق فى الدراسات الفلسفية، وتحتوى مخطوطات المتحف البريطانى على بحث مهم عن كتاب القياس لأرسطو (٥) . وهذا البحث كان فد أنجزه حوالى سنة ٦٣٨ إضافة إلى كتابات متبقية من شرح كان قد حرره عن كتاب العبارة لأرسطو.

ويخبرنا العالم أ. بومشتارك A. Baumstark، بوجود احتمال أن يكون ساويرا قد ترجم شرح بولس الفارسى لكتاب العبارة من اللغة الفارسية إلى السريانية،.

وتضم مخطوطات لندن هذه أيضا رسالتين لساويرا. وقد وجه الرسالة الأولى إلى أحد أصدقائه وهو الكاهن إيثيلاها النينوى، والتى شرح له فيها المصطلحات الواردة فى كتاب العبارة باستخدام تعابير سريانية مفهومة وواضحة.

أما الرسالة الثانية، فهى تلك التى قام بتوجيهها إلى يونان الزائر، أسقف مدينة تلاً (المدينة الواقعة على مسافة غير بعيدة من مدينة ماردين). ويوضح ساويرا فى هذه الرسالة بعضا من النقاط المتعلقة بكتاب علم البلاغة التى أبدع فيها الفيلسوف أرسطو(٦) .

ويذكر لنا الكاتب الفرنسى رينان أن ساويرا هو الذى عرَّف العرب بالفلسفة الإغريقية.

ألم يمنح هذا الفيلسوف العلوم المدنية دفعة جديدة جعلتها تنطلق فى قفزة حيوية ؟ يمكن القول بأن أعماله ما لبثت أن انتشرت فى الشرق انتشارا جعلها تحتل مكانة بارزة بين أعمال الفلاسفة السريان.

أترك الفيلسوف ساويرا سابوخت فى هذا المناخ العذب، وأراه جالساً قرب نافذة غرفته منهمكًا فى نقش كتاباته الفلسفية بدقته المعهودة على أوراقه السميكة، مستلهماً أفكاره من نشوة صباح ربيعى جميل.

هوامش الفصل العاشر

(١) تم طبع الفصول القليلة المتبقية والمحفوظة فى المتحف البريطانى تحت رقم ١٤٥٢٨، من قبل إ. ساشو E. Sachau، فى .Inedita syr، ص ١٢٧-١٣٤، فينا، ١٨٧٠ . وقد تم طبعها ثانية من قبل فرنسيس. نو F. Nau فى مجلة المشرق المسيحى Revue de l'Orient Chrétien ، سنة ١٩٣٠ .

(٢) مخطوطة سريانية، مجموعة بيترمان Petermann، رقم ٧٢، برلين.

(٣) فرنسيس نو François Nau فى الصحيفة الآسيوية Journal asiatique، باريس، ١٨٩٩، مع ترجمة باللغة الفرنسية.

(٤) فرنسيس. نو F. Nau، الكون "الكوزموغرافيا" فى القرن السابع لدى السريان La Cosmographie au VIIème siècle chez les Syriens)، مجلة المشرق المسيحى، ١٥، باريس، ١٩١٠، ص ٢٢٥-٢٥٤، استنادا إلى المخطوطة رقم ٣٤٦ للمكتبة الوطنية.

(٥) بحث غير منشور، محفوظ فى مخطوطات المتحف البريطانى تحت رقم ١٤٦٦٠ و ١٧١٥٦ وفى عدة مخطوطات مثل المخطوطة رقم ٨٩ فى برلين.

(٦) المخطوطات رقم ١٤٦٦ و ١٧١٥٦ فى المتحف البريطانى. رسائل محفوظة فى دير سيدة الزروع، ج. فوستة J. Vosté، كوديكس Codex LV، ٤، باريس، ١٩٢٩.

الفصل الحادى عشر

أثناسيوس البلدى وجرجيس أسقف العرب

أثناسيوس البلدى (ت ٦٨٦) البطريرك والفيلسوف

ترك الفيلسوف أثناسيوس البلدى الذى كان واحدا من أبرع تلاميذ الفيلسوف ساويرا، ترك نفسه لتتقاذفه الرياح القوية نحو شواطئ بلاد الإغريق القديمة، حيث التقى فكريا بفيلسوفه أرسطو، ودفع بقاربه المحمل بالأفكار إلى أعماق الحكمة.

وُلد هذا العلامة فى مدينة بلد بتاريخ مجهول، وكانت هذه المدينة القديمة تدعى عندئذ "بلاتا" فى عهد الملك الأشورى سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق.م). ونشأت فى هذه المدينة حوالى سنة ٤٨٥ الميلادية أبرشية كانت تعود عندئذ إلى رئيس أساقفة مدينة نصيبين النسطورى.

وقد تبنى، فى نهاية القرن السابع، قسمٌ مهمٌ من هذه المدينة الجميلة المحاطة بالحدائق، مذهبَ الطبيعة الواحدة المونوفيزية. وتحمل اليوم مدينة بلد تسمية أسكى موصل، وهى تقع على مسافة تبلغ حوالى ثلاثين كيلومتراً شمالى مدينة الموصل.

كان أثناسيوس ينتمى إلى إحدى العائلات التى تبنت مذهب الطبيعة الواحدة فى هذه المدينة، وتوجه إلى دير قنسرين لتلقى تعليمه هناك.

ودخل الرهبنة فى بيت ملكا، الذى كان يمثل ديراً كبيراً يقع فى منطقة أنطاكية، وتفرَّغ فى هذا الدير لدراسة الفلسفة والعلوم. وحصل أثناسيوس بعد فترة وجيزة على درجة الكهنوت، واستقر فى مدينة نصيبين. وكان يطيب له الإقامة فى هذه المدينة المليئة

بروح العلم والعلماء، والتى أتاحت له فرصة التفكير والتأمل فى أجوائها الفكرية والعلمية.

انتُخِب بطريركا للكنيسة السريانية الأرثوذكسية فى أنطاكية سنة ٦٨٣ وحمل عندئذ اسم أثناسيوس الثانى، وحرر بهذه المناسبة رسالة وضح فيها السلوك الذى يجب أن يتبناه المسيحيون إزاء الإسلام [١] . وتوفى سنة ٦٨٦ .

التراجم الدينية والفلسفية

وقام فى سنة ٦٦٩ بناء على طلب من متى أسقف مدينة حلب ودانيال أسقف مدينة الرها، بترجمة مجموعة من الرسائل من اليونانية إلى السريانية التى حررها الكاتب اللاهوتى الكبير ساويروس الأنطاكى[٢] . وترجم أيضا أثناسيوس بعضًا من مواعظ جريجوريوس *النزينزى*[٣] .

كان أثناسيوس، وهو تلميذ ساويرا سابوخت، يعتقد أنه لا يمكن أن توجد ثروة توازى الثروة التى تمثلها الفلسفة، وأداتها المنطق الأرسطوطالى. وقد قام، باعتباره مترجما كبيرا، بترجمة كتاب إيساغوجى الذى كتبه الفيلسوف فرفوريس[٤] إلى اللغة السريانية، إضافة إلى ترجمة كتاب إيساغوجى آخر كتبه مؤلف غير معروف[٥]، من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية سنة ٦٤٥ .

كما ترجم أثناسيوس كتابى القياس والمواضيع الجدلية **Topiques** للفيلسوف أرسطو. ونقل كتابا آخر لأرسطو إلى اللغة السريانية، وهو الحكمة المموهة **Les réfutations sophistiques** . يتكلم عن هذه الترجمات الفيلسوف السريانى الحسن بن سوار الذى عاش فى أواسط القرن العاشر. ويقدم البطريرك السريانى الشرقى طيماثاوس (٧٨٠-٨٢٠) شهادة يذكر فيها أن أثناسيوس قد قام أيضا بترجمة كتاب البرهان لأرسطو.

وقد قام فيلسوفنا هذا بتوسيع حلقة التراجم، حيث إن المترجمين الذين سبقوه لم يتجاوزوا فى أعمالهم حدود القياس خوفا من الكنيسة التى كانت ترى أن ازدياد وتصوير الدراسات الفلسفية والتحليل المنطقى يمكن أن يشكلا خطرا على عقائدها.

استطاع أثناسيوس، بحسب رأى الفيلسوف فوكاس الرهاوى Phokas ، أن يكتسب كفاءة لغوية مهمة فى الترجمة من اليونانية إلى السريانية.

جرجيس أسقف العرب(ت ٧٢٤)

لا نعرف مكان ولادته ولا تاريخها .

كان جرجيس تلميذا لأثناسيوس البلدى الذى علَّمه مبادئ الفلسفة واللاهوت، ثم توجه التلميذ الشاب إلى دير قنسرين لمتابعة دراسته فيه، وكان يحلو لجرجيس تهذيب روحه الشفافة وتزيينها بالمعرفة.

عُيِّن، عندما بلغ درجة عالية من النضوج الفكرى الناتج عن تأملاته العميقة، أسقفا سنة ٦٨٦ لأبرشية عاقولا (التى تقع اليوم بالقرب من مدينة الكوفة فى العراق). وأولى اهتماما كبيرا بالقبائل العربية الراحلة وبالقبائل المسيحية التى كانت موجودة حينذاك فى بلاد ما بين النهرين، مثل قبائل بنى طيِّئ وبنى عقيل وبنى تنوخ، وهى القبائل التى كانت متعلقة تعلقا شديدا بالمذهب المونوفيستى. وكان وجود هذه القبائل العربية مشهودا فى المنطقة منذ مدة طويلة. لهذا السبب كان جرجيس يحمل، كنية أسقف العرب.

تأليف وترجمة

انكبَّ جرجيس، بالإضافة إلى نشاطاته الرعوية، على تأليف كتب لاهوتية، وحرر كتابا شارحا فيه خطب جريجوريوس النزينزى، الذى كان يعتبر واحدا من أهم آباء الكنيسة، وله شرح أيضا فى أسرار الكنيسة وبعض المواعظ الشعرية الموزونة القافية، كما أنه أكمل كتاب هكساميرون الذى كان قد ألَّفه صديقه يعقوب الرهاوى.

وترك جرجيس مجموعة كبيرة من الرسائل المهمة جدا، والمحفوظة جزئيا في مخطوطة يعود تاريخها إلى القرن السابع في المتحف البريطاني[٦]، عالج فيها مواضيع اللاهوت وعلوم الأحداث الزمنية والفلك. وانتقد في إحدى رسائله الموجهة إلى الكاهن إيشوع الحبيس في قرية بانب (بالقرب من مدينة حلب) منتقدا المؤلف السرياني أفراهاط الذي كان معاصرا للقديس أفرام، والذي كانت أفكاره تستند على التمييز بين الروح والنفس، كما أنه لم يتردد في انتقاد نظريته المتعلقة بالروح القدس.

غاص جرجيس في بحر الفكر، وتمكن بذلك من التعرف بفلسفة أرسطو، فدرس مبادئ هذه الفلسفة، وبما أنه كان يتقن اللغتين السريانية واليونانية شرع بدون وجل في ترجمة مجموعة الكتب الستة للأرجانون[٧]، ولا نملك مع ذلك إلا الكتب الثلاثة الأولى. ويضع لكل كتاب منها مقدمة ثم يعطي تعليقا وشرحا كاملا لكل كتاب أيضا. وهذه الكتب الثلاثة هي : كتاب المقولات[٨] وكتاب العبارة[٩] وكتاب البرهان[١٠] . استخدم جرجيس في ترجمته لكتب أرسطو أسلوبا قريبا من النص الإغريقي، إذ أراد أن يكون أمينا تجاه هذا النص.

ويعتقد الكاتب الفرنسي رينان الذي عبر عن إعجابه الكبير بجرجيس أسقف العرب، أن الشروح الفلسفية لهذا الكاتب تمثل عبقرية لا يمكن مضاهاتها في فن الكتابة، وقد شهد على هذه الكفاءة بهذه العبارات التكريمية .

"لم أعثر، من بين التفاسير السريانية، على عمل يمكن مقارنته بمثل هذه التفاسير، نظراً لأهمية إنجاز هذا العمل والطريقة الدقيقة المتبعة في عرضه. إذا فكر العلماء في نشر جزء من الفلسفة السريانية، فيجب عليهم عندئذ أن يفكروا في منح الأفضلية إلى هذا العمل"[١١].

توفي جرجيس سنة ٧٢٤ . وقدم بذلك دير قنشرين للإنسانية، ثلاث نبتات طرية جميلة، ساويرا سابوخت وإثناسيوس البلدي، وجرجيس أسقف العرب، ساهمت بأفكارها في تعميق الفلسفة السريانية وتطويرها ونشرها وجعلها نبراسا أنارت الطريق أمام الحضارة الإنسانية .

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) رسالة محفوظة فى مكتبة مطرانية السريان الأورثوذكس.

(٢) تم طبع الكتاب السادس من هذه المجموعة وترجم إلى اللغة الإنجليزية من قبل و. بروكس W. Brooks ، لندن ١٩٠٣ .

(٣) لندن، المتحف البريطاني، المخطوطة ١٢١٥٣ .

(٤) نشر هذا الكتاب أرون فريمان Aaron Friemann سنة ١٨٩٧ فى برلين، وتحافظ المخطوطة ١٥٨ فى الفاتيكان على ترجمة الإيزاكوج.

مخطوطة مكتبة مديسيس Médicis والمخطوطة ٢٤٨ فى باريس اللتان تنسخان مقدمة أمونيوس والمخطوطة ٦٥٢ فى الأسكوريال Escurial عبارة عن نسخ من مخطوطة مكتبة الفاتيكان.

(٥) المخطوطة ١٤٦٦٠ فى المتحف البريطاني، لندن .

(٦) المخطوطة ١٢١٥٤ فى المتحف البريطاني، لندن .

(٧) المخطوطة ١٤٦٥٩ فى المتحف البريطاني، لندن .

(٨) منشورة من قبل ج. فورلانى G. Furlani، روما، ١٩٣٣ .

(٩) ترجمة نشرها ج. فورلانى G. Furlani،

(١٠) ترجمة نشرها ج. فورلانى G. Furlani، روما، ١٩٣٥ .

(١١) رينان Renan ، راجع أيضا عن الأدب السرياني، لريبانس ديفال.

الفصل الثانى عشر

يعقوب الرهاوى (٦٣٣ - ٧٠٨)

هو ذا الفيلسوف يعقوب الرهاوى الذى نتخيله جالسا وراء الأفق اللازوردى المرصع بأوراق الزهور المتناثرة فى سماواته الرحبة. اللاهوتى ومفسر الكتاب المقدس والنحوى والمؤرخ.

اختار فى كتاباته ذلك النوع من المفردات الرقيقة التى قدم من خلالها أجمل وصف لفجر العالم، والسماء والنجوم والقمر والشمس والهواء والماء والأرض والحيوانات، وأخيرا الإنسان الذى كرس أفكاره لخدمته. كانت لهذا الفيلسوف فكرة عالية للعلم الذى جعل منه محور أعماله.

عاش هذا المعلم الذى تمتع بكفاءة فكرية وعلمية راقية فى القرن السابع فى سوريا، وفى منطقة كانت شاهدا على بداية تحولات سياسية واجتماعية جديدة، أدت إلى تغيرات مهمة. كانت الفتوحات العربية فى بدايتها، وكان صوت الحشود العسكرية يدوى على أراضى هذه المنطقة من كل جانب، سواء كان ذلك من خلال حركات سرايا الجيوش البيزنطية أو من خلال دقات طبول الحرب وأصداء الجزم والسيوف الرنانة التى أدت إلى المزيد من الهزات السياسية والاجتماعية على جميع الأصعدة.

وهكذا فقد نشأت فى سنة ٦٦١ دولة عربية استقرت فى دمشق، تمثلت فى الدولة الأموية التى سعت منذ البداية إلى تسوية المشاكل السياسية والعسكرية، ونشر الإسلام فى الأراضى التى تمكنت من فتحها. عملت هذه الدولة، وخلال قرن كامل،

على تعزيز حدود إمبراطوريتها الواسعة، وتقوية وضعها، من خلال تجهيز سلطتها السياسية بإدارة محكمة.

وقد استند النظام السياسى لهذه الإمبراطورية على النموذج البيزنطى، وشهدت اللغة العربية فى هذه الفترة تطورا مهما، أدى إلى أن تحل هذه اللغة مكان اللغتين الفارسية والإغريقية فى السجلات الحكومية لكى تصبح لغة الدولة الرسمية.

حياة يعقوب الإنسان العلامة

أبصر يعقوب النور سنة ٦٣٣ فى قرية عيندابا الواقعة فى منطقة أنطاكية، ومن المحتمل أن يكون قد تعرف فى مدرسة دير قنسرين على ساويرا سابوخت. وقد قام منذ بداية نشأته بدراسة الكتب المقدسة والفلسفة إضافة إلى تعلمه اللغتين اليونانية والعبرية.

بعد ذلك توجه يعقوب إلى مدرسة مدينة الإسكندرية، وكانت المدرسة تدرس مبادئ وأفكار الفيلسوف أرسطو، ومكثت فى تلك الفترة نشيطة وعلى ازدهارها تحت حكم العرب، كما بقى فيها تأثير الفيلسوف فيلون (٤٩٠-٥٦٦) واضحا فى أجوائها.

بعد أن روًى يعقوب عطشه من ماء العلم وزوَّد روحه برحيق زهوره الغنية، عاد إلى مدينة الرها. وعُيِّن سنة ٦٨٤، أسقفا للمدينة من قبل العلامة بطريرك السريان الأرثوذكس، أثناسيوس البلدى الذى يحتمل أنه كان يمثل أحد زملائه فى دير قنسرين. وتميز يعقوب فى بذل جهد كبير خلال هذه الفترة لمكافحة ظاهرة عدم الانضباط فى أديرة أبرشيته.

على أنه لم يلبث أن ترك مهمته الرعوية بعد أربع سنوات، نظرًا لنشوب خلاف بينه وبين الأكليروس وبطريركه الجديد يوليان الثالث. اختار يعقوب الرهاوى البقاء فى دير القديس يعقوب الواقع فى منطقة كيسوم بالقرب من مدينة سميساط. وكان ينوى فى

الواقع قضاء حياة تقاعدية هانئة هناك، بعيدا عن العالم وصخبه العقيم، ولكنه لم يمكث فى هذا الدير مدة طويلة.

وتوجه بعد ذلك إلى دير أوسيبونا الواقع فى أبرشية مدينة أنطاكية، وقام يعقوب بتعليم اللغة اليونانية والكتاب المقدس فى هذا الدير لمدة إحدى عشرة سنة.

وقد اضطر أمام معارضة بعض الرهبان من دير أوسيبونا المناوئين للثقافة الإغريقية، إلى الانتقال إلى دير تلعدا الكبير المجاور له، وعمل هناك لمدة تسع سنوات.

ولما توفى الأسقف حبيب، الذى كان قد حل مكان يعقوب الرهاوى، أتاح للأسقف يعقوب فرصة استعادة أبرشيته بعد غياب عنها استغرق عشرين سنة.

بعد أربعة أشهر من تسلمه أبرشية مدينة الرها، ذهب إلى دير تلعدا لجلب كتبه التى تركها هناك، لأنه لم يقدر على الابتعاد عنها لفترة طويلة. ووقع مريضا ثم توفى فى سنة ٧٠٨ راحلا إلى العلا، متخذا مكانا له بين نجوم السماء.

يعقوب الإنسان متعدد المواهب

باشر مراجعة ترجمة النسخة السريانية للعهد القديم (البشيتا) مستندا فى عمله هذا على النسخ المحررة باللغتين الإغريقية والعبرية، وقسم الكتاب المقدس إلى فصول وصدر كل فصل منها بمقدمة، وكتب شرحا فى الهوامش. لحسن الحظ نحتفظ اليوم بمخطوطات ترجمته للأسفار الخمسة الأولى للكتاب المقدس، وأيضا لسفرى صموئيل ولأسفار أشعيا ودانيال ومقاطع مختلفة من كتب أخرى.

حرر يعقوب الذى كان يمضى حياة تقاعد وعمل مواعظ مختلفة وليتورجيات عديدة. وكتب سنة ٦٩٢ تاريخاً أكمل فيه الأحداث التى بدأ أوسابيوس القيصرى كتابتها، ولسوء الحظ وصل إلينا هذا التاريخ بحالة رديئة[1] . كما أنه انتهى سنة ٧٠١ من ترجمة المواعظ الكاتدرائية لساويروس الأنطاكى من اليونانية الى السريانية.

وقد قام يعقوب بكل جهد ومثابرة بتأليف أول كتاب معروف عن قواعد اللغة السريانية، حمل عنوان "قواعد لغة بلاد ما بين النهرين". أراد بذلك تثبيت اللغة الأدبية الفصحى، واضعا لها قواعد للإملاء ونظاما للفظ المفردات السريانية، غير أن عمله هذا لم يزودنا إلا بمقاطع صغيرة.

واظب يعقوب على مراسلات واسعة ومهمة، تبادل بواسطتها أفكاره مع أكثر أصدقائه ومعاصريه، وتطرقت رسائله هذه المليئة بالمعرفة إلى مواضيع لاهوتية ونحوية مختلفة. نمتلك اليوم واحدة من هذه الرسائل التى وجهها إلى بولس الأنطاكى، وهى الرسالة التى يعالج فيها بدقة موضوع إصلاح كتابة اللغة السريانية.

أما فى رسالته الموجهة إلى يعقوب السروجى عن الإملاء، فيبدى فيها رغبته فى تطوير اللغة السريانية.[٢] ويلفت الانتباه إلى موضوع إدخال مصطلحات فلسفية يونانية غير معروفة فى اللغة السريانية، لكون هذه المصطلحات غير معروفة أيضا منذ قرن كامل عند كتاب السريان القدامى.

كان يعقوب الرهاوى مهتما جدا بالفلسفة، وتَنْسِب معظم المخطوطات إلى يعقوب الرهاوى ترجمة كتاب المقولات لأرسطو، إلى اللغة السريانية ، كما أن هذا المؤلف العلاّمة قد أعد بحثا مهما عالج فيه المفاهيم والمصطلحات الفنية المستخدمة فى الفلسفة، بعنوان إنكيريديون Enchiridion[٣] . وقد قدم فى هذا البحث شروحا واضحة لمصطلحات مثل "الطبيعة" و"الأقنوم" و"الوجود" و"الشخص" و"الأجناس"، وهى المفردات التى طالما استخدمها آباء الكنيسة.

وقد وضع تعريفا فريدا لمصطلح الجوهر وحدد له كلمة "أوسيا" باللغة السريانية، منتحيا بعمله هذا الأسلوب الذى اتبعه أرسطو فى كتاب المقولات، وكان مطلعا اطلاعا واسعا على المشاكل المتعلقة بأصول الكلمات واشتقاقاتها، وصعوبة نقلها فى الترجمة. ويبدو أنه قد اكتسب، كما يذكر لنا الكاتب فوكاس، كفاءة لغوية متينة أتاحت له إمكانية استحداث مفردات جديدة، معتمدا فى عمله هذا على اللغة الإغريقية.

كتاب هكساميرون Hexaéméron

قام يعقوب فى الفترة الأخيرة من حياته بتأليف كتاب هكساميرون الذى كان يشكل متابعة وتكاملا لبحث علم الإلهيات لكتاب قديم مفقود، وكان هذا الكتاب يتطرق إلى العلة الأولى الخالقة الأزلية والقادرة على كل شىء وغير المخلوقة. ويعتبر هذا الكتاب بحثا لاهوتيا، ناهيك عن أقسام أخرى منه علمية. والواقع أن يعقوب كان إنسانًا يطالع كثيراً، ويتمتع بمعرفة واسعة فى جميع المواضيع العلمية لعصره، كما أنه تبنى جغرافية بطليموس.

يبدأ كتاب هكساميرون(٤) بحوار يجرى بين المؤلف وأحد تلاميذه، وهو قسطنطين أسقف مدينة حمص فى سوريا، والذى أصبح بعد فترة أسقف مدينة الرها .

يتساءل يعقوب فى هذا البحث عن بداية الكون، ويشرح بدقة نص رواية الخلق فى ستة أقسام، هى القدرات السماوية والملائكية، والعناصر الأربعة، والجغرافيا الفيزيائية والبشرية، والشمس والنجوم، والحيوانات، والإنسان المخلوق بعد الحيوانات.

ويتألف الإنسان من عنصرين، هما الجسد والنفس اللذان يشكلان جزءًا واحداً باتحادهما معًا. يقدم لنا يعقوب مقطعا يعرض فيه وصفا لجسم الإنسان، حيث يقول :

" باستطاعتنا القيام بالمقارنة، وإنها عملية مناسبة جدا، يمكننا إذًا مقارنة جسم الإنسان ببرج مرتفع ومتين ومشيد بصلابة على عمودين ممتازين، وهذا البرج يتكون من خمسة طوابق مبنية الواحد منها فوق الآخر، وعلى شاكلة البرج يتكون جسم الإنسان أيضا من خمسة عناصر، هى الأقدام والأطراف والبطن والرقبة والرأس..." (٥)

يستخدم هنا يعقوب الصورة الكلاسيكية للبرج ؛ إنه صعود إلى المعرفة والتدرج الروحي، حيث يعبِّر كل طابق من طوابقها عن مرحلة من مراحل عملية الصعود، ويستمر يعقوب في وصفه مستخدما أسلوبا مجازيا صوريا :

"الطابق الخامس، أى الطابق العلوى هو الرأس. ويقيم الملك فى هذا الطابق الذى يشكل مسكنا مناسبا ومرتبا بعناية فائقة، وجناحا راقيا. والملك الذى أقصده فى وصفى هذا هو العقل، أجل إنه الإنسان. لأن العقل هو الصورة الحقيقية للملك أو الفنان، أى أننى أعنى فيه الله خالق كل شىء، بما فيه الإنسان.

لقد بنى الخالق هذا الطابق فى أعلى الجسم، ومنحه شكلا مستديراً وكرويا مطابقا للشكل الدقيق واللطيف الذى منحه للزهرة أو لأى شجرة مماثلة لها، فى الجزء الذى يقع فوق الجذع ويتحكم فيه. وتوجد فى هذا الطابق سبعة أبواب أو تجاويف، كما يمكننى أن أعبر عن ذلك، وهى الأبواب التى يدخل ويخرج من خلالها الرسل كافة الذين يتوجهون من خارجها إلى الملك أو يخرجون عبرها إلى الخارج. وقد صمم الفنان المعمارى الماهر هذه الأبواب ووضعها على الجوانب الثلاثة لهذا المسكن الملكى"(٦).

لندخل مع يعقوب إلى داخل الطابق الخامس ونكتشف معًا محتوياته :

"داخل هذا الجناح يقوم مسكن العقل ، وأعنى بذلك جناح الملك والإنسان، وهو الجناح الذى غالبا ما تطلق الشعوب عليه بلغتها المألوفة كلمة المخ. ويقع المخ فى وسط الطابق الخامس الذى يحتل الجزء الأعلى من بناية الجسم الذى يحمل تسمية الرأس. (٧)

كان يعقوب الرهاوى، مثله مثل سرجيوس الرأسعينى وساويرا سابوخت اللذين سبقاه فى هذا المجال، مفسرا للكتب ومترجما قديرا، استطاع بممارسته أعماله الفكرية هذه أن يؤثر تأثيرا كبيرا فى ثقافة الكنائس العريقة فى هذه المنطقة من آسيا الصغرى.

هوامش الفصل الثانى عشر

(١) كتاب الأحداث Chroniques، نشره وترجمه إ. و. بروكس E. W. Brooks، باريس، ١٩٠٣ .

(٢) رسالة نشرها سنة ١٨٦٩ فيليبس Philips، لندن، و ب. مارتان P. Martin، باريس.

(٣) إنكيريديون Enchiridion، المخطوطة ١٢١٥٤ فى المتحف البريطانى، ونشر هذا الكتاب ج. فورلانى G. Furlani سنة ١٩٢٨ .

(٤) هكساميرون Hexaémeron، محفوظ فى مخطوطتين، الأولى فى لايد Leyde، والأخرى فى مدينة ليون Lyon. أما المخطوطة الموجودة فى باريس syr. N* 240، فهى قد تكون نسخة جزئية من مخطوطة لايد.نشرها وترجمها باللغة اللاتينية ج. بى. شابو J. B. Chabot و أ. فاشالد A. Vaschalde، CSCO 92، ١٩٢٨و ١٩٣٢ . راجع أيضا ب. مارتان P. Martin، هكساميرون يعقوب الرهاوى L'Hexaémeron d'Edesse، الصحيفة الآسيوية، السلسلة ٨، الجزء الثانى، باريس، ١٨٨٨ .

(٥) ب. مارتان P. Martin، هكساميرون يعقوب الرهاوى L'Hexaémeron de Jacques d'Edesse، الصحيفة الآسيوية، السلسلة ٨، الجزء الثانى، باريس، ١٨٨٨، ص ١٤٤ .

(٦) نفس المصدر السابق، ص ١٤٤ .

(٧) نفس المصدر السابق، ص ١٤٦ .

الفصل الثالث عشر

تيودورس بركوني (القرن السابع)

تيودورس بركوني... كان هذا الإنسان بعيدا جدا عن عصرنا، ومنسيا في ثنايا أزمنته الغابرة. لكننا نشعر فجأة بأن الزمن يتقلص والتاريخ يقصر مساره، فيسطع محياه ببريق العلم والفلسفة.

حياة مكرسة للدراسة

عاش تيودورس بركوني، اللاهوتي والفيلسوف واللغوي، في القرن السابع الميلادي على الأرجح، في عصر الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٥ - ٦٤٥)[١]. عاش في مدينة كشكر الواقعة في بيت أرمايي (بابل القديمة)، وكان ينتمي إلى الكنيسة السريانية الشرقية التي شهدت ازدهاراً واسعاً في المنطقة.

كان كرسي أبرشية مدينة كشكر قديما جدا، حيث إن تاريخه، بحسب المصادر المطلعة، يرقى إلى القرن الرابع الميلادي. يقع الكرسي الأبرشي هذا في المنطقة المقابلة لمدينة واسط الحالية.

ويقدم كتاب التاريخ السعردي[٢] لنا وصفا لتيودورس بركوني، يجمع فيه صفات فيلسوفنا الخاصة به من العلم والحكمة والصبر والإرادة:

"في هذه المدة كان هذا القديس، وهو من أهل كشكر وكان مفسراً بها مدة، ثم أنشأ إسكولا (مدرسة) خارج المدينة، واجتمع إليه المعلمون، وبنى ديراً جليلاً. وكان

يدير الإسكول بنفسه. فلما كثر فيه الناس وشاخ ردّ أمره إلى تلاميذه و أفرد نفسه، وكان يقوم على رجله دائما ويتقوت حشائش الأرض .

وطولب القُسوس والشمامسة فى بلده بالجزية فى أيام عمر بن الخطاب، فأشفق عليهم من ذلك، وقصد عامل تلك الناحية وسأله فى أمورهم، فلما رآه مال إليه وتعجّب مما شاهده من انتفاخ ساقيه من مداومة القيام على رجليه. فأجابه إلى ما سأله وتقدّم برفع الجزية عن الكهنة وكتب لهم بذلك كتابا... مات تيودرس و دفن فى إسكوله ".

يذكر لنا الكاتب عبديشوع الصوباوى (ت ١٣١٨)، الذى يتطرق إلى تيودورس فى كتابه المعنون فهرس المؤلفين بأنه كتب لإخوته الرهبان تاريخا كنسيا وخطابات وإرشادات دينية قدمها لهم، وتركها لنا هدية من خلالهم قبل الالتحاق بليل الأزمنة القديمة الهادئة، ليل الخلود الأزلى.

كتاب السكوليون Scholies

يوجد كتاب السكوليون فى مخطوطتين اثنتين، الأولى محفوظة فى مدينة أورميا، بينما تم حفظ الثانية فى مدينة القوش، كما توجد أيضا نسخ ومقاطع من هذا الكتاب محفوظة فى مدينتى كمبريدج وبرلين. ويتكون هذا الكتاب فى الواقع من مجموعة تنقسم إلى ١١ جزءاً أو ميمرى. هدف الكتاب هو الدفاع عن الديانة المسيحية وتبرير وجودها.

وهناك بعض من أقسامه يحتوى على مواضيع ومادة فلسفية. وتقع شروحات كتاب الأورجانون لأرسطو، المكتوبة على شكل أسئلة وأجوبة فى أجزاء كاملة من الجزء الأول إلى الجزء الثامن. ومن بين هذه المواضيع الفلسفية التى يقوم بدرسها وشرحها : الجوهر والمقولات العشر والنفس والعقل والحرية والإرادة.

يقدم تيودورس تعريفا لمفهوم أوسيًا وهو جوهرالكائن، وهذا التعريف يتطابق مع تعريف الفيلسوف أرسطو. ويعرض تفاصيل هذا التعريف بتقديم خصائص مفهوم أوسيًا كما يلي:

"أوسيًا كلمة إغريقية، وهي تمثل ما ندعوه نحن جوهر الشيء. وهي تعبر عن الوجود المشترك لجوهر بأكمله، ويمكن تعريفها بما يلي: الكينونة الملازمة لذاتها بدون أي نقصان أو زيادة، وهي موجودة كاملة بذاتها ولا تحتاج لأي شيء لإثبات وجودها" (٣).

أطلق أرسطو مصطلح "المقولات" على الأجناس الأكثر عمومية في الوجود، وقدم لنا لذلك قائمة كاملة بهذه المقولات. تبع بركوني خطى أرسطو في موضوع المقولات، وفسرها بأنها المحمولات الأساسية التي يمكن إسنادها إلى كل موضوع. إنها الأجناس المهمة التي تحيط بجميع الموجودات، وعددها تسعة. هذه المقولات تمثل الجوانب الأساسية للتفكير وللاستدلال، وهي أيضا القوانين الأولية لتحديد صورة المعرفة والمقولات بالنسبة لبركوني تنقسم إلى أنوا ع، كما يذكر ذلك في كتاباته:

"المقولة، أعني بهذا المصطلح مفردات بسيطة تدل على شيء، وتنطبق كل واحدة منها بصورة عامة على الجنس وخواصه التابعة له. وهناك تسع مفردات عرضية : (١)الكمية، (٢) الكيفية، (٣) العلاقة، (٤) المكان، (٥) الزمان، (٦) الوضعية، (٧) يوجد، (٨) يعمل، (٩) يتعذب"(٤).

يرى تيودورس بركوني في الإنسان كائنا متكونا من جسد ونفس، وهو يعرض لقدرات الجسد التي تمثل أساس تكوينه، ثم يتطرق إلى النفس ويقول :

" تنقسم النفس هي أيضا إلى قسمين، الحيوي والعقلاني. وينضم إلى هذه القدرة الحيوية، كما يقول لنا الفلاسفة، شيئان اثنان هما قوة الغضب والشهوة. كما ترتبط بالقوة العقلانية أيضا الإرادة والحرية، وتملك أيضا أربع عمليات خاصة وهي، الذكاء والإدراك والفكر والروح" (٥).

يميز تيودورس بين الحرية التى يعبر عنها بأنها تمثل ظاهرة العقل كالإدراك وبين الفكر والعقل والإرادة ويقول :

"ما الفرق بين المعرفة والفكر والتبصر والعقل والحرية والإرادة ؟"

يجيب الفيلسوف هكذا :

"كل هذه الأشياء هى نتاج العمل العقلانى، وبذلك تعرف الفوارق الموجودة بين الأشياء عن طريق المعرفة التى يمكن بواسطتها معرفة الطبائع واختلافها عن الطبائع، والقدرات عن القدرات.

بالقابلية العقلية نعرف أننا كائنات ناطقة، القوة العقلية هى التى تعطى هذه القدرة، وبها تستعين المعرفة فى اختيار وتوفير الأشياء العامة. الحرية هى الإمكانية الحرة للعقل التى تنجم عنها الحرية بجميع أشكالها كافة . مهما كان البعض يميزون بينها، فإن الفكر والإدراك هما شىء واحد وذلك بواسطة القدرة."(٦).

الإرادة وحرية الاختيار هما الثمرة الناتجة عن حرية العقل حسب رأى بركونى. كان تيودورس هائما بالفلسفة يمتلك فكرا ثاقبا وعميقا، كانت الفلسفة بالنسبة له الجوع والعطش، وكانت تمثل حياته وآماله، لأنها كانت تتطرق إلى الوجود، وهى تشكل علما شاملا.

ها هى الريح الساخنة والمتوهجة تبتعد حاملة معها صوت العلامة القديم، صوت بركونى الذى صدح وما زال يصدح بعلمه الوافر، عبر وديان وجبال بلاد ما بين النهرين سنوات وسنوات طويلة.

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) يذكر كتاب السكوليين Scholies ، فى نهاية المقطع رقم ٩، الملاحظة التالية : "تم إنهاء هذا الكتاب بعون الرب، الذى أسميته كتاب السكوليس... والذى ألفه مار تثيودورس ، عالم بلد كشكر، سنة ١١٠٣ من تقويم الإسكندرية، ٧٩٢م) لأخوته الرهبان". ولا تذكر المخطوطات الأخرى هذا التاريخ. فهل أضافها أحد الناسخين ؟ فى المقطع رقم ١٠، يذكر المؤلف بشكل صريح ما يلى : "لقد ظهر المسيح قبل ٦٠٠ سنة". لذلك فإننى قد اخترت هذا التاريخ الأخير.

(٢) التاريخ السعردى Histoire Nestorienne inédite منشور من قبل المطران أداى شير Addai Scher، دار نشر بريبولس Brepols، ١٩٨١، الجزء الثانى، ص ٢٧٨ .

(٣) ر. هيسبيل R.Hespel و ر. دراغية R.Draguet، وتيودورس بركونى Théodore BarKoni، كتاب السكوليين Livre des Scholies، الجزء الثانى، CSCO، السريان، ١٨٨ الجزء ٧-١١، ١٩٨٢ .

(٤) نفس المصدر السابق، الجزء ٦-١٧ .

(٥) ر. هيسبيل R.Hespel و ر. دراغية R.Draguet، وتيودورس بركونى Théodore BarKoni، كتاب السكوليين Livre des Scholies، CSCO، السريان، ١٨٧ الجزء الأول، ١٩٨١، الجزء ١-٥١ .

(٦) نفس المصدر السابق، الجزء ١-٤٠ .

الفصل الرابع عشر

حنانيشوع (ت ٦٩٣) والحكماء الآخرون

وجوه منزوية مسح الزمن ملامحها، أنفاس لاهثة أوهنتها آلام الدروب الطويلة، غير أن أحلام رجال العلم والحكمة قادرة على الوصول إلى المسافات البعيدة، من خلال صدى أعمالها الذى يتردد رنينه بدون انقطاع فى أعماق أرواحنا المتطلعة إلى لقائهم عبر صفحات كتبهم الغنية.

عاش حنانيشوع الأول الملقب بالأعرج، والمعروف بغزارة معارفه وشغفه الكبير بالفلسفة والفلاسفة، فى الزمن الذى اشتهر فيه اسم العرب. واختير حوالى سنة ٦٨٦ بطريركًا للكنيسة الشرقية، على كرسى مدينة ساليق وقطيسفون.

ولكن تمكن معارضه يوحنا دسنايا، أسقف مدينة الرها، وصديق الخليفة الأموى عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥)، من إقصائه عن منصبه ووضعه فى غياهب السجن.

التجأ حنانيشوع عندئذ إلى دير يونان الواقع قرب مدينة الموصل، شمال العراق (يدعى هذا المكان اليوم دير النبى يونس)، ومكث هناك إلى أن توفى غريمه يوحنا، أى بعد اثنين وعشرين شهرا من إبعاده القسرى. وتمكن عندئذ من استرداد كرسيه البطريركى، ولكنه لم يتمكن من بسط إدارته إلا على أبرشيات الشمال، فى مدن مثل نصيبين والموصل وبيت كرمايى (منطقة كركوك)، وتوفى سنة ٦٩٣ . على أن إيليا النصيبينى يذكر لنا أن حنانيشوع لفظ أنفاسه سنه ٧٠١ ودفن فى دير النبى يونس.

وقد اكتُشف قبره بعد قرون طويلة سنة ١٣٤٩ ميلادية، وقد أدى هذا الاكتشاف إلى جذب انتباه جماهير غفيرة بجلته تبجيلا كبيراً، معتقدة أن الأمر يتعلق بقبر النبى يونس.

يذكر لنا الكاتب السرياني المعروف صليبا بن يوحنا (المولود سنة ١٣١٥) ومؤلف كتب الأسرار، أن حنانيشوع كتب ٤٧ عملا متنوعا، ضمنها الكثير من المواعظ الدينية والخطب والرسائل والأحكام القانونية. وتشمل أعماله أيضا بحثا بعنوان "حول الدور المزدوج للمدرسة" يعنى بذلك تعليم الأخلاق والآداب اللغوية.

وقد ألف حنانيشوع، نتيجة اهتمامه واعتماده على الفكر الإغريقي ومعرفته الواسعة بتياراته الفلسفية المختلفة، شرحاً مهما لكتاب القياس الذى كتبه الفيلسوف أرسطو.[1] على أن هذا الكتاب الثمين قد تعرض لسوء الحظ للضياع، وقد تحدث كتاب فهرس المؤلفين الشهير الذى أعده الكاتب عبديشوع الصوباوى، عن هذا البحث بشكل صريح وواضح.

ويتطرق عبديشوع فى فهرسه هذا إلى عدة مؤلفين من السريان الشرقيين (النساطرة) الذين درسوا الفلسفة واهتموا بالمنطق ومنهم :

– آبا الثانى (٧٤١ – ٧٥١) الذى كتب براهين مختلفة ورسائل متعددة، وقدم شرحا فى المنطق وفى المواضيع الجدلية، ويذكره أيضا المؤرخ مارى بن سليمان.

"درس آبا بن بريخ صبيانيه، الذى نشأ فى مدينة كشكر، فى مدرسة قطيسفون (المدائن) وقام بشرح اللاهوت وبعض كتب المنطق وأنجز بعض التراجم"[2] .

– إيشوع بخت، أسقف رو أردشير، فى نهاية القرن الثامن، الذى قام بتأليف كتب قانونية وكتاب عن الكون وآخر عن معايير الأرصاد الجوية. وقد اهتم هذا الكاتب أيضا بموضوع المنطق الأرسطوطالى.

– إيشوع دناح، أسقف مدينة البصرة (حوالى نهاية القرن الثامن)، الذى كتب مواعظ دينية مختلفة وخطابات موزونة ومقدمة تطرق فيها إلى علم المنطق[3] .

يقول عبديشوع الصوباوى عن إيشوع دناح، الذى أطلق البعض عليه أيضا اسم هيباس، والذى عاش حوالى سنة ٨٥٠ :

" أنجز هذا الكاتب شرحا عن منطق أرسطو، الرجل العظيم"[4] .

كتب دناح أيضا مواعظ وشروحاً تطرق فيها إلى موضوع الجدلية الذى كان يمثل فى تلك المرحلة مفتاحا دقيقا من مفاتيح الفلسفة.

نقل هؤلاء العلماء النوابغ الفلسفة الإغريقية إلى العرب، وساهموا مساهمة فعالة فى تطوير الحضارة العربية بتراجمهم التى لا بد وأن يكون الفلاسفة العرب قد نهلوا من رحيقها العذب.

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) السمعانى Assemani، المكتبة الشرقية B.O، الجزء الثالث، الفصل ١، ص ١٥٤ .

(٢) مارى بن سليمان، كتاب البرج Le livre de la Tour، هـ. جيسموندى H. Gismondi، روما، ١٨٩٦-١٨٩٩، ص ٦٦ . راجع أيضا المكتبة الشرقية B.O، الجز الثالث، الفصل ١، ص ١٥٤ و ١٥٧ .

(٣) عبديشوع الصوباوى، كتاب فهرس المؤلفين،المكتبة الشرقية B.O، الجزء الثالث، الفصل ١، ص ١٩٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه، الفصل ١، ص ١٧٥، روما، ١٧١٩-١٧٢٨ . نشره وترجمه إلى اللغة العربية جوزيف حبى، بغداد، ١٩٨٦، ص ٩١ .

القسم الرابع

الفلاسفة السريان فى عهد العباسيين

الفصل الخامس عشر
انطلاقة فلسفية جديدة تحت حكم العباسيين

ريح عاصفة تهب على أرض بلاد ما بين النهرين، سماء زرقاء غامقة وغيوم سحرية تنطلق على امتداد مساحاتها الشاسعة. وميض وبرق خاطف، فينطوى جزء من كتاب التاريخ الكبير، وتتحول أبعاده المتداخلة لتدخل فى جزء آخر أكثر اتساعا من نفس هذا التاريخ الأول.

تمكنت سلالة حضرية أسسها رجل حمل اسم "أبو العباس"، من الإطاحة بآخر خلفاء الدولة الأموية مروان الثانى، لكى يتولى أمور الخلافة سنة ٧٥٠ . ثم تتابعت الأحداث كما تتتابع مقاطع سيمفونية موسيقية جديدة تغطى نغماتها أجواءها، تغير كل شىء، وبدأ مع بداية السلالة العباسية عصر جديد.

أقام أبو العباس الملقب بالسفاح (٧٥٠-٧٥٤) فى مدينة الكوفة فى بداية عهده، ثم فى مدينة الأنبار بعد ذلك، إلى أن استدار ووجه أنظاره نحو الشرق.

على أن ثانى خلفاء العباسيين، الملقب بالمنصور (٧٥٤-٧٧٥)، هو الذى شيَّد أخيرا سنة ٧٦٢ مدينة بغداد، التى اختار لها موقعا متميزا فى وادى نهر دجلة، تلك المدينة المستديرة، مدينة السلام التى حلَّت محل قرية كانت تحمل اسم بغداد، ونقل مركزالخلافة إلى هذه المدينة الجديدة. وهو هذا الإنسان الكريم والمعتدل، الذى اشتهر بالتشدد أحيانا تجاه المسيحيين والمسلمين على حد سواء، والذى ما لبث أن اشتهر أيضا بحبه لعلم الكيمياء وعلم الفلك والفلسفة.

كان للمسيحيين الذين وُجدوا فى حاشية الخلفاء العباسيين الأوائل، بأعداد غير قليلة فى بلاد ما بين النهرين، مكانة مهمة. وقد لعبوا نتيجة لثقافتهم العالية وكفاءاتهم المتينة، أدوارا شغلوا فيها مناصب الأطباء وأمانة السر وغيرها من الوظائف الرفيعة. وقد تمكن البعض منهم، الذين حازوا أرفع المكافآت من الخلفاء العباسيين سادة بغداد، نتيجة تكريمهم، من جنى ثروات طائلة، وكان كثير من العرب يحسدوهم عليها وعلى المكانة التى وصلوا إليها.

كان العديد من العلماء والأدباء يعملون فى حاشية الخليفة المنصور، وقد قام هذا الخليفة المشهور، بإرسال دعوة سنة ٧٦٥ إلى الطبيب النسطورى الكبير، جرجيس بن بختيشوع الذى كان يعمل عندئذ مديراً لمدرسة جنديسابور، لكى يعمل فى مدينة بغداد بصفة طبيب الخليفة الخاص. لم يمكث جرجيس طويلا فى حاشية الخليفة إذ إنه ما لبث أن كلَّف تلميذه إبراهيم بالمهمة، وكان هو أيضا واحداً من الأطباء السريان.

بدأ الخليفة المنصور خلال فترة حكمه، بالتدشين الحقيقى لعملية الترجمة، وباشر توظيف المترجمين فى حاشيته لكى تصبح هذه المهنة شيئا فشيئا (وظيفة) من وظائف الدولة. غير أن الكتب اليونانية والتجهيزات العلمية الضرورية كانت تنقصه لأداء مثل هذه المهمة بالشكل المطلوب. لذلك، فقد قام، كما تقتضى العادة، بإيفاد بعثة إلى مدينة القسطنطينية، راجياً فيها من الإمبراطور البيزنطى تزويده ببعض الكتب. وطلب الخليفة عندئذ من المترجمين إنجاز ترجمة لهذه الكتب إلى اللغة العربية.

يذكر المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) فى مقدمته المشهورة هذه العملية، ويقدم تفاصيل أمينة عن بداية ترجمة الكتب اليونانية إلى اللغة العربية بأمر من الخليفة العباسى المنصور، فيقول إنه منذ أن تبنَّى العرب ثقافة حضرية أبدوا الرغبة فى الاطلاع على العلوم الفلسفية التى كانوا قد سمعوا عنها من خلال الأساقفة والكهنة ورعاياهم المسيحيين. ولأجله طلب المنصور من إمبراطور بيزنطة تزويده بنسخ من كتب الرياضيات. أرسل له الإمبراطور كتاب إقليدوس وبعض كتب الفيزياء. وانكبَّ المسلمون على دراسة هذه الكتب، مما زاد من شوقهم لمعرفة المزيد.(١)

ازداد عدد العلماء قبل نهاية القرن الثامن وفى القرن التاسع الميلادى زيادة كبيرة، وبلغ عدد المترجمين فى بغداد خمسين مترجما سريانيا، واصلوا العمل الذى بدأه الفليسوفان بروبا وسرجيوس الرأسعينى فى إنجاز الخلاصات الفكرية والشروحات الفلسفية، وإبداع قاموس للمصطلحات المترجمة.

وأصبح المارونى تيوفيلوس الرهاوى (٧٨٥) فلكيا مميزا لدى الخليفة المهدى، وقام بنقل كتب الإلياذة والأوديسة لهوميروس إلى اللغة السريانية، كما ترجم إلى اللغة السريانية أيضا كتاب الحكمة المموهة للفيلسوف أرسطو(٢). وقام الكاتب السريانى سلاَّم الأبرش بترجمة كتاب الفيزياء لأرسطو.

يكفى أن أذكر فى هذا المجال بعضا من أسماء العلماء السريان الذين عملوا لدى الخلفاء العباسيين فى مختلف مجالات الترجمة والتحرير:

ابن شهدة الكرخى الذى ترجم كتاب أبقراط وثلاثة بحوث للكاتب جالينوس.

أيوب الأبرص الرهاوى الذى ترجم من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية ٣٥ بحثا للكاتب جالينوس.

ثابت بن القمع، الذى ترجم بحثا للكاتب جالينوس.

شملى الذى ترجم أيضا بحثا لجالينوس.

يوحنا بن يوسف الذى ترجم واحدا من كتب الفيلسوف أفلاطون.

إبراهيم بن السلط الذى ترجم بحثين لجالينوس والقسم الأول من تفسير ثيميستوس عن كتاب الفيزياء لأرسطو.

وأعطى مؤلفو الفهارس والمؤرخون العرب قوائم كاملة بأسماء هؤلاء المترجمين الذين أدوا دوراً مهما فى حقل الترجمة، وأتاحوا بعملهم هذا وصول التراث الإغريقى إلى العالم العربى.

المؤرخ الأول الذى تطرق للعلماء والمترجمين السريان، والذى شهد على وجودهم الواسع، هو ابن جلجل (٩٤٣-٩٩٤) الذى مارس مهنة الطب فى الأندلس، والذى ذكر هؤلاء العلماء السريان فى كتابه المشهور طبقات الأطباء والحكماء.

وكان ابن النديم المتوفى نحو سنة ١٠٠٠ميلادية ابن بائع كتب ومستنسخ فى مدينة بغداد، وقد زودنا سنة ٩٨٧، فى قائمته البيليوجرافية الكبيرة التى تحمل اسم "كتاب الفهرست" ، بمعلومات قيِّمة عن الكُتَّاب والمترجمين السريان الذين كانوا يتقنون اللغة العربية .

جمال الدين القفطى (١١٧٢- ١٢٤٨)، الكاتب العربى الذى ولد ونشأ فى مدينة قفط الواقعة فى أعالى مصر، يشهد هو الآخر على الدور المهم الذى لعبه العلماء والمترجمون السريان فى تطوير الحضارة العربية. وقد كرس القفطى سنوات كاملة من عمره فى الدراسة والبحث، وقد عُيِّن سنة ١٢٣٦ وزيراً من قبل الملك الأيوبى العزيز، وقام عندئذ بتأليف إخبار العلماء بأخبار الحكماء الذى جمع فى صفحاته عدداً وصل إلى ٤١٤ سيرة لأطباء وفلاسفة .

كما أن الكاتب المعروف ابن أبى أصيبعة (١١٩٤- ١٢٧٠) استوحى هو الآخر معلوماته من كتاب ابن جلجل. تعلم هذا الكاتب المولود فى مدينة دمشق وسط عائلة من الأطباء مهنة الطب، ومارسها فى مسقط رأسه وفى مدينة القاهرة، وتوفى فى سنة ١٢٧٠ميلادية. نظم أشعاراً وكتب أعمالا طبية متعددة وأنصف الفلاسفةَ والعلماءَ السريان، وامتدحهم فى كتابه الرئيسى الذى اشتهر به، والذى حمل عنوانه اسم عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. وقد جمع هذا الكتاب عددا وصل إلى ٣٨٠ سيرة مصنفة بحسب البلدان والأجيال. وقد كرس الفصل الثامن من هذا الكتاب للعلماء والمترجمين السريان، ويمكننا بفضل هؤلاء البيليوجرافيين العرب، معرفة مستوى المساهمة الفلسفية وجهود الترجمة التى قاموا بها من اللغتين اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية.

كان العلماء السريان يعملون خلال هذه المرحلة التاريخية بهدوء وسلام، وقد عرفت الكنيسة السريانية الشرقية (النسطورية) فى نهاية القرن الثامن فترة استقرار وازدهار مهمة. ووصلت هذه الفترة إلى أوجها فى عهد الجاثاليق طيماثاوس الكبير، رمز الذكاء، الرجل الجليل والزاهد الذى يعتبر مثالا للحكمة الرفيعة فى فضاءات الذاكرة السريانية المشرقة.

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) المقدمة ، انظر الترجمة الفرنسية ف. مونتى V. Monteil، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٠٤ .

(٢) المخطوطة الباريسية Parisinus ar، ٢٣٤٦ (القرن الحادى عشر)، راجع المكتبة الوطنية.

الفصل السادس عشر
طيماثاوس الأول صديق الخلفاء (٧٢٧-٨٢٠)

طيماثاوس، أيها الإنسان الذى عشق كتابة الرسائل بدون أى كلل أو ملل، نرجوك أن تروى على ورثتك قصة العين النابعة من جنة عدن والمتفرعة إلى أربع أذرع، يا دُرَّة الشرق الناصعة ولؤلؤتها المطمورة فى أعماق البحار.

شخصية طيماثاوس

أبصر طيماثاوس النور فى إحدى القرى الجبلية الواقعة قرب مدينة أربيل الشمالية، وكانت عائلته الساكنة فى مدينة حزَّة تحظى بنوع من الاعتبار الاجتماعى المتميز. وقد اهتم عمُّه شقيق أبيه، كيوركيس أسقف مدينة بيت بغاش، بمهمة تربيته عندما كان صبيا صغيرا، واصطحبه معه فى صباح أحد الأيام إلى مدرسة باكوش فى منطقة المرج ليبدأ دراسته فيها.

واستُقبل الصبى طيماثاوس من قبل "إبراهيم المفسر"، الأستاذ المشهور فى هذه المدرسة حينئذ. وبقى فى هذه المدرسة السريانية يدرس فى صفوفها سنوات طويلة، وقام أستاذه بتدريسه الكتاب المقدس ومواضيع الطقوس والشعائر الدينية (الليتورجيا) واللغة العربية واللغة اليونانية، وكان يحثه على قراءة مؤلفات آباء الكنيسة وترجمة كتاباتهم. وأدى عمله هذا إلى فتح ذهن تلميذه على آفاق فلسفة أرسطو، ودراسة علم المنطق.

كان لطيماثاوس عدة زملاء يرتادون معه مدرسة باكوش، ويتمثل أولهم في زميل دراسته أبو نوح الأنباري من مدينة الأنبار الواقعة على ضفاف نهر الفرات (في العراق حاليا)، أما زميله الثاني فهو إيشوع برنون الذي تعرضت علاقة طيماثاوس به فيما بعد إلى بعض الصعوبات. وكان لطيماثاوس أيضا زميل ثالث، هو سركيس الذي وجه معظم رسائله إليه.

عاد طيماثاوس بعد انتهاء دراسته إلى عمه الطاعن في السن، والذي أراد التخلي لصالحه عن كرسي أبرشيته في بيت بغاش. وقد رُسم طيماثاوس أسقفا على بيت بغاش سنة ٧٦٩ بفضل التأثير الذي مارسه صديقه أبو نوح الأنباري الذي كان قد تولى منصب كاتم أسرار أبي موسى بن مصعب، والي مدينة الموصل، وقد أعفى الوالي العربي أبرشيته من دفع الضرائب الحكومية. ويسرد علينا المؤرخ السرياني ماري بن سليمان الذي عاش في القرن الثاني عشر، هذه الأحداث معلقا عليها :

" طيماثاوس الجاثاليق من وجوه أهل حزّة، عالم ملفان، وصار أسقفا على بابغاش، وكان أبو موسى بن مصعب واليا على الموصل وأبو نوح الأنباري كاتبه، فأحسن إلى النصارى، واختص بمحبة طيماثاوس ورد إليه جباية خراج كرسيه "(١) .

ومرت بضع سنوات على هذه الفترة المستقرة، وحدث أن توفي الجاثاليق حنانيشوع الثاني سنة ٧٧٨ . وهكذا أضيف اسم طيماثاوس إلى قائمة المرشحين لكرسي ساليق – قطيسفون، نظراً لامتلاكه شخصية قوية وغنية في سلوكه ومعارفه، والتي جعلته محط الأنظار.

وقد اختير لهذا المنصب بتاريخ ٧ أيار (مايو) سنة ٧٨٠ بعد تمكنه من التخلص بمهارة مشهودة من الدسائس العديدة التي كانت تحاك ضده خلف الكواليس، وبعد مناورات طويلة من الأخذ والرد. وقد وجه بهذه المناسبة شكراً خاصا لأبي موسى بن مصعب على الدعم الذي قدمه له في هذا الشأن. غير أن منافسه أفرام – رئيس أساقفة مدينة جنديسابور – رفض الاعتراف بالجاثاليق الجديد، وسانده في ذلك جميع أنصاره الذين وقفوا معه في رفضه هذا. تدخل في المفاوضات الطبيب المسيحي عيسى

المكنّى أبا قريش، والذى كان يعمل بوظيفة الطبيب الخاص للخليفة العباسى المهدى. تمت المصالحة أخيرا بين طيماثاوس وأفرام، بعد خصام دام مدة سنتين كاملتين.

دعا طيماثاوس المطارنة والأساقفة لعقد أول مجمع (سينودس) سنة ٧٨١ وعقبه مجمع ثان سنة ٧٩٠ ، وقد قام بنقل مقر البطريركية من مدينة سلوق- قطيسفون إلى مدينة بغداد ليكون بذلك قريبا من السلطة السياسية، وكانت العاصمة الجديدة والأنيقة قد أصبحت فى تلك الفترة مدينة غنية بقصورها الفخمة التى كانت تمتد صعودا نحو السماء من خلال مناراتها الرفيعة وحدائقها الغنّاء.

عرف طيماثاوس أثناء فترة بطريركيته الطويلة أربعة خلفاء عباسيين، واستطاع خلال هذه الفترة التمتع أولا بثقة واحترام الخليفة المهدى (٧٧٥-٧٨٥) الذى كان كثيرا ما يلتقى به ويتحاور معه فى العديد من الأمور الدنيوية والدينية.

كتب أحد المؤرخين السريان فى القرن الرابع عشر، المدعو صليوا بر يوحنا، سيرة طيماثاوس فى كتابه الذى حمل عنوان كتاب الأسرار المعروف بكتاب الجدل، حيث قدم فيه وصفا جميلا عن هذا الإنسان الذى تمتع بمهارة فى التعامل مع قادة البلاد، لذا حظى بامتياز خاص لدى أهم الخلفاء العباسيين وأبرزهم :

"كان هذا الأب شيخا عالما فاضلا حيويا فى الأمور من وجوه أهل حزّة ... وكان مكرما عند الخلفاء و الملوك لكثرة علمه وفضائله، وحسن أجوبته عن المسائل التى كانوا يرمون بها إليه، و يضادونه بها فى الدين و الاعتقاد وغير ذلك. و كان الخليفة ...فى أكثر الأيام يستدعيه إليه ويحاوره فى الدين ويبحث معه ويناظره فى أشياء كثيرة، ويطرح عليه كثيرا من المسائل المشكلات والإيرادات المفحمات، و كان يجيب عن جميعها بأجوبة قاطعة و مسكتة"[٢].

يتحدث الجاثاليق فى رسالة شهيرة، هى الرسالة ٥٩، عن مناقشة طويلة أجراها مع أمير المؤمنين، استعرض خلالها مبادئ العقيدة المسيحية التى دافع عنها بدقة وبدون أن يظهر فيها أى تنازل أمام الإسلام، وبدون أن يجرح أيضا شعور الخليفة المهدى.

وقد كان الخليفة المهدى الذى اشتهر بروح تميزت بحب الاطلاع والحرص على البحث عن الحكمة، يولى اهتماما خاصا بالنشاط الأدبى والعلمى خلال فترة حكمه. وعمل على تطوير حركة ترجمة المؤلفات من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية.

كان طيماثاوس يتمتع بإمكانية الدخول إلى بلاط الخلافة العباسية، وكان يتمتع أيضا بحماية خيزران زوجة الخليفة، الزوجة المفضلة لدى الخليفة المهدى.

ما العلاقات التى ربطت بين الجاثاليق والخليفة العباسى الهادى (٧٨٥-٧٨٦) عند صعوده إلى عرش الخلافة العباسية ؟ لا تتوفر لدينا معلومات كافية عن مثل هذه العلاقة. فالخليفة الهادى كان مشهورا بقسوته وثقته الشديدة بنفسه وبتكبره، ولكنه كان مع ذلك رجلا مثقفا وشغوفا بالآداب. كانت فترة ولايته قصيرة لأنه توفى، بحسب الروايات المختلفة، مخنوقا أو مسموما.

ثم تربع الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩)، أخو الخليفة الراحل الهادى، بكل زهو وبهاء على عرش الدولة العباسية. أحاط خليفة حكايات ألف ليلة وليلة، هذا الذى تميزت خلافته بالبأس التام والعظمة، أحاط نفسه بوزراء مثل جعفر البرمكى، الفارسى المشهور والمولع بالدراسات الإغريقية التى اشتهر تدريسها فى بلاد فارس منذ عهد الملك كسرى أنوشروان. كانت أجمل حديقة بالنسبة لهذا الوزير المثقف، تتمثل فى خزانة مليئة بالكتب.

فى وسط هذه الأجواء للخلافة العباسية المزدهرة، قام الخليفة العباسى هارون الرشيد، الذى كان شخصا متبصرا، بتمويل وإنشاء مكتبة العباسيين المشهورة، التى عرفت بخزانة الحكمة والتى اكتنزت رفوفها المتعددة مخطوطات إغريقية لا بد وأن يكون جمعها قد أدى إلى بذل مبالغ كبيرة لم تضع هباء، لأنها فتحت الأبواب واسعة أمام حركة الترجمة التى شهدت أوج انطلاقتها فى عهد العباسيين لتستمر سنوات طويلة.

اكتسب طيماثاوس مكانة عالية فى عهد الخليفة هارون الرشيد، وكان يتمتع بحماية من قبل أطباء أقوياء مثل أبى قريش عيسى الذى كان منتميا إلى حاشية

الخليفة المهدى وجبرائيل بختيشوع. واستفاد استفادة متميزة من اهتمام الخليفة وزوجته زبيدة اللذين أحاطاه شخصيا بالرعاية وحسن المعاملة.

يحدثنا مارى بن سليمان عن الملكة زبيدة، السيدة الوقورة وصاحبة النفوذ القوى التى حصلت على رخصة إعادة إعمار دير من أديرة المسيحيين الكبرى، قد يكون دير كيليشو الذى كان البطاركة يقيمون فيه :

"كانت زبيدة أم الأمين تكرم طيماثاوس كثيراً وتميل إلى النصارى وتستخدمهم، وأخرجت توقيع الرشيد بإعادة المستهدم من الدير و توسيعه، وعملت أعلام الشعانين وصلباناً من ذهب و فضة، وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع بها وعضدت جبرائيل الطبيب فى خطابه فى ذلك"[٣].

ويذكر لنا مارى بن سليمان أن طيماثاوس قد يكون ذلك الشخص الذى أنقذ الملكة زبيدة من الطلاق بفضل تمكنه من إعداد استراتيجية قانونية محكمة، وقد تمتع لذلك بتقدير عال من قبل الملكة التى مدت له يد العون فى إنجاز مشاريعه وتلبية احتياجاته[٤].

استمر هارون الرشيد فى متابعة حروبه مع البيزنطيين، وتمكن من إنجاز انتصارات عسكرية تمكن من تحقيقها فى مناطق آسيا الصغرى. وكان طيماثاوس يرافقه فى بعض الأحيان فى غزواته المختلفة[٥].

وأصدر الخليفة هارون الرشيد، بعد تعرض جيوشه للهزيمة من قبل الإمبراطور نيسيفور سنة ٨٠٦، أمراً فرض بموجبه على الذميِّين ارتداء علامات فارقة توضع على ملابسهم لتمييزهم عن الآخرين. غير أنه لم يلبث أن ألغى هذا الأمر حال عودته إلى بغداد، بعد أن تدخل لديه بمهارة طبيبه النسطورى جبرائيل بن بختيشوع بهذا الشأن، ويتكلم عن هذا الحدث كتاب المجدل لمارى بن سليمان :

"وتقلد هارون الرشيد وألبس أهل الذمة الغيار، فدخل إليه جبرائيل بن بختيشوع الطبيب، بطيلسان مصبوغ، فأنكر ذلك عليه فقال : أنا أحد أهل الذمة ولا يجوز أن أخالف زيهم. فاستحسن ذلك من قوله ورفع ذلك عن النصارى"[٦].

ساعد الطبيب جبرائيل طيماثاوس في مختلف أموره، وقد كتب الجاثاليق معلقا على هذه المساعدات، في إحدى رسائله:

"كان جبرائيل بالنسبة لي عند باب ملكنا المظفر، يداً وشفاهاً ولساناً، بل وأكثر من ذلك، فقد كان ضميرا وعقلا ذكيا. كان جبرائيل كل هذا بالنسبة لي وبالنسبة للكنيسة الجاثاليقية، ليحفظه الله ويزدْ من عمر حياته المديدة وعمر الملك المنتصر"(٧).

وكان جبرائيل قد اتخذ حظيات له، فلامه البطريرك على ذلك بشكل حازم.

وتوفي الخليفة هارون الرشيد بعد سنوات قليلة في طوس، المدينة الواقعة في خراسان، ودفن هناك. وكان بجانبه حينذاك أحد أولاده وهو المأمون، الذي تسلّم السلطة بعده في خراسان، وفي الوقت نفسه تسلم السلطة في بغداد ابن الخليفة هارون الرشيد والملكة زبيدة، أبو الموسى محمد الذي اتخذ لقب الأمين اسما له (٨٠٩-٨١٣). وحاول الاستئثار بالحكم وحده. وكان الخليفة الأمين مشهورا بالمعاصي وقلة الحياء والإسراف وعدم التبصر، وأرسل بعد مدة مجموعة من الجنود لمحاربة أخيه المأمون. وها قد تعرض للاندحار من قبل أخيه المأمون وقُتل على يد جيشه. وتسلم المأمون عندئذ زمام السلطة (٨١٣-٨٣٣) وأصبح خليفة الدولة العباسية الأكثر شهرة بعد أبيه هارون الرشيد. يقول الكاتب ماري بن سليمان، فيما بعد، وهو يتطرق للمأمون :

"وملك المأمون في سنة أربع ومائتين(هجرية) وكان يميل إلى النصارى" (٨).

وقد عاش الجاثاليق وشهد بداية عهد الخليفة المأمون.

مؤلفات طيماثاوس

يعود فضل معرفتنا لقائمة مؤلفات طيماثاوس إلى كتاب فهرس المؤلفين الذي حرره الكاتب عبديشوع الصوباوي .

"عمل طيماثاوس كتاب الكواكب، ومناظرة مع المهدي و كتاب الأحكام الكنسية، ومجلدات مجمعية، وله زهاء مائتي رسالة مرتبة في مجلدين، و مسائل في كتاب واحد، ومناظرة مع الكفرة"(٩).

وللأسف لم يُعثر على العديد من هذه الكتابات والرسائل.

وصلتنا من مجموعة مؤلفاته الغزيرة فقط تسع وخمسون رسالة فى مجلدين، وهى محفوظة فى مخطوطة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر فى دير السيدة حافظة الزروع الواقع بالقرب من مدينة القوش فى العراق(١٠). ولم تُرتَّب ولم تُبوَّب الرسائل الفلسفية واللاهوتية والقانونية والرعوية بحسب التسلسل التاريخى، وهى موجهة فى أغلب الأحيان إلى زميله سركيس مدير مدرسة باشوش، وإلى ميتروبوليت مدينة عيلام، إضافة إلى بعض الأصدقاء والرهبان.

وقد طَبَع قسمًا من هذه الرسائل التى يبلغ عددها ٣٩ رسالة وترجمها من اللغة السريانية إلى اللغة اللاتينية – السيد أو براون O. Braun، فى باريس بين سنتى ١٩١٤ و١٩١٥ .

كما نُشرت ٣٨ رسالة فى الهند استنادا إلى مخطوطة يعود تاريخها إلى سنة ١٨٩٧، كان قد نسخها فى مدينة القوش الكاتب عيسى بن أشعيا بن الشماس الإنجيلى قيرياقوس من قرية أقرور، وقام المتروبوليت أبيمالك طيماثاوس بجلبها فى ذلك الزمن إلى مدينة تريشور الواقعة فى ولاية كيرالا فى الهند.

تتكلم رسائل طيماثاوس عن اللاهوت والفلسفة ووضع الكنيسة السريانية الشرقية (النسطورية) فى نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع. أوَلم يتمكن الجاثاليق من إدارة هذه الكنيسة إدارة تامة لمدة أربعين سنة ؟

الرسائل الفلسفية لطيماثاوس

هناك عدة رسائل تتطرق إلى مواضيع فلسفية متنوعة ومن بينها الرسالة رقم ٢ الموجهة إلى ربان بختيشوع الشماس الإنجيلى وطبيب الخليفة، والد الكاتب والطبيب جبرائيل. وتمثل هذه الرسالة بحثا فلسفيا عن النفس، ينقسم إلى سبعة فصول.

وكان طيماثاوس يريد من خلال رسالته التعرف على النفس، وقام بتعريفها هكذا :

"إنها طبيعة عاقلة حية ذكية خالدة غير قابلة للتجزئة، مخلوقة من لاشيء في الجسم بإرادة الله، لمنح الكمال والتكوين للبدن وللبقاء بدون انفصام منه إلى ما لا نهاية بقوة الروح القدس" (١١).

حسب رأي طيماثاوس النفس هي جوهر قابلة للإدراك، ولا يمكن أن تكون موجودة خارج الجسد و يتم خلقها بعد مدة تبلغ أربعين يوما، وهي تمنح الحياة للجسم وتوجهه عقلانيا. وتفقد الروح قدراتها الحالية إذا انفصلت عن الجسم وخرجت من نطاقه.

درس طيماثاوس الخواص المرتبطة بالنفس. وتتمثل القوى التي تتمتع بها النفس - بالنسبة إليه، كما هو الحال بالنسبة إلى العلماء السريان - في قوى العقل والإرادة والغضب والشهوة (الرغبة).

لا وجود للحنق والشهوة والمعرفة والإحساس بعد الموت الذي يمثل صمت النفس وراحتها، وتعيش النفس في الجنة إذا قامت بأعمال الخير خلال حقبة وجودها على الأرض. ويؤمن الجاثاليق بفعالية الصلاة وإحياء القداديس المقامة لأجل الموتى.

يتطرق طيماثاوس في الفصل الأخير من رسالته، إلى موضوع الحرية فيقول :

"لقد أظهر الله إرادته عن طريق الشريعة وبواسطتها ترك للإنسان حرية الاختيار. وتقود الحرية باستخدامها للشرائع التي فرضها الله على الطبيعة، إلى تغيير شكل الأشياء وليس إلى تغير طبيعتها"(١٢).

وتبقى النعمة الإلهية على الرغم من حرية الاختيار المتروكة للإنسان، ضرورية له في حياته. تكلم طيماثاوس في رسالته رقم ٤٠، الموجهة إلى صديقه سركيس عن لقائه مع فيلسوف أرسطوطالي قدير. ودار الحديث عندئذ حول مواضيع دينية .

"في أحد الأيام، وبينما كنا على عتبة الديوان الملكي، جاء رجل معروف من بين هؤلاء الناس المعروفين، والذين يتمتعون بالسلطة والثروة والمرتبة العالية، وأراد هذا الرجل الذي كان يملك الحكمة بطبيعته، وكان قد تثقف بفكر أرسطو، النقاش معنا. فقلت له عندئذ: ما الموضوع الذي تريد أن تتناقش فيه ؟ فأجابني: النقاش في موضوع الله" (١٣).

وتطرقت هذه الرسالة إلى العبارات الدينية الخاصة بالله، وإلى صفاته الإلهية. وتحدثت أيضا عن الكلمة المتجسدة، مستعملا المصطلحات الفلسفية.

وجه رسالة أخرى رقم ٤٣، إلى ربان بثيون الكاهن وعالم الدين. يتطرق طيماثاوس فى هذه الرسالة إلى ترجمته لكتاب المواضيع الجدلية Topiques لأرسطو، حيث يقول :

"صدر أمر ملكى يطلب منا أن نترجم من اللغة السريانية إلى اللغة العربية كتاب المواضيع الجدلية للفيلسوف أرسطو. وقد تم ذلك بعون من الله وبتعاون المعلم أبى نوح" (١٤).

وحدث أن طلب الخليفة المهدى من طيماثاوس أن يقوم بترجمة بعض أعمال أرسطو إلى اللغة العربية مع مساعده أبى نوح الأنبارى. لذا قام طيماثاوس سنة ٧٨٢ بترجمة كتاب المواضيع الجدلية Topiquesمن اليونانية الى السريانية ومن هذه النسخة التى قام أبو نوح بترجمتها إلى اللغة العربية. وفضَّل الخليفة ترجمة البطريك على جميع التراجم الأخرى اللاحقة.

تشهد كل رسائله على سعة معرفته باللاهوت والفلسفة التى كان يتميز بها الجاثاليق، كان يمتلك مقدرة عالية ، على استخدام الحوار والطريقة الجدلية للتعبير عن فكره، إضافة إلى لجوئه إلى أسلوب القياس والتناظر فى إجاباته عن الأسئلة التى قد يطرحها المتجادلون معه.

الأسبقية والأولوية لبلاد الرافدين

بعث طيماثاوس رسالة إلى مارانزخا أسقف نينوى(١٥). يتكلم الجاثاليق فى هذه الرسالة بفخر عن كنيسة ما بين النهرين التى يرعاها، ويشبهها بينبوع من الماء يغذى أربعة أنهار، هى البطريركيات الأربعة لكل من مدينة روما والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية. ويقر فى هذه الرسالة بأن كرسى بطريركية مدينة ساليق – قطيسفون يتفوق على كرسى روما الذى أسسه بطرس، لأنه يحتفظ بالأسبقية والأولوية.

ويسند رأيه في رسالته هذه قائلا : أولَم تتميز هذه الأراضي بوجود جنة عدن فيها؟ وفي داخلها تنسكب أنهار الكتاب المقدس الأربعة ؟ الشرق، بالنسبة لطيماثاوس هو رمز الفردوس الأرضي وبلاد الرافدين هي موطن إبراهيم الخليل.

ويجد طيماثاوس أن المسيحيين الشرقيين يتمتعون بميزة كبرى عن الآخرين، هي ميزة معرفة المسيح ثلاثين سنة قبل الرومان والإغريق، وذلك بفضل الملوك المجوسيين الاثني عشر، ويقول :

"كما هو الحال بالنسبة إلى الثروة التي يصرفها الأب الصالح والمحب على ابنه الكبير والصغير الجشع على حد سواء وبطريقة متماثلة، رغم أن طاعة هذين الولدين وإخلاصهما لم يكونا على نفس المستوى.

كذلك الأمر بالنسبة للديانة المسيحية التي هي ديانة واحدة ومتماثلة، سواء كان ذلك في الشرق أو في الغرب أو في الشمال أو في الجنوب، ولكن الاهتمام والعناية الممنوحة لها ليست واحدة وهي غير متماثلة لدينا نحن الشرقيين أولاد النور ولا في كل مناطق العالم الأخرى.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الينبوع الذي يخرج من جنة عدن لإرواء الفردوس، إذ يتفرع إلى أربعة أنهار، وإن إضافة الينبوع إلى أربعة أنهار يساوي خمسة، فإن الماء يكون متماثلا في الأنهار الخمسة من حيث طبيعته وجودته والطريقة التي وجد فيها...

كذلك الديانة المسيحية التي هي ينبوع الحياة والأبدية، والتي نبعت من عندنا نحن الشرقيين ، لأن المسيح نابع منَّا بجسده، وهو الإله الذي فوق كل شيء - روَّى هذا الينبوع جنَّة العالم كاملة عندما سقى العروش والكراسي الأربعة. وحينما نضيف الواحد إلى أربعة، نكمِّل العدد فيصبح خمسة"(١٦).

كان طيماثاوس يمارس طوال حياته نشاطا عظيما، وقد نجح في القيام بمهمته نجاحا تاما. وطوَّر تعليم الأكليروس، مستندا إلى المبدأ القائل بأن العلم يبقى دائما وأبدا أفضل سلاح لدى المسيحيين الذين كانوا يعيشون داخل الإمبراطورية الإسلامية.

وقام بإعادة تنظيم جماعته المسيحية، واختار أساقفة بعناية فائقة وعمل بشكل دءوب على مراقبة إدارتهم مراقبة دقيقة، وتمكن بذلك من نشر إشعاعات الإيمان الحقيقى وجعلها تتألق فى العالم. كان يقارن هذا التألق فى كتاباته بتألق لؤلؤ الخليج الساطع الذى كان يتم جلبه على متن السفن الغنية القادمة من تلك الأقاليم.

لقد استطاعت الكنيسة السريانية الشرقية نشر إشعاعاتها فى عهد بطريركية طيماثاوس على كامل امتداد القارة الآسيوية بأكملها. واخترق العديد من المبشرين المليئين بالحيوية والاندفاع آفاق البحار قاصدين بلاد الهند والصين، لا يملكون من التجهيزات إلا العصا التى يتوكأون عليها وقليلا من الزاد يتغذون به بكل صبر وتقشف. وقد أرسل طيماثاوس مبشرين إلى شمال بلاد فارس وآخرين يبشرون الأتراك أيضا بالإنجيل.

وهكذا استطاع طيماثاوس، وهو فى نهاية حياته أن يقول وبشىء من الفخر المشروع:

"لم نترك أى مكان لم ننصب فيه متروبوليتا أو أسقفا"(١٧).

وبذلك فقد تمكن هذا الجاثاليق من رفع راية الكنيسة عاليا فى بلاد المشرق.

هل يمكننا أن نحدد بدقة تاريخ وفاته ؟ يذكر لنا مؤرخو السريان مثل ميخائيل الكبير وابن العبرى ومارى بن سليمان، أنه قد أسلم روحه فى السنة التى دخل فيها الخليفة المأمون مدينة بغداد، والتى تصادف سنة ٢٠٤ هجرية أى (٨١٩-٨٢٠) ميلادية.

ويؤكد مؤرخون آخرون، مثل إيليا النصيبينى وصليبا بر يوحنا، بأنه توفى سنة ١١٣٤ بحسب التقويم السلوقى الموافق لسنة ٢٠٧ الهجرية، أى سنة ٨٢٣ ميلادية.

ودُفن طيماثاوس بكل ما يستحقه من التكريم والتبجيل فى دير كيليشوع الواقع فى مدينة بغداد، وخلفه على كرسى البطريركية زميله إيشوع برنون الذى كان خصمه فى فترة من فترات حياته. وكان هذا الأخير طاعنا فى السن، ولكنه كان يتمتع بثقافة وعلم غزيرين.

هوامش الفصل السادس عشر

(١) كتاب المجدل، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ماري بن سليمان، Chronique patriarcale، نشره هـ. جيسموندي H. Gismondi وماري أمري Maris Amri وصليبا Silbae من Patriarchis nestorianorum commentaria، روما ، ١٨٩٦-١٨٩٩، ص ١٧ .

(٢) كتاب الأسرار المعروف بكتاب المجدل : صليبا بر يوحنا، نشره هـ. جيسموندي H. Gismondi وماري أمري Maris Amri وصليبا Silbae من Patriarchis nestorianorum commentaria ، روما ١٨٩٦-١٨٩٩، ص ٦٥ .

(٣) كتاب المجدل، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ماري بن سليمان، Chronique patriarcale، ص ٧٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٥ .

(٥) ر. ج. بيداويد R.J. Bidawid، رسائل المطران النسطوري طيماثاوس الأول Les Lettres du Patriarche nestorien Timothée 1er، في Citta del Vatican، روما، ١٩٥٦، الرسالة ٤٨، ص ٢٧، ٧٧

(٦) كتاب المجدل، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ماري ابن سليمان، Chronique patriarcale، ص٧٣ .

(٧) لرسالة ٥٤، ر. ج. بيداويد R.J. Bidawid، ص ٤٠، ٧٧-٧٨ .

(٨) كتاب المجدل، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ماري لابن سليمان، Chronique patriarcale، ص ٧٤ .

(٩) فهرس المؤلفين لعبديشوع الصوباوي، الترجمة إلى اللغة العربية جوزيف حبي، بغداد، ١٩٨٦، ص ٨٢، راجع أيضا ي. س. السمعاني J.S Assémani، المكتبة الشرقية للفاتيكان Bibliotheca Orientalis Clementino-Vaticana، الجزء الثالث أ، روما، ١٧٢٥، ص ١٥٨-١٦٣ .

(١٠) ج. فوسته J. Vosté، فهرست المكتبة السريانية الكلدانية لدير سيدة الزروع، باريس ١٩٢٩، كوديكس Codex CLXIX، ص ٢٢،٢٤ .

(١١) ر. ج. بيداويد R.J. Bidawid، الرسائل، ص ١٩ .

(١٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠ .

(١٣) حنا بيوس شيخو Hanna P.J. Cheikho، جدلية اللغة حول الله، رسالة طيماثاوس الأول إلى سرجيس، روما، ١٩٨٣ .

(١٤) ر. ج. بيداويد R.J. Bidawid، الرسالة رقم ٤٣، ص ٣٥ .

(١٥) الرسالة رقم ٢٦ المنشورة فى طبعة أو بروم .O. Braum

(١٦) اليومية الآسيوية Journal asiatique، ١ ,٢٨٨ (٢٠٠٠) : ١-١٣، ترجمة فرانسواس بريكيل شاتونيه إلى اللغة الفرنسية .François Briquell Chatonnet

(١٧) طيماثاوس الأول، القوانين الكنسية Les canons ecclésiastiques، ترجمة ج. لابورت J. Labourt، باريس ١٩٠٧ .

الفصل السابع عشر

الخلفاء العباسيون والفلاسفة السريان

يذكر لنا المؤرخون ومدونو الأحداث ووقائعها بأنه بعد أن ساد السلام فى المنطقة، حكم الخليفة المأمون في جو من الرخاء والعظمة. وبدأ عندئذ باقتحام مجال العلوم، وقام بحماية العلماء وتكريم الشعراء. ويقدم لنا المؤرخ السريانى الرهاوى المجهول مدحا للخليفة المأمون، ويقول :

"كان المأمون هذا رجلا حكيما ولبقا ومتبحرا فى علوم الفلك والنحو، وقد كتب وألّف كتابا مشهورا فى مجال العلوم والفلك، بقى إلى يومنا هذا معروفا بين الفلكيين"[(١)] .

وقد حاول العلامة المعروف ابن النديم الذى قام بإعداد قائمته الببليوجرافية المشهورة كتاب الفهرست، البحث عن الأسباب التى أدت إلى ازدهار الكتب الفلسفية وغيرها من الكتب العلمية فى عهد المأمون. ويقدم لنا فى هذا الكتاب واحدا من هذه الأسباب، حيث يقول إن المأمون رأى فى منامه، فى إحدى الليالى، حلما غريبا يسرده علينا :

"رأى المأمون فى منامه كأن رجلا أبيض اللون، مشربا حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالسا على سريره. قال المأمون : وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت من أنت ؟ قال أنا أرسطاليس ! فسررت به وقلت : أيها الحكيم ! أسألك ؟ قال سل، قلت ما الحسن ؟ قال ما حسن فى العقل ! قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور ! قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن فى الشرع ! قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن فى العقل ! قلت ثم ماذا ؟ قال ثم لا ثم !

وفى رواية أخرى : قلت زدنى. قال : من نصحك فى الذهب، فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد ! فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب، فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما هو مختار من العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم" (٢) .

كان علماء العرب يعتبرون الفيلسوف أرسطو أول الفلاسفة، حيث أطلقوا عليه تسمية المعلم الأول.

أجل، لقد أرسل إمبراطور الروم إلى الخليفة فى بغداد مؤلفات الفلاسفة أفلاطون وأرسطو وأبيقراط وجالينوس، فقام الخليفة عندئذ باختيار أفضل المترجمين وأكثرهم كفاءة لإنجاز مثل هذا العمل المهم.

وهكذا أمر الخليفة المأمون حوالى سنة ٨٣٢ ببدء الانطلاقة الفعلية الكبرى للترجمة، وفى عهده أُنشئ مركز للتراجم والبحوث تحت اسم بيت الحكمة. رسخت جذور هذه الحكمة فى العصور القديمة، وفى مختلف الثقافات الفارسية والهندية وغيرها. وقد ارتبطت علوم متعددة ببيت الحكمة هذا، مثل علوم المنطق والرياضيات والفلك والطب، واشتهر بيت الحكمة الذى فتح أبوابه واسعة أمام النخبة المختارة من العلماء، وارتاد صفوفه المترجمون المسيحيون. وأصبح بيت الحكمة الذى شكل مكتبة كبيرة تحفظ فى رفوفها المخطوطات الموضوعة تحت تصرف الناسخين، يمثل نوعاً من الأكاديمية العلمية والفكرية أو مركزاً للتراجم والبحوث الفلسفية والعلمية.

وسطعت خمسة كواكب فى سماء القرن التاسع الميلادى وهم الأطباء والفلاسفة السريان : جبرائيل بختيشوع، وعبديشوع بن بهريز، ويوحنا بن ماسويه، وسلمويه بن بنآن، وابن نعيمة الحمصى.

جبرائيل بختيشوع (٨٢٦)

ها هو جبرائيل حفيد الطبيب والفيلسوف جرجيس، أرسله والده بختشيوع وهو لم يزل بعد شابا فى مقتبل عمره، لدى جعفر البرمكى، وزير الخليفة هارون الرشيد.

تمكن من معالجة الوزير عندما مرض وأصبح بذلك طبيبه الخاص. وبعد إعدام جعفر تعرض جبرائيل هو أيضا إلى نوع من الاضطهاد نتيجة علاقته مع جعفر البرمكى، وبعد فترة زمنية استطاع شفاء إحدى حظيات الخليفة هارون الرشيد، والتى كان أصابها شلل فى ذراعها، فاسترد بذلك ودّ الخليفة وثقته به. ثم عامله الخليفة بنوع من العطف وعينه بوظيفة رئيس للأطباء فى حاشيته، وخصص له راتبا مهما وكرّمه وأغدق عليه الهدايا. خدم جبرائيل أميرَ المؤمنين مدة عشرين عاما كاملة.

ويذكر لنا القفطى، أنه من المحتمل أن يكون جبرائيل قد أنشأ، بأمر من الخليفة، أول مستشفى فى مدينة بغداد. واستطاع أن يحتل منصب طبيب بلاط الخلافة العباسية، وانهالت عليه الثروات أثناء حكم الخليفة الأمين لأنه كان معلمه.

عندما تسلم المأمون العرش أصبح جبرائيل شخصا غير مرغوب فيه بسبب مكانته لدى الخليفة الأمين، ولكنه ما لبث أن استرجع مكانته عندما أفلح فى شفاء الخليفة سنة ٨٢٥، وهو الذى شمل جبرائيل بالتكريم، ومنحه أرقى وأفضل الهدايا.

استطاع جبرائيل، الطبيب الغنى والحائز على تبجيل الخلفاء العباسيين وتكريمهم، أن يتبوأ منصبا عاليا على الرغم من ديانته المسيحية، وبذل جهدا كبيراً لمساعدة الجاثاليق طيماثاوس، وخدم العلم خدمة كبيرة.

وقام بتأليف عدة كتب فى مواضيع مختلفة، ويذكر ابن بهلول المؤلف السريانى الشرقى لكتاب القاموس والذى عاش فى القرن العاشر، أن جبرائيل كتب خلاصات عدة باللغة العربية لأعمال أطباء إغريق مثل ديوسقوريد وجالينوس وبولس الإجينى Paul Egine .

وقدم ابن أبى أصيبعة بدوره مؤلفات جبرائيل، حيث يذكر فى كتابه المعروف عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ما يلى :

" ولجبرائيل بن بختيشوع من الكتب : رسالة إلى المأمون فى المطعم والمشرب، وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق، وكتاب فى الماء، ورسالة مختصرة فى الطب، وكناشه، وكتاب فى صنعة البخور، ألفه لعبد الله المأمون"(٣).

وقد عمل جبرائيل بختيشوع على تطوير التراجم بمساعدة كاتب سريانى آخر هو عبديشوع بن بهريز.

عبديشوع بن بهريز

يستمر النهار فى تقدمه ساعة بعد ساعة، ويقتفى مساره بانتظام، وتدق آفاق الفضاء الرحب نبضات تختلج فى جوانحها مشاعر الزمن الطويل. تلك هى الأحاسيس التى نشعر بها عندما نقرأ قصة عبديشوع بن بهريز.

يقول ابن النديم إن هذا الرجل الذكى والمثقف كان يتقن اللغات الإغريقية والعربية والسريانية على حد سواء، وقد أصبح أسقفا للكنيسة السريانية الشرقية لمدينة حرّان، وبعد مدة رئيس أساقفة لمدينة الموصل فى شمال بلاد الرافدين. ويحتمل أن يكون قد حصل على هذا المنصب بفضل مساعدة الطبيب جبرائيل بن بختيشوع صاحب النفوذ الكبير.

وقد كتب، بناء على طلب من المأمون، خلاصة لكتاب أرسطو الشهير الأرجانون، فأطلق عليه اسم كتاب حدود المنطق. كما يذكر لنا فهرس المؤلفين لعبديشوع الصوباوى، أنه قام بتأليف وشرح عدة أعمال للخليفة المأمون. وتُنسب إليه بالإضافة لذلك ترجمة كتاب تاريخى بعنوان أخبار اليونانيين.

يوحنا بن ماسويه (نحو سنة ٧٨٦ - ٨٥٧)

تواصل السنوات مسيرتها، وينطلق من تقدمها صوت مماثل لصوت الأوراق المجعدة الذى ينطلق منها بعد أن تقلبها أيادى متصفحيها قبل المباشرة بمطالعتها.

كان يوحنا بن ماسويه، المسيحى النسطورى، ابنا لأحد محضرى الأدوية العاملين فى صيدلية البلاد. وكان يوحنا تلميذا مجتهدا انهمك فى دراسة العلوم والطب

وتلقى دروسه، بدون شك، تحت إشراف البطريرك إيشوع برنون (٨٢٠- ٨٢٤)، وكان يجيد اللغة السريانية.

كلّف الخليفة هارون الرشيد يوحنا بن ماسويه الذى كان أحد أشهر أساتذة الطب فى بغداد، بترجمة الكتب التى عُثر عليها فى بلاد الروم، وعينه رئيس مترجمى الكتب القديمة.

يقدم لنا ابن أبى أصيبعة وصف المزايا التى تمتع بها يوحنا بن ماسويه :

"كان طبيبا ذكيا، فاضلا خبيرا بصناعة الطب، وله كلام حسن وتصانيف مشهورة، وكان مبجلا حظيا عند الخلفاء والملوك... كان يوحنا بن ماسويه مسيحى المذهب سريانيا، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وُجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون، ووضعه أمينا على الترجمة. وخدم هارون والأمين والمأمون، وبقى على ذلك إلى أيام المتوكل... وكانت ملوك بنى هاشم لا يتناولون شيئا من أطعمتهم إلا بحضرته"(٤).

ويقول ابن النديم إنه قد تم تكليف يوحنا بن ماسويه بعد ذلك من قبل المأمون بالسفر إلى بلاد الروم بهدف البحث عن المخطوطات الإغريقية القديمة. وعمل فى إدارة وتوجيه مجموعة من المترجمين، وكان يتمتع بشخصية صعبة، ولكنه كان يجذب الكثير من التلاميذ ويعمل معهم بحماس منقطع النظير.

ومارس يوحنا مهنة تدريس الطب وعلم الجدلية (الدياليكتيك)، مستندا بذلك إلى الطريقة التى عرضها جالينوس فى كتبه ومؤلفاته، وألف أكثر من أربعين كتابا عن الطب باللغتين السريانية والعربية.

وقد بقيت بعض من كتبه محتفظة ببريقها العلمى والفلسفى، على الرغم من تقلبات الزمن وتغير المعطيات العلمية وتطورها .

قد يكون من الملائم ذكر بعض من هذه المؤلفات: كتاب عن الحمِّيات محفوظ فقط فى تراجم باللغتين اللاتينية والعبرية، وكتاب عن علم التشريح محفوظ فى باريس.

وهناك كتابان يحملان اسم يوحنا بن ماسويه باللغة العربية، هما كتاب الأزمنة، الذى يقدم وصفا لفصول السنة، ويتناول نظريات الطباع والمؤهلات، وكتاب النوادر الطبية الذى يحتوى على مقتطفات من أقوال طبية، حرر يوحنا بن ماسويه نصائح مأثورة على طريقة الفيلسوف الإغريقى أبيقراط، نذكر منها على سبيل المثال :

"احذر ممن لا يعير اهتماما لأسس الطب والعلوم والفلسفة وقوانين المنطق وإلى قواعد الرياضيات، واتق شر من ينهمك فى ملذات العالم وخاصة عندما يتعلق الأمر بمجال مثل المجال الذى يمثله فن الطب"[٥].

عالج يوحنا، بصفته طبيبا ممارسا مشهورا، أربعة خلفاء عباسيين ومجموعة من كبار رجال الحاشية الذين كانوا يعملون معهم : المأمون (٨١٣-٨٣٣) والمعتصم (٨٣٣-٨٤٢) والواثق (٨٤٣-٨٤٧) والمتوكل (٨٤٧-٨٦١).

فى سنة ٨٥٠ الميلادية أصدر الخليفة المتوكل، استجابة للضغوط التى مورست عليه من قبل بعض المسلمين المقربين إليه، أمراً نص على فرض قيود شديدة على المسيحيين واليهود، كالالتزام بارتداء علامات مميزة توضع فوق ثيابهم، ومنع تشييد الكنائس وحظر دقّ الأجراس ومنع ركوب الخيل. وقد عانى المسيحيون من هذه المضايقات التى تعرضوا لها لحين وفاة يوحنا بن ماسويه، الطبيب المفضل لدى الخليفة المتوكل، والتى حدثت سنة ٨٥٧ الميلادية. بادر أمير المؤمنين عندئذ بإقامة أروع تشييع لأخلص شخص عمل فى خدمته، تعبيرا عن امتنانه له ولخدماته، وقام بإطلاق سراح الجاثاليق ثيودوس للكنيسة السريانية الشرقية، والذى كان يقبع فى السجن منذ ثلاث سنوات ونصف، وأصدر أمرا بعودة الكهنة والشمامسة الذين كان قد أقصاهم من مدينة سامراء عاصمة الخلافة العباسية الجديدة. يقول مارى بن سليمان :

"وتعطف على النصارى و رجع لهم، وعمل على إطلاق تاذاسيس و اتفق مع يوحنا ابن ماسويه و كان عزيزا عليه وعلى أصحابه، فأمر بتبجيله وإكرامه فى تجنيزه ، وأعلمه أن الجاثالقة، والقساوسة والذين يقومون بالصلاة مطرودون من سر من رأى ، فأمر بردهم وإطلاق الجاثالقة ولا يسامون من بعد الخروج من المدينة. وجرى تشييع يوحنا بن ماسويه على أتم وقار[٦].

تحسنت أحوال المسيحيين، بعد هذا التشييع الفخم واستعادوا دورهم التاريخى فى نشر وتطوير العلوم والفلسفة والفكر الإنسانى فى بلاد ما بين النهرين أولا. وفى الحضارات التى جاورتها وتلتها. وبقى يوحنا بن ماسويه يمثل أحد الوجوه العلمية الكبيرة فى عصره يؤثر فيه ويستفيد الآخرون من معارفه وخدماته الكثيرة. وعُرف عند الغربيين فى القرون الوسطى تحت اسم جان ميزوى Jean Mésué .

سلمويه بن بنآن

ببلوغنا إلى سلمويه بن بنآن (٨٤٠)، نشعر بأننا قطعنا مرحلة جديدة من معرفة أطباء وفلاسفة السريان لتلك العصور.

كان سلمويه السريانى الشرقى، يتمتع بثقافة غزيرة ومعرفة متينة، وبقى واحدا من أهم مديرى بيت الحكمة فى عصر الخليفة المأمون. يقول ابن النديم إنه كان ضمن الوفد الذى أرسله المأمون إلى بلاد الروم .

"وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما هو مختار من العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا"(٧).

ازداد نفوذ سلمويه وتمكن من التأثير فى الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) الذى كان متعلقا به بعلاقة وثيقة منذ صباه. وبواسطته أيضا أصبح أخوه إبراهيم مسئولاً عن الشئون المالية وخاتم أسرار (وزير العدل) الخليفة.

يتحدث ابن أبى أصيبعة :

"لما استخلف أبو إسحاق محمد المعتصم بالله، وذلك فى سنة ثمانى عشرة ومئتين، اختار لنفسه سلمويه الطبيب وأكرمه إكراما كثيرا يفوق الوصف، وكان يرد إلى

الدواوين توقيعات المعتصم فى السجلات وغيرها بخط سلمويه، وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين فبخط سلمويه. وولّى أخا سلمويه إبراهيم بن بنآن خزن بيوت الأموال فى البلاد، وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين. ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم فى المنزلة، وكان سلمويه بن بنآن نصرانيا حسن الاعتقاد في دينه، كثير الخير، محمود السيرة، وافر العقل، جميل الرأى"(٨).

كان لسلمويه تأثير كبير فى الخليفة الذى كان يدعوه بكلمة "أبى". ويذكر لنا ابن أبى أصيبعة، فى كتابه المشهور عيون الأنباء فى طبقات الأطباء أن المعتصم ربما كان هو القائل هذه العبارة عنه :

"سلمويه، أكبر عندى من قاضى القضاة، لأن هذا يحكم فى نفسى، ونفسى أشرف من مالى وملكى"(٩).

ألّف سلمويه أعمالا مختلفة ولكنها فُقدت لسوء الحظ. وتوفى سنة ٨٤٠، ويقال إن الخليفة حزن على وفاته حزنا شديدا ولم يعش من بعده إلاّ حوالى عشرين شهرا.

كان رئيس الأطباء حنين بن إسحاق يعتبر سلمويه واحداً من أكثر الأطباء علما وثقافة، وكان يقدر ذكاءه الواسع تقديراً كبيرا، وقد عبر عن إعجابه الشديد بتعلقه بالكتب وانهماكه فى المعرفة، وترجم عدة مؤلفات فى مواضيع متنوعة ومختلفة.

ابن نعيمة الحمصى

نلقى على هذه الصفحات ظلّ سريانى آخر هو ابن نعيمة الحمصى.

كان ابن نعيمة الحمصى ينتمى إلى حلقة الفيلسوف العربى الكبير الكندى (٨٧٣). وأنجز ترجمة كتاب اللاهوت إلى اللغة العربية، وهو الكتاب الذى ينسب تحريره إلى الفيلسوف أرسطو. ويعتقد الكثير من المؤلفين أنه ربما كان قد ترجم أيضا كتاب الحكمة المموهة.

كتب الشاعر الفرنسي المعروف أراجون في إحدى قصائده الغنائية التي تغزل فيها في روايته التي لم يتمكن من إكمالها:

قد يتطلب الأمر منى استئناف كل شيء من جديد،

وترجمة كل شيء من جديد..

نرى حنين بن إسحاق، وهو يتغنى بمثل هذه الأبيات الشعرية، إنه ذلك الإنسان الذي حاول ترجمة هذه المؤلفات المحررة بلغة الأساتذة الأوائل. وهو ذلك الإنسان الذي ارتبط اسمه فيما بعد بمثل هذه المهمة الكبيرة.

هوامش الفصل السابع عشر

(١) تاريخ الرهاوى المجهول Anonymi Auctoris Chronicon (AD A.C) 1234 Pertinens، ترجمة فرنسية للأب ألبير أبونا، لوفان Louvain، ١٩٧٤، الجزء الثانى، ص٤ .

(٢) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ٣٣٩ .

(٣) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ٢٠١ .

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٦ .

(٥) كتاب الأمثال الطبية Le livre des Axiomes Médicaux -Aphorismi ليوحنا بن ماسويه، نشرته وترجمته إلى الفرنسية دانيال جاكارت Danielle Jacquart وجيرارد تروبو Gérard Troupeau، مكتبة دروز Droze، جنيف، ١٩٨٠، ٧، ص ١٥ .

(٦) كتاب المجدل، أخبار بطاركة كرسى المشرق، مارى بن سليمان، نشره هـ. جيسموندى H. Gismondi ومارى أمرى Maris Amri وصليبا Silbae من Patriarchis nestorianorum commentaria ، روما ١٨٩٦-١٨٩٩، ص ٨٠ .

(٧) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ٣٣٩ .

(٨) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ٢٣٤

(٩) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٤ .

الفصل الثامن عشر
حنين بن إسحاق (٨٠٨-٨٧٣)

شخصية حنين

سيطرت شخصية حنين بن إسحاق على كامل القرن التاسع. ولعب دورا رائدا في مجالى الطب والترجمة على الساحة الثقافية فى بغداد، خلال مدة وصلت إلى خمسين عاما.

نراه الآن مثله مثل الكثير من الحكماء، واقفا تحت إشعاعات الشمس الساطعة على أرض بلاد ما بين النهرين، وهو يمسك بيده كأسا لا تنضب، إنه تراث بلاد الإغريق القديمة، ها هو يسقى السريان والعرب من نور أفكار الفيلسوف أرسطو.

ولد حنين سنة ٨٠٨ فى مدينة الحيرة الواقعة فى وسط العراق الحالى، وكانت الحيرة سابقا عاصمة مملكة اللخميين التى تأسست فى نهاية القرن الثالث، على أن مدينة التجارة والصيارفة ومستبدلى العملات ما لبث أن خمد بريقها منذ سنة ٦٣٨ الميلادية، وأخذت جارتها، مدينة الكوفة المشهورة التى شيدها العرب، تأخذ مكانها شيئا فشيئا.

كانت مدينة الحيرة تضم منذ القرن الخامس الميلادى، أبرشية تابعة إلى بطريركية مدينة ساليق- قسطيفون وكانت اللغة العربية سائدة فى مدينة الحيرة، إضافة إلى اللغة السريانية التى كانت تستخدم لتعليم المسيحيين ولممارسة الطقوس والشعائر الدينية (الليتورجيا).

كان حنين ينتمى إلى قبيلة عباد، وكان والده المسيحى النسطورى المذهب يمارس مهنة الصيدلة. وقد كتب ابن النديم فى مؤلفه المعروف كتاب الفهرست، الكثير من العبارات التى عبر فيها عن مدحه لهذا الإنسان الذى رأى فيه نموذجا للحكمة والمعرفة:

"حنين بن إسحاق العبادى، ويكنى أبا زيد، والعباد نصارى الحيرة، وكان فاضلا فى صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية، طاف البلاد فى جمع الكتب القديمة، ودخل بلد الروم، وأكثر نقله لبنى موسى" (١).

غادر حنين مدينة الحيرة متوجها إلى بغداد ليبدأ فيها دراسة الطب والفلسفة، وارتاد مدرسة يوحنا بن ماسويه التى كانت قد اشتهرت فى جودة دروسها، وكان يوجه أثناء دراسته الكثير من الأسئلة لشدة عطشه وشغفه لتوضيح النصوص المقروءة، واضطر أستاذه لتوبيخه بهذه العبارات :

"ما العلاقة الموجودة بين أهل الحيرة ودراسة فن الطب ؟"

كان ابن ماسويه يشعر بالتعالى وبنوع من الاحتقار تجاه أهل الحيرة، التجار البسطاء. وقد اقترح على حنين أن يتوجه لبيع قطع النقود على قارعة الطرق، عملية تجارية يمكن أن تدر أموالا تزيد عن المال الذى تدره عليه مهنة الطب.

شعر حنين بالإهانة واغرورقت عيناه بالدموع وترك قاعة الدراسة وغادر مدينة بغداد لمدة سنتين. فهل توجه إلى مدينة الإسكندرية لدراسة اللغة اليونانية، كما يخبرنا بذلك ابن أبى أصيبعة، ثم إلى بلاد الإغريق ؟

وبعد هذه المدة عاد الشاب حنين إلى بغداد، استقر أخيرا فى عاصمة الخلفاء العباسيين، وأنهى دراساته الطبية فيها. وتصالح مع يوحنا بن ماسويه الذى وجه إليه النصائح وشجعه على الدراسة.

فى أحد الأيام بينما كان حنين يقوم بترجمة كتاب التشريح لجالينوس، دهش جبرائيل بختشيوع الطبيب المسن من مهارته وتعجب من سعة معارفه، وأطلق عليه بهذه المناسبة كلمة الربان (المعلم)، وهو يرى فى شخصيته عالما آخر هو سرجيوس الرأسعينى الذى تطرقنا إليه فى فصل سابق.

عاش حنين تحت سلطة عشرة خلفاء، ومارس مهنة الطب لمدة طويلة في حاشية الخلافة، وعُيِّن فى وظيفة رئيس الأطباء فى زمن الخليفة المتوكل. وكان يتسلم راتبا ممتازا.

ولم يكن الخليفة المتوكل الذى اشتهر بالتقلب فى المزاج وحب الألعاب واللهو وإشباع الشهوات والملذات - لطيفا دائما مع محبى الفيلسوف أرسطو. وقد تصرف بقسوة تجاه المعتزلة العقلانيين وألغى النقاشات الفلسفية، وأصدر أمرا سنة ٨٥٠ ينص على إلزام المسيحيين حمل ووضع علامات فارقة على ملابسهم.

وينقل لنا ابن أبى أصيبعة حكاية نادرة، استدعى الخليفة المتوكل فى يوم من الأيام حنين رئيس أطبائه وطلب منه أن يحضر سما للتخلص من أحد أعدائه، فأجابه حنين عندئذ بأنه تعلم بصفته طبيبًا أن يحضر فقط الأدوية النافعة والشافية المفيدة. وغضب الخليفة المتوكل عندئذ وهدده لأنه لم يذعن لأمره وزجه فى السجن، وكان حنين يعمل فى الظل خلال سنة كاملة وينجز أعماله الشخصية. ومثل مرة أخرى أمام الخليفة الذى وعده بالتعذيب والهلاك إن لم يمتثل لرغباته، وأجابه الطبيب بنفس الأجوبة، وكان مستعدا للموت.

وابتسم أمير المؤمنين فجأة وقال له :

"يا حنين، طب نفسا، وثق بنا. فهذا الفعل كان منا لامتحانك، لأنا حذرنا من كيد الملوك، وإعجابنا لننتفع بعلمك. فقبل حنين الأرض وشكر له، فقال له الخليفة : يا حنين ما الذى منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا فى الحاليين ؟

فقال حنين : شيئان يا أمير المؤمنين. قال وما هما ؟ قال الدين والصناعة.

قال : فكيف ؟

قال : الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقاؤنا؟ ويبعد ويحرم من لم يكن كذا. والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم. ومع هذا فقد جعل الله فى رقاب الأطباء

عهدا مؤكدا بأيمان مغلظة ألا يعطوا دواء قاتلاً، ولا ما يؤذى . فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين . ووطنت نفسي على القتل، فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طاعته، وكان يثيبنى . فقال الخليفة، إنهما لشريعتان جليلتان . وأمر بالخلع فخلعت عليه، و حمل المال بين يديه ، وخرج من عنده و هو أحسن الناس حالا وجاها"(٢).

فما كان من المتوكل بعد هذا الامتحان إلا أن رفع مقامه فى البلاط وأجزل له العطايا.

عرف حنين محنًا أخرى فى حياته الطويلة، وتعرض للسجن ومصادرة مكتبته، وقد قام زملاء له كانوا يحسدونه بالتآمر عليه ومحاولة إيقاعه فى شبك الدسائس. وكان سعيدا جدا عندما تمكن من استعادة مكتبته بعد أن أُعيد إلى وظائفه السابقة. ولم ينس حنين قط الصعوبات والعقبات التى تعرض لها.

توفى فى بغداد فى اليوم الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ٨٧٣ . وترك أعمالا واسعة وغنية سواء تعلق الأمر بكتاباته الشخصية أو تراجمه الكثيرة فى العديد من المجالات والمواضيع.

تآليفه الشخصية والأصيلة

كان حنين إنسانا يمتلك معرفة ممتدة الآفاق وروحا قوية وفكرا نافذا وجامعا، وقام بكتابة أعمال أصيلة وتطرق فى دراساته إلى كل العلوم السائدة فى زمانه: علم الفلك والرياضيات والفيزياء والطب والصيدلة وصناعة العقاقير والأدوية إضافة إلى العلوم الفلسفية والدينية واللغوية.

كانت الكتابات الدينية لهذا الشماس الإنجيلى تدافع عن الديانة المسيحية، وكان من المذهب النسطورى. حرر حنين رسالة وجهها إلى صديقه ابن المنجم، كاتم أسرار الخليفة المتوكل والذى كان يضغط عليه لاعتناق الديانة الإسلامية، قدم له فى هذه الرسالة الأسباب التى تدعوه إلى الاعتقاد بأن دينه هو دين صحيح لذا لا حاجة لتغييره.

يحتمل أن يكون حنين قد أنجز باللغة العربية ترجمة ممتازة للكتاب المقدس اعتبارا من الترجمة السبعينية. وينسب إليه أيضا كتاب تاريخ العالم، الذى امتدت فترته من آدم حتى الخليفة المتوكل.

ويذكر ابن أبى أصيبعة أن حنين قد قام أيضا بكتابة بحث عن المنطق ثم كتاب آخر تحت اسم مجموعة من الحكايات وأمثال وحكم منسوبة إلى الفلاسفة الإغريق القدماء.

وكتب حنين، وهو الذى مارس أيضا مهنة طبيب العيون، عشرة بحوث عن العين، تمثل نوعا من الموسوعات ودائرة معارف شاملة ,وكتب خلاصة استمد مادتها من كتابه السابق، وجهها إلى ولديه إسحاق وداود، حمل اسم كتاب الأسئلة عن العين.

وألف كتابا حول الأسئلة عن الطب، وأنجز بحوثا عن الأغذية والصحة وتشريح المعدة والحمى والحصاة. وعمل أيضا على إنجاز بحوث نحوية وأخرى متعلقة بعلم المنطق، وكتب مؤلفات أخرى تتطرق إلى مواضيع متعددة.

المترجم البارع

أدت التراجم الدقيقة والواضحة إلى منح حنين بن إسحاق هذا المجد الذى بلغه والشهرة التى وصل إليها. لنترك الكلام لابن جلجل إذ يقول :

"وكان جليلا فى ترجمته، و هو الذى أوضح معانى كتب بقراط و جالينوس، ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استغلق منها، وأوضح مشكلها، و له تآليف نافعة متقنة بارعة. وعمد إلى كتب جالينوس، فاحتذى فيها حذو الإسكندريين، فصنعها على سبيل المسألة والجواب، فأحسن فى ذلك. و له كتاب فى صناعة المنطق، لم يسبق إلى مثاله غيره، لحسن تقسيمه وبراعة نظامه"(٣).

عمل ضمن مجموعة المترجمين الذين كانوا يرتادون بيت الحكمة، إذ ترجم نصوصا إلى اللغة العربية لتلبية رغبة الخليفة المأمون. فى أحد الأيام استدعاه هذا

الخليفة عنده وهو يعلم تمام العلم أنه أفضل مترجم فى عصره، فطلب منه أن ينقل إلى اللغة العربية كتب الحكماء الإغريق، ومنحه الكثير من الأموال والهدايا. وفى هذا الصدد يقول ابن أبى أصيبعة :

"إن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل" (٤) .

يذكر حنين فى رسالته المعروفة التى كتبها بعد تعرض مكتبته إلى الضياع، أنه أنجز عددا كبيرا من المؤلفات الفلسفية والطبية التى ترجمها من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية أو العربية. ويذكر فى هذه الرسالة أيضا أنه ترجم ٩٠ مؤلفًا لجالينوس.

وترجم حنين أيضا عدة كتب إغريقية إلى اللغة السريانية لفائدة الأطباء السريان، ومن بينهم سلمويه وبختشيوع بن جبرائيل والطيفورى والفيومى. وترجم كثيرا من المؤلفات لحساب يوحنا بن ماسويه، خصوصا مؤلفات جالينوس، مثل كتاب أسس المنطق وإعداد البراهين Syllogismes.

وكان القسم الأكبر من التراجم والإنتاج العلمى لحنين مدعوما ماليا من قبل عائلة بنى موسى الشهيرة. أجل، ترجم حنين إلى اللغة العربية لحساب الإخوة الثلاثة، أبو جعفر محمد وأحمد وعلى بن يحيى. وقام كل من الإخوة الثلاثة لعائلة بنى موسى المسلمة والمحسنة، بتمويل أعمال حنين وسفراته المتعددة إلى بلاد بيزنطة للبحث عن المخطوطات اليونانية القديمة، لأنهم كانوا يشتاقون إلى معرفة علم الرياضيات، وكانوا من محبى الفلسفة والعلم.

تراجم لكتب أرسطو

تنسب الكتب التى أعدها المؤلفون العرب مثل ابن جلجل و ابن النديم وابن أبى أصيبعة والقفطى إلى حنين الكثير من التراجم التى أنجزها بشغف كبير.

لقد أصغى حنين إلى صوت أرسطو، لذا نقل كتاب المقولات من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية. أجل ، وقد ترجم حنين كتاب العبارة.

ويذكر ابن النديم، فى كتابه الفهرست أنه ترجم أيضا كتاب الولادة والانحلال، ويضيف أن حنين كان قد بدأ فى إعداد نسخة باللغة السريانية من كتاب تحليل القياس، الذى أنهى ترجمته ابنه إسحاق. وترجم أيضا قسما من كتاب البرهان، وقد قام إسحاق فيما بعد بترجمة هذا الكتاب ترجمة كاملة.

غير أن هذه التراجم المنجزة باللغة السريانية قد تعرضت لسوء الحظ للضياع بأكملها تقريبا.

تراجم لكتب أفلاطون

يذكر ابن النديم والقفطى أن حنين أنجز ترجمة إلى اللغة العربية لكتاب الشرائع الذى كتبه الفيلسوف أفلاطون، والذى يتمثل فى نوع من الحوار فى اثنتى عشرة مقالة يعالج فيه الكاتب تكوين مدينة ممكنة (المدينة المثالية) مزودة بمجموعة كاملة من القوانين التى تنظم شئونها بعدالة للبلوغ إلى مدينة نموذجية.

وترجم إلى اللغة العربية كتاب أفلاطون التيميه Timéeعلى شكل ثلاث مقالات. فهل كان حنين هو الشخص الذى قام بتصحيح الترجمة العائدة إلى ابن البطريق ؟ يتطرق هذا الكتاب إلى فلسفة الطبيعة وعلم الفيزياء حسب أفلاطون.

ونقل حنين أيضا كتاب الجمهورية إلى اللغة العربية، ووضع له تعليقات مهمة. ويتمثل هذا الكتاب أيضا فى حوار من عشرة مقالات، يعرض فيه الكاتب المبادئ التى يمكن على أساسها إنشاء مدينة مثالية (المدينة الفاضلة)، حيث يحتل الفلاسفة الذين يعرفون الخير والعدالة، فى هذه المدينة المفترضة وظائف الحكام الذين يديرون شئونها على مبادئ العدل والعقل.

تراجم لكتب الإسكندر الأفروديزى وتيميستيوس

ترجم حنين من اللغة الإغريقية إلى اللغة السريانية كتاب المبادئ الخاصة بالكل بحسب رأى أرسطو وكتاب البحث حول الفرق بين المادة والجنس للكاتب الإسكندر الأفروديزى.

وأنجز مؤلفا يتعلق بموضوع المقولات، حمل اسم بحث المقولات بحسب رأى تيميستيوس.

وكان تيميستيوس هذا (٣١٧ – ٣٨٨) فيلسوفا وخطيبا إغريقيا عرف ببلاغته فى الكلام، أنجز تراجم زودها بالكثير من التعليقات لمؤلفات الفيلسوف أرسطو.

أسلوب حنين فى الترجمة

تمكن السريان منذ القرن السادس إلى القرن الثامن للميلاد، من إنجاز ترجمات وتفاسير عديدة لمختلف الأنواع من النصوص الإغريقية، ولكنها كانت تهمل فى بعض الأحيان بعض المقاطع أو تلخصها بدل أن تترجمها ترجمة كاملة. وكانوا ينقلون المصطلحات والعبارات الإغريقية نقلا لفظيا كما هو الحال فى مصطلح أوسيًا على سبيل المثال الذى يعنى الجوهر. ثم لجأوا فى عملهم إلى أسلوب آخر، يتمثل فى تحليل أصل المفردة الإغريقية التى ليس لها مفردة معادلة لها فى اللغة السريانية، عندئذ تُترجم على شكل أجزاء.

أصبح السريان حريصين على احترام النص اليونانى، واستخدموا لهذا الغرض أساليب تراجم متعددة، فكانت الكلمة اليونانية تترجم من قبل المثقفين بطرق عديدة.

استطاع هؤلاء المترجمون، خلال فترة الحكم العباسى، نقل العديد من المفردات الإغريقية إلى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية، ولم توجد فى الواقع أى ترجمة عربية منجزة للمنطق قبل التعرف بكتاب الأورجانون لأرسطو.

ولعب حنين بن إسحاق، منذ النصف الثانى من القرن التاسع، دوراً أساسيا فى إنجاز المؤلفات وترجمتها. ويوضح حنين فى رسالته المعروفة، طريقته فى الترجمة، بأنه كان يسافر للبحث عن المخطوطات وجلبها من الخارج، ثم كان يبدأ بمقارنتها للحصول على أساس النص الأصلى قبل المباشرة بالترجمة الدقيقة والأمينة والواضحة.

"لم يتمكن، إلى الآن، أيٌ من معاصرينا، من الحصول على مخطوطة كاملة لكتاب البرهان لجالينوس باللغة اليونانية، على الرغم من الكثير من الجهود المبذولة من قبل جبرائيل بختشيوع للبحث عنه. وقد بحثت كثيرا وقطعت المسافات الطويلة فى بلاد مابين النهرين (الجزيرة) وسوريا وفلسطين ومصر، لهذا الهدف، إلى أن وصلت إلى مدينة الإسكندرية، ولكنى لم أجد له أثرا، إلا فى دمشق حيث عثرت على نصف المخطوطة تقريبا، والتى كانت تحتوى على مقالات غير متسلسلة وغير كاملة. وكان أيضا جبرائيل قد عثر على قسم من أجزائها التى لم تكن مماثلة بأجمعها للمخطوطة التى عثرت عليها"(٥) .

كان حنين يقرأ كثيرا، وكان يشعر بنوع من الأحاسيس تجاه فكر وأسلوب الكتاب الذين عمل على ترجمة مؤلفاتهم، وكان يريد استيعاب المعنى الإجمالى والشامل للجملة قبل أن ينقلها إلى اللغة السريانية أو إلى العربية، رافضا بذلك الترجمة الحرفية للكلمة بكلمة أخرى؛ وباحثا عن الدقة فى النقل والتعبير فى نفس الوقت. وكان ينجز عدة ترجمات لنفس النص لكى يستوعب جيدا معنى هذا النص. واشتهر بمراجعته فى بعض الأحيان للتراجم القديمة التى أنجزها سابقا لتحسينها وإضفاء طابع الدقة عليها.

وقد قام على سبيل المثال بترجمة جديدة لبحث جالينوس الذى حمل عنوان ترتيب أعمال الشخص بنفسه الذى كان قد ترجمه سابقا إلى اللغة السريانية، بعد عشرين سنة من إنجازه للترجمة الأولى، كما يذكر ذلك لنا حنين نفسه.

"بعد أن حصلت على عدد معين من النسخ باللغة الإغريقية من هذا الكتاب، بدأت فى مقابلة النسخ مع بعضها بعناية تامة إلى أن تمكنت من الحصول على نسخة جيدة، وهى النسخة التى قابلتها بعد ذلك مع النسخة السريانية. ثم ترجمتها للمرة الثانية.

وكانت هذه هى العادة التى أتبعها، كما يضيف، فى كل الأعمال التى ترجمتها شيئا فشيئا إلى اللغة العربية لصالح أبى جعفر محمد بن موسى"[٦].

بذل حنين جهودا كبيرة للتمكن من صياغة لغة جديدة خاصة به، وإعداد مفردات تقنية ملائمة، وابتكار مصطلحات علمية عربية، تمكن من استحداث وتكييف مفردات أجنبية، وثابر فى عمله لإنجاز قاموس متخصص سريانى- عربى، حمل اسم شرح المفردات الإغريقية باللغة السريانية. وقد كرس هذا القاموس للتعبير عن مفاهيم علم المنطق والفلسفة الإغريقية.

وقد تمكن العرب، بفضل هذا العمل العملاق، من الاستفادة واستعمال العلوم الإغريقية التى انتشرت بعد ذلك انتشاراً واسعًا فى العالمين العربى والإسلامى.

ورث حنين الثقافة السريانية المسيحية، وغذّى فكره وروحه بالعلوم الإغريقية العريقة، وعاش فى وسط بغدادى أصيل، وانغرست فى بدنه وعقله وروحه الثقافة العربية والإسلامية. وتميّز حنين، الذى عمل بمساعدة مجموعة مختارة من المترجمين، بمستوى راق فى فن الترجمة، ولعب دورا كبيرا ومهما فى نقل المعرفة القديمة إلى السريان والعرب على حد سواء.

عرفت القرون الوسطى اللاتينية حنين باسم يوهانيسيوسJohannicius وكالت المدح والإعجاب بغزارة مواهبه الكبيرة فى أعماله المختلفة. ويبقى حنين الذى طالما ذكرته وتذكره الأعمال الأدبية العربية، أخيرا وليس آخرا وجها بارزا من وجوه القرن التاسع.

هوامش الفصل الثامن عشر

(١) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ٤٠٩ .

(٢) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ٢٦١ .

(٣) ابن جلجل ، كتاب طبقات الأطباء و الحكماء ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ٦٩ .

(٤) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ٢٦٠ .

(٥) حنين بن إسحاق، رسالة إلى على بن يحيى، ص ١١٥، ذكرها ب. لاندرون B. Landron فى مواقف نسطورية تجاه الإسلام Attitudes Nestoriennes vis-à-vis de l'Islam، كاريسكريبت Cariscript، باريس، ١٩٩٤، ص ٦٧-٦٨ .

(٦) مخطوطة أيا صوفيا Aya Sofya رقم ٣٦٣١، نشرها وترجمها ج. بيرجستراشير G. Bergstrasser، فى Humain ibn Ishaq über die syrischen and arabischen Galen-Ubersetzungen، الجزء ٢، ليبزج ١٩٢٥ .

الفصل التاسع عشر
إسحاق بن حنين (٩١٠)

بغداد، جنة الفكر

شهد القرن التاسع بزوغ عصر ذهبى للتراجم السريانية والعربية التى أخذت فى الازدياد والتكاثر التدريجي.

كان قد مر على تأسيس بغداد المدينة الجديدة، أكثر من قرن كامل، وأخذت تسبح فى فجر من الازدهار فى آفاق الحضارة الإنسانية الكبرى. بدأ عودها يشتد قوة وهى تنطلق باندفاعها الحيوى لكى تجتاز أبعاد نهر دجلة وتعبر محيطه لتستقر على الشاطئ الأيسر منه. وكانت تتأمل نفسها عبر صورتها المتألقة المنعكسة على سطح الماء الصافى، باسمة الثغر أمام الحياة فى صيفها الجميل تجاه المارين عبر مسالكها المتعددة، وهى ترحب بالمسافرين القادمين إليها وأيضا بالمفكرين والفلاسفة والعلماء الراغبين فى التوجه إليها.

يصف كتاب ألف ليلة وليلة بغداد بجنة الروح :

"مدينة السلام ومقام كافة الأفراح ودار المتع وجنة الروح"[1] .

كان سوق الوراقين الواقع جنوب المدينة يمتد من قنطرة طاق الحرانى إلى الجسر الجديد على القناة. كانت محلات الكتب العديدة ومخازن الورق (أصبح الورق رخيصا فى تلك الفترة) والمكتبات الزاهية، تفتح أبوابها واسعة على جانبى الشارع الكبير. وكان أصحاب المكتبات يقومون أيضا بدور المستنسخين وجمع الكتب. وكان المثقفون من أهل المدينة يتنزهون داخل السوق الكبير يتصفحون الكتب والمؤلفات القديمة

والمستعملة المعروضة تحت أنظارهم، وكان بإمكانهم مع قليل من الحظ أن يعثروا فى أعماق الحوانيت المظلمة على نسخ ثمينة لكتب أرسطو المترجمة من قبل حنين بن إسحاق ومساومة البائع على أسعارها. وكانت تراجم ابنه، أبى يعقوب إسحاق، قد شهدت نجاحا كبيرا وكان مرتادو المكتبات يتنافسون على اقتنائها.

إسحاق الأنيق والمثقف

كرس إسحاق بن حنين نفسه للفلسفة ودراسة اللغات الإغريقية والسريانية والعربية والفارسية. وتابع دراسة الطب. وأدخله والده حنين إلى بلاط العباسيين، أسوة بأخيه داود، حيث مارس مهنته النبيلة. كان شديد الارتباط بالخلفاء وكبار رجال الحاشية العباسية.

أمضى إسحاق حياة ميسورة ومثيرة للاهتمام، ويذكر لنا المؤرخ زاهر الدين البيهقى المتوفى عام (١١٧٠) أن إسحاق عرف كيف يكسب صداقة القاسم ووده. وكان القاسم هذا يحل فى كثير من الأحيان محل والده الوزير عبيد الله بن سليمان لدى الخليفة المعتمد (٨٩٢- ٩٠١)، وكان ماهراً فى تقديم الخدمات إلى هذا الخليفة.

تربع الخليفة المعتمد على عرش الخلافة العباسية بعد عدة خلفاء طائشين ومتهورين، لم تدم خلافتهم لفترة طويلة. وقد أثبت بسلوكه المستقيم أنه رجل دولة ذكى، ويتمتع بحيوية عالية وقدرة ممتازة على الإدارة. وكان يهوى الموسيقى والشعر، لذلك فقد استقدم إلى بلاط خلافته العلماء وشجع أعمالهم.

كان الوزير عبيد الله بن سليمان (٨٩١-٩٠١)، كما يبدو، منحدرا من عائلة مسيحية الأصل اعتنقت الديانة الإسلامية وتبنت المذهب السنى. يصف ابن النديم إسحاق بن حنين بعبارات التقدير والإعجاب فيقول:

"أبو يعقوب إسحاق بن حنين، فى نجار أبيه فى الفضل وصحة النقل من اللغة اليونانية والسريانية إلى العربية، وكان فصيحا بالعربية، يزيد على أبيه فى ذلك، وخدم من خدمه أبوه من الخلفاء والرؤساء، وكان منقطعا إلى القاسم بن عبيد الله وخصيصا به، مقدما عنده، يفضى إليه بأسراره"[٢] .

كان القاسم يبحث عن مرافقة ومعاشرة إسحاق الذى كان يقدر فى شخصيته حب الاستطلاع والأناقة والثقافة وتذوق الشعر، وجعل منه صديقه ورفيقه فى احتساء الشراب، وكان إسحاق يتبادل معه أبيات الشعر ويتسامر معه.

المترجم الموهوب

كان إسحاق قادرا على انتهاز الفرص والعثور على الوقت المناسب للتمتع باللهو والمرح، غير أنه كان يكرس كامل نهاره للدراسة والترجمة. وعمل فى (المؤسسة العائلية) التى أسسها والده مع ابن خالته حبيش وعدد من المترجمين الأكفاء، واهتم بالترجمة من اللغة الإغريقية إلى السريانية وبصورة خاصة إلى اللغة العربية. يتكلم ابن جلجل عن موهبة إسحاق فى الترجمة فيقول :

"فأما إسحاق، فخلفه (يقصد والده حنين) على الترجمة و تولاها فأتقنها وأحسن فيها، وكانت نفسه أميل إلى الفلسفة. و هو ترجم كتاب النفس للفيلسوف أرسطاطاليس فى سبع مقالات، وجده بتفسير ثامسطيوس "[٣] .

وقد ترجم عملين من أعمال جالينوس من اللغة الإغريقية إلى السريانية وخمسة مؤلفات أخرى إلى اللغة العربية. يذكر ابن أبى أصيبعة أن إسحاق قد قام مع عيسى ابن يحيى بترجمة كتاب عن البرهان لجالينوس إلى اللغة العربية. كما أنه أنجز بعض تراجم لأرسطو، لقد أكمل ترجمة كتابين إلى اللغة السريانية، وكان والده قد بدأهما وهما من كتب أرسطو القياس والبرهان ؛ وترجم وحده كتاب أرسطو المواضيع الجدلية Topiques. ونقل إسحاق كتاب المقولات، إلى اللغة العربية اعتبارا من ترجمة سريانية كان والده حنين فد ترجمها سابقا من اللغة الإغريقية.

ونجد فى المكتبة الوطنية فى باريس، فى المخطوطة الباريسية المرقمة ٢٣٤٦ (نهاية القرن التاسع - بداية القرن الحادى عشر)، نسخة لترجمة عربية أجراها إسحاق لكتاب العبارة[٤] ، وهى الترجمة التى ربما يكون إسحاق قد أنجزها اعتبارا من النسخة السريانية لأبيه حنين.

وقد نقل من اللغة السريانية إلى العربية كتاب الفيزياء أو فلسفة الطبيعة، المكتوب على شكل بحث يتكون من ثمانية كتب يعالج فيها أرسطو أسباب التغيرات التى نلاحظها فى الطبيعة، ويحلل بعض المفاهيم كالمادة والصورة والوقت واللانهاية والمكان والحركة.

ترجم إسحاق أيضا كتابين آخرين لأرسطو إلى اللغة العربية، هما كتاب عن الولادة والانحلال وكتاب عن النفس، وهذا الأخير هو عبارة عن بحث يدخل ضمن علوم الفيزياء، نظرا لأن النفس بالنسبة للمؤلف تمثل صورة لشكل الجسد. ويدرس الفيلسوف الإغريقى فيه طبيعة النفس والخواص المرتبطة بها، وقد أصبح هذا الكتاب بالتالى أساس مبادئ علم النفس الكلاسيكى.

ويذكر كتاب الفهرست أن إسحاق قد قام بترجمة المقالة ألفا الإغريقية (a) إضافة إلى مقالات أخرى من كتاب ما وراء الطبيعة الميتافيزيقية إلى اللغة العربية. ويتألف كتاب أرسطو هذا من ١٤ مقالة تم إعدادها على فترات مختلفة، وقام بجمعها بعد زمن طويل الكاتب أندرونيكوس الرودسى وحملت تسمية ميتافيزيكا، لأنه وضعها، حين جمعها، بعد مادة الفيزياء، وتتطرق مواضيعها إلى كينونة الأشياء والمادة والشكل والماهية والجوهر.

ويذكر لنا ابن النديم أن إسحاق كان قد ترجم عدة مقالات من كتاب الأخلاق إلى نيكوماك لأرسطو. ويمثل هذا الكتاب فى الواقع، أهم بحث كتبه أرسطو عن الأخلاق. ويقدم فيه عرضا منطقيا لقواعد المبادئ الأخلاقية لدى الإنسان الحر والحكيم، والذى يجب أن تكون أعماله موجهة نحو السعادة، غاية الحياة البشرية.

وترجم إسحاق كذلك الشروحات الإغريقية لأرسطو، ومن بينها نقل إلى اللغة العربية نسخة من كتاب الإسكندر الأفروديسى الذى حمل عنوان العقل بحسب رأى أرسطو. وكان الإسكندر هذا مدرسا يعمل فى مدينة أثينا، وقدم قسما كبيرا من الشروحات لأعمال أرسطو.

انشغل إسحاق كثيرا بترجمة شرح كتاب المواضيع الجدلية **Topiques** الذى ألفه الفيلسوف الإغريقى أمونيوس ونقله إلى اللغة العربية.

لم ينسَ إسحاق الفيلسوف الإغريقى الكبير أفلاطون ، إذ أنجز نسخة باللغة لعربية من كتاب السفسطى، الذى يتمثل فى حوار يبدأ بتقديم تعريف لمصطلح السفسطى ويبرهن فيه على وجود مفهوم المغالطة والخطأ.

كما نقل إلى اللغة العربية كتاب الوصية لتربية الشباب المنسوب إلى أفلاطون الذى يحتوى على عدد كبيرة من الحكم الأخلاقية السائدة فى الإمبراطورية العباسية[٥] .

وترجم إسحاق أيضا مؤلفات فى مواضيع الرياضيات والفلك، وخاصة تلك المؤلفات التى أعدها أقليدس وأرخميدس.

الأسلوب الرفيع

كان حنين ينجز ترجمة من اللغة الإغريقية إلى اللغة السريانية، بينما كان إسحاق ينجز ترجمة أخرى من اللغة السريانية إلى اللغة العربية. وقد أظهر فى ترجماته مهارة وصلت إلى قدرة عالية جدا على فهم وملازمة النص اليونانى ملازمة وثيقة.

ويقول ابن النديم فى هذا المجال إن تراجمه كانت دقيقة الأسلوب وواضحة ومنجزة بطريقة منهجية مطابقة للنص الأصلى. وساهم إسحاق فى العمل المعجمى، وكان يهدف إلى صياغة مفردات فنية ومنطقية باللغتين السريانية والعربية.

إلى جانب الترجمات تناولت مؤلفات كاتبنا إسحاق مواضيع عديدة عن المسائل الطبية والصيدلية، ومنها تأليفه لكتاب بعنوان الأخلاق والكلام الفلسفى.

وطلب منه صديقه القاسم تأليف بحث عن بداية الطب وعلاقته بتاريخ الفلسفة والدين، فقام للحال بكتابته، وهو البحث الذى حمل عنوان تاريخ الأطباء.

وقد حصل فى سنة ٩٠١ حدث كبير فى البلاط، وتوفى الوزير عبيد الله بن سليمان وخلفه ابنه القاسم فى هذا المنصب المهم. وانتقلت سلطة الخلافة فى السنة

التالية إلى الخليفة المكتفى (٩٠٢- ٩٠٨). ويذكر لنا البيهقى أن هذا الأمير طلب من إسحاق أن يصبح مستشارا له فى علم الفلك لشدة إعجابه به. لكل حياة قدرها ولكل وجود زمنه. فى ٩٠٤ ذاق إسحاق مرارة فقدان صديقه القوى القاسم بن عبيد الله. عاش بعد موت صديقه بضع سنوات، ففى ٩١٠ أصيب بسكتة دماغية ومات فى بغداد، مدينة الأناقة والمعرفة.

هوامش الفصل التاسع عشر

(١) كتاب ألف ليلة وليلة. وهناك ترجمة فرنسية نشرتها دار روبير لافون Robert Laffont، مجموعة الكتب، الجزء ٢، ص ٨٢٢ .

(٢) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٤١٥ .

(٣) ابن جلجل، كتاب طبقات الأطباء و الحكماء، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، انقاهرة ، ١٩٥٥ ص ٦٩ .

(٤) عن التفسير De l'Interprétation، نص منشور من قبل إي. بولاك I. Pollak، ليبزج، ١٩١٣ . ومن قبل عبد الرحمن بدوي A.R. Badawi، القاهرة، ١٩٥٤.

(٥) نشر لويس شيخو Louis Cheikho هذه النسخة في بيروت ، ١٩١١ .

الفصل العشرون

مساعدو حنين:

حُبيش وعيسى بن يحيى وعيسى بن على وقيدا

حُبيش بن العسَّام

كان حنين يشعر بعطف خالص تجاه ابن أخته حبيش المكنى بالعسَّام بسبب يده المشلولة، وتولى حنين لذلك مهمة تعليمه، وهكذا فقد علّمه اللغات الإغريقية والسريانية والعربية ومادة الطب. وكان حنين يبدى إعجابا واحتراما كبيرين لابن أخته، لأنه وجد فيه شخصا ذكيا ويتمتع بحدة فكرية عالية وقدرة سريعة على الاستيعاب.لكنه مقابل ذلك تنقصه المثابرة، لأنه كان أحيانا مهملا فى حياته.

مارس حبيش بن العسّام مهنة الطب فى بلاط الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١) وأظهر حماسا فى أداء مهنته، وتأثر كثيرا عند وفاة الخليفة مقتولا. واعتلى المنتصر (٨٦١-٨٦٢)، ابن الخليفة البكر وقاتل والده، عندئذ عرشَ الخلافة، وبقى حبيش فى خدمة أمير المؤمنين الجديد الذى لم يدم حكمه مدة طويلة لأنه توفى بعد ستة أشهر.

وقد عاش فى عهد الخليفة المعتصم (٨٦٢-٨٦٦) والخلفاء التالين له، ومات على الأرجح فى أواسط القرن التاسع.

أعماله الأصلية : حرر حبيش خمسة أعمال أصلية هى : بحث عن الأدوية البسيطة، وبحث عن نبضات القلب، وبحث عن الأغذية، وبحث عن مخففات الأدوية المسهلة، وبحث عن الاستسقاء. أجل، درس وتطرق إلى فروع الطب كافة. وقد ورد ذكر هذا المؤلف المشهور من قبل الفيلسوف والطبيب العربى الرازى (٨٦٤ - ٩٢٤).

عمل حبيش مع فريق خاله حنين، وقام بتراجم طبية إلى اللغة العربية، ونقل من اللغة السريانية إلى العربية قسمًا كبيراً من مجموعة مؤلفات جالينوس، أى حوالى ثلاثين كتابا، ومن بينها: أربع مقالات عن الأخلاق ومقالة واحدة من الكتابين : العادات، وكيف يستفيد الصالحون من أعدائهم، وقوى النفس خاضعة لاستعداد الجسد. وترجم حبيش كتاب جالينوس المعروف باسم "عن أفكار أبيقراطس وأفلاطون".

ويحتمل أن يكون قد نقل كتاب أبقراط إلى اللغة العربية . كما ترجم أيضا نصوصا فلسفية، وقام بتنقيح وتصحيح تراجم من سبقوه. وقد نسبت العديد من تراجم حبيش إلى حنين، كما يشهد على ذلك ابن النديم :

"قال محمد بن إسحاق : من سعادات حنين أن ما نقله حبيش بن الحسن الأعسم وعيسى بن يحيى وغيرهما، إلى العربى، ينحل إلى حنين. وإذا رجعنا إلى فهرست كتب جالينوس الذى عمله حنين لعلى بن يحيى، علمنا أنه الذى نقل حنين أكثره إلى السريانى، وربما أصلح العربى من نقل غيره أو تصفحه"[(١)].

وعلى الرغم من هذا الإجحاف بحقه، يبقى حبيش مترجما ممتازا لدى السريان.

عيسى بن يحيى بن إبراهيم

كان عيسى تلميذا لحنين وشريكا له في الترجمة، وساهم فى ترجمة قسم كبير من مؤلفات أرسطو والعديد من أعمال أفلاطون أيضا، وكان حنين يحب كثيرا تراجمه من اللغة السريانية ويعهد إليه بإنجاز الكثير منها.

يقول حنين بأنه ربما يكون قد ترجم هو أو عيسى بن يحيى أعمالا فلسفية لجالينوس لفائدة نصير العلوم محمد بن بنى موسى، وهى: بحث عن البراهين (٢-١١) وكيف يستفيد الصالحون من أعدائهم؛ والمحرك الأول الثابت؛ والطبيب الجيد يكون فيلسوفا.

عيسى بن على

يذكر ابن أبى أصيبعة أن عيسى بن على كان قد درس الطب على يد حنين بن إسحاق، ووضع خدماته تحت تصرف الخليفة المعتمد (٨٧٠-٨٩٢)، ابن الخليفة المتوكل.

وتمكن عيسى بن على، رجل المبادئ والقيم والكاتب المعروف، من أن يصبح واحدا من أفضل تلاميذ حنين. وكرس نفسه لدراسة الفلسفة، وحرر عدة مؤلفات مثل كتاب تذكرة الكحَّالين، الذى وضعه على شكل مذكرة موجهة إلى أطباء العيون، والذى تُرجم فيما بعد إلى اللغة اللاتينية ما بين القرن الثانى عشر والخامس عشر فى إسبانيا وإيطاليا.

قيدا الرهاوى

كان حنين يلجأ إلى التماس خدمات قيدا الرهاوى لمساعدته فى عمله، عندما كان يشعر بزيادة ثقل التراجم، وعدم قدرته على إنجاز هذه الكمية الكبيرة من الأعمال فى الوقت المطلوب، وكان يراجع تراجمه بطريقة منهجية.

وهناك شخصيات أخرى ومواعيد أخرى للالتقاء بها فى عاصمة العباسيين الواسعة.

هوامش الفصل العشرين

(١) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٤٠٣ .

الفصل الحادى والعشرون

أبو بشر متى بن يونس عالم المنطق (ت ٩٤٠)

كانت بغداد تعيش فى أوج ازدهارها، وتصدح بألحانها العذبة. إنها تمثل الصوت والقيثارة وأنغام الموسيقى؛ بغداد غارقة فى أفراحها ومباهجها، وهى ترسم على ثغرها ابتسامة صيفها الجميل للفنانين ورجال العلم والحكمة، وتبهرهم بأضواء حواراتها ونقاشاتها الطويلة مثل الإبهار الذى يمنحه بريق ألوان الألعاب النارية.

جاء معلمون هائمون بعلم المنطق إلى بغداد خلال منعطف القرنين التاسع والعاشر، لكى يسكنوا فيها وتسكن فيهم.

سمعة أبى بشر متى

عاش فى هذه الفترة الزمنية الجميلة، فى مدينة السلام، طبيب مشهور وفيلسوف ومترجم يدعى أبا بشر متى بن يونس، وتجاوزت شهرته وحكمته أسوار المدينة العالية. كتب ابن النديم مقدما له قائلا :

"أبو بشر متى بن يونس، وهو يونان من أهل دير قنى، ممن نشأوا فى إسكول مرمارى. قرأ على قويرى، وعلى روفيل وبنيامين وعلى أبى أحمد بن كرنيب، وله تفسير من السريانى إلى العربى. وإليه انتهت رياسة المنطقيين فى عصره"[١].

أنجز أبو بشر دراسته فى دير قونى وعلَّم فى مدرسة دير مار مارى. ويذكر لنا ابن النديم راهبين يعقوبيين من بين أساتذة متى، هما روفيل وبنيامين إضافة إلى أبى أحمد بن كرنيب المسلم، الذى كان تلميذا قديما من تلاميذ الكندى، فيلسوف العرب الأول (٨٦٦)، وعمل بوظيفة كاتم أسرار.

وتابع أبو بشر متى أيضا دروس معلمَيْن آخرَيْن هما: إبراهيم قويرى، أحد الفلاسفة المعروفين، وأبو يحيى المروزى، الطبيب والفيلسوف المعروف هو أيضا. وكان هذا الأخير سريانياً، يكتب مؤلفاته كلها باللغة السريانية، وهى المؤلفات التى تناول فيها علم المنطق ومواضيع مختلفة أخرى. وبرز فى نفس الفترة عالم منطقى آخر هو يوحنا ابن حيلان من مدينة مرو.

وصل أبو بشر إلى مدينة بغداد، وارتبط بعلاقة صداقة مع رجل أصغر منه سنا هو أبو نصر الفارابى (٩٥٠). وقد جاء الفارابى، تركى الأصل، إلى مدينة السلام ليدرس المنطق وعلوم الميتافيزيقيا فيها، وتابع هو أيضًا دروس يوحنا بن حيلان. وتلقَّى أبو بشر متى تعليما متينا ومتنوعا، نظرا لانتساب أساتذته إلى مناطق مختلفة ولاعتناقهم ديانات ومذاهب متعددة.

يشرح لنا الفارابى بداية الحلقات المتعاقبة لتدريس الفلسفة، فى نص احتفظ به ابن أبى أصيبعة، يحدثنا فيها عن أبى بشر متى، الذى كان حلقة الوصل فى حكايته التى يرويها لنا، فيقول:

"وحكى أبو نصر الفارابى فى ظهور الفلسفة ما هذا نصه. قال : إن أمر الفلسفة اشتهر فى أيام ملوك اليونانيين، وبعد وفاة أرسطوطاليس بالإسكندرية إلى آخر أيام المرأة (كليوباترة). وإنه لما توفى بقى التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكا، وتوالى فى مدة ملكهم من معلمى الفلسفة اثنا عشر معلما، أحدهم المعروف بأندرونيقوس. وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة، فغلبها أغسطس الملك من أهل رومية، وقتلها واستحوذ على الملك.

فلما استقر له الملك نظر فى خزائن الكتب وصنعها، فوجد فيها نسخًا لكتب أرسطوطاليس قد نسخت فى أيامه وأيام ثاوفرطس، ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتبا فى المعانى التى عمل فيها أرسطو، فأمر أن تنسخ تلك الكتب التى كانت نسخت فى أيام أرسطو وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقى. وحكم أندرونيقوس فى تدبير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخا يحملها معه إلى رومية ونسخا يبقيها فى موضع التعليم بالإسكندرية، وأمره أن يستخلف معلما يقوم مكانه بالإسكندرية ويسير معه إلى رومية.

فصار التعليم فى موضعين، وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية. وبقى بالإسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية فى ذلك، واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل، فرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده، لأنهم رأوا فى ذلك ضررا على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم، فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقى مستورا، إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة.

فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، وبقى بها زمنا طويلا إلى أن بقى معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو. فأما الذى من أهل مرو فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزى والآخر يوحنا بن حيلان. وتعلم من الحرانى إسرائيل الأسقف وقويرى وسار إلى بغداد، فتشاغل إبراهيم بالدين، وأخذ قويرى فى التعليم وأما يوحنا بن حيلان فإنه تشاغل أيضا بدينه وانحدر إبراهيم المروزى إلى بغداد فأقام بها. وتعلم من المروزى متى بن يونان، وكان الذى يُتعلم فى ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية " (٢).

كان أبو بشر متى بن يونس وريث التقاليد الإغريقية السريانية المشبعة بفلسفة الإسكندرية، وقد قدم مساهمته القيمة فى ترجمة وتفسير الفلسفة والمنطق، وسهَّل نقلها إلى العرب.

كان المنطق، بالنسبة للسريان الذين تبعوا أرسطو منذ زمن طويل، يمثل وسيلة لدراسة الفلسفة. وكان يستخدم لديهم أيضا لشرح المفاهيم اللاهوتية والنحوية. كان سرجيوس الراسعينى قد بين أهمية المنطق، واعتبره مفتاح كل معرفة.

وقام حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين بعد ذلك، بترجمة كتب المنطق لأرسطو؛ إذ ترجم حنين إلى اللغة السريانية كتاب أسس المنطق وأقساما من دراسة المنطق لجالينوس، خصوصا كتابه المعروف عن البرهان. كما قام إسحاق هو أيضا بترجمة قسم من بحث البرهان، إلى اللغة العربية.

التراجم والشروح

لم يكن أساتذة المنطق السريان في القرن العاشر الميلادى يعرفون اللغة الإغريقية جيدا، وكانت التراجم تنجز دائما اعتبارا من الترجمات السريانية القديمة من القرنين الثامن والتاسع، وبذلك كان هؤلاء الأساتذة يجدون في مثل هذه التراجم نسخا تقدم عرضا أكمل لمنطق أرسطو.

يخبرنا ابن النديم أن أبا بشر متى ترجم كتاب أرسطو الحكمة المموهة إلى اللغة السريانية، لكنه ترجم إلى اللغة العربية كتاب البرهان لأرسطو عن النسخة السريانية لإسحاق بن حنين (٣).

ونقل إلى اللغة العربية قسما من كتاب السماء لأرسطو الذى يبحث فى حركات الأجسام السماوية والأرضية، إضافة إلى كتاب الشعر لأرسطو الذى يتطرق إلى تحليل عام للفن وبصورة خاصة الشعر الملحمى والرثائى والكوميدى الهزلى.

أعطى أبو بشر متى مكانة الصدارة فى بغداد لدراسة الفلسفة الأرسطوطالية، استنادا إلى شروح الإسكندر الأفروديسى وثيميستيوس، إذ ترجم إلى اللغة العربية شرح الإسكندر الأفروديسى لكتاب الولادة والانحلال لأرسطو، وترجم كذلك شرح كتاب ألفا (a) عن الميتافيزيقية، كما يخبرنا بذلك ابن النديم. وترجم أبو بشر متى أيضا شرح تيميستيوس عن الميتافيزيقية لأرسطو، كتاب ألفا. وقام بترجمة كتاب الشرح الكبير لأولبيور الإسكندرى والإرصادات الجوية لأرسطو، وهى دراسة ظواهر التقلبات الجوية.

البراعة فى الشرح

يعلمنا ابن خلكان (١٢١١- ١٢٨٢)، المؤرخ الذى يعود أصله إلى مدينة أربيل، أن متى بن يونس عالم المنطق كان يدير مجلسا فلسفيا مشهورا فى بغداد. ويبدو بحسب رأيه، أنه كان الأستاذ الذى علَّم الفارابى .

لما دخل الفارابي بغداد كان بها أبو بشر متى بن يونس الحكيم المشهور، وهو شيخ كبير، وكان يقرأ الناس عليه في المنطق، وله إذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية، ويجتمع في حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق، وهو يقرأ كتاب أرسطوطاليس في المنطق، ويملي على تلامذته شرحه، فكتب عنه في شرحه سبعين سفرا، ولم يكن في ذلك الوقت أحد مثله في فنه، وكان حسن العبارة في تآليفه لطيف الإشارة، وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذليل، حتى قال بعض علماء هذا الفن : ما أرى أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة إلا من أبي بشر يعني المذكور، وكان أبو نصر يحضر حلقته في غمار تلامذته"[٤].

إن الشروحات والمختصرات التي كتبها أبو بشر متى في السريانية قد تعرضت للضياع، وقدم شرحا باللغة العربية لعدة كتب لأرسطو، لكن الزمن أضاع قسما كبيرا منها، ولم يبق للأسف من كتب وتراجم أبي بشر إلا بعض الكتب المنجزة باللغة العربية وهي :

– المخطوطة المحفوظة في باريس للأورغانون[٥]، إنها تحتوي على ترجمة كتاب البرهان الذي أنجزه متى وتفسيرات لكتاب القياس والبرهان وكتاب المواضيع الجدلية إضافة إلى كتاب إيساغوجي لفرفوريوس.

– الترجمة المنجزة من قبل أبي بشر متى للتفسير الذي وضعه الإسكندر الأفروديسي عن الميتافيزيقية.

– ترجمة العروض الشعرية التي أصبحت مصدرا لدراسات لاحقة لعدة أنواع من الحجج والبراهين المنطقية.

– تفسيرات متى للفيزياء[٦].

نقاش صاخب حول المنطق وقواعد اللغة

حدث رد فعل تقليدي أثارته طبقة رجال الدين في القرن التاسع والعاشر الميلاديين. وأدى رد الفعل هذا إلى إدانة ادعاء الفلسفة الإغريقية بإمكانها الوصول إلى الحقيقة الشاملة، وإلى رفض تأثير المنطق على المجتمع.

وارتفعت النقاشات الحادة، فى تلك الفترة الزمنية، التى كانت تنطلق فى أغلب الأحيان فى المجالس الأدبية والفلسفية المنظمة فى مدينة بغداد. وكانت النقاشات الدائرة فى هذه المجالس التى كان يحضرها ويرتادها المسيحيون والمسلمون واليهود والصابئة وجميع الباحثين عن الحكمة على حد سواء، تدور حول المسائل الميتافيزيقية أو الفلسفية، وكان الأساتذة والتلاميذ يجيبون على الاعتراضات أو يرفضونها، بينما كان خصومهم يقدمون اعتراضات جديدة على الاعتراضات الأولى أو يرفضونها بدورهم أيضا. وكانت الردود السريعة والاستنتاجات تندفع معللة بالحجج والبراهين.

وحدث حوالى سنة ٩٣٧ الميلادية أن نشب خلاف شديد، فى مجلس الوزير أبى الفتح بن الفرات حول علاقة المنطق بقواعد اللغة العربية. وتم الاتفاق على إجراء مقابلة أمام المدعوين المجتمعين فى هذا المجلس بين خصمين، الأول هو اللاهوتى والنحوى المسلم أبو سعيد السيرافى والآخر هو المنطقى المسيحى أبو بشر متى.

نقل لنا الحوار أبو حيّان التوحيدى (٩٢٢-١٠٢٣) فى الليلة الثامنة من كتابه الشهير كتاب الإمتاع وهو عبارة عن سلسلة خطابات تتناول المواضيع الأدبية والفلسفية.

أبو بشر متى – الذى يصفه التوحيدى خبثًا بأنه سكير يرغب فى بيع معرفته للانتفاع منها، ومنحاز إلى جانب المنطق – أكّد على أن المنطق هو الأداة الضرورية لتمييز الحقيقة عن الكذب والصالح عن الطالح، ويتعامل المنطق مع مفاهيم تحكمها قوانين للتفكير السليم، أمّ قواعد اللغة فإنها تتعامل مع كلمات لبناء خطاب جيد فقط.

اعترض التقليدى أبو سعيد السيرافى على كلام أبى بشر متى، وبات يهاجم موضوع تأثير وهيمنة المنطق الذى يعتبر نفسه القانون والقاضى. ووجه اللوم إلى متى لانحيازه الى الإغريق ولعدم إتقان لغتهم. قال إن القواعد التى تبحث وتنظم كلمات لغة معينة تستطيع وحدها تمييز الاستخدام الصحيح من الخطأ، فطريق الخطاب المنطقى يمر عبر قواعد لغة خاصة، اللغة العربية تستند إلى القرآن والعقل يخضع للوحى.

استمر أبو بشر متى فى الدفاع عن المنطق وعن ادعاءاتٍ حول البحث عن الحقيقة.

فقال السيرافي : ألا توجد حقيقة أخرى من غير تلك التى يقترحها الإغريق ؟ أجابه متى: كلاّ، لأن الإغريق اهتموا بالحكمة، وبفضلهم انتشرت العلوم والفنون فى العالم .

فى هذه الأجواء البغدادية المحبة للجدال، واجه أبو بشر متى، الرجل المسن، تحديات أبى سعيد السيرافى اللغوية. انقلب المجلس إلى هرج ومرج، وضحك الوزير والحاضرون على حساب رئيس المنطقيين، لأنه فاز عليه النحوى، فترك أبو بشر هذا المجلس الفخم بامتعاض شديد.

بعد فترة من الزمن استطاع تلميذان من تلاميذ أبى بشر متى، وهما يحيى بن عدى السريانى وأبو نصر الفارابى أن يعالجا ما أعطبه سكوت معلمهما فى ذلك المجلس. لقد دافعا عن المنطق باعتباره أداة شاملة تحدد وتخصص للقواعد اللغوية قوانينها، وذلك فى صياغة مفردات لغة معينة. بالنسبة لأبى نصر الفارابى، المنطق يعالج قواعد الخطاب عن طريق تطبيقها بصورة شاملة على لغات البشر كافة وليس على لغة معينة.

وقد أعطى الفيلسوف المشهور عبدالله بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧)، الفارسى الأصل المعروف لدى الغرب، للفلسفة ولعلم المنطق أيضا مكان الصدارة فى العلوم، حيث يقول :

"إن المنطق بالنسبة للتفكير يعادل القواعد بالنسبة للخطاب والعروض بالنسبة لبيوت الشعر. الطبيعة السليمة والذوق السليم قد يعوضان عن القواعد وعروض الشعر. ولكن الطبيعة البشرية لا تستطيع الاستغناء عن المنطق فى تأملاتها، إلا إذا كان الله قد حباها بامتياز خاص"(٧).

على أن أبا بشر متى، قد استحق بجدارة مع ذلك الكنية التى أطلقها عليه معاصروه من الفلاسفة، ألا وهى تسمية "المنطقى".

هوامش الفصل الحادى والعشرين

(١) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٦٨ .

(٢) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٦٠٤-٦٠٥

(٣) باريس، المكتبة الوطنية، فى المخطوطة Parisinus ar، رقم ٢٣٤٦ .

(٤) ابن خلكان، كتاب وفيات الأعيان، الجزء الخامس ص ١٥٣و ١٥٤، دار الثقافة، بيروت، لبنان .

(٥) باريس، المكتبة الوطنية، المخطوطة رقم ٢٣٤٦ .

(٦) الفيزياء، الكتاب الثانى، ٣ والثالث. وهما محفوظان فى لايد Leyde، المخطوطة رقم ١٤٣٢ .

(٧) ابن سينا، ترجمة مذكور، ص ٣ .

الفصل الثانى والعشرون

يحيى بن عدى الحكيم (٨٩٣ - ٩٧٤)

عاش عالم المنطق أبو زكريا يحيى بن عدى فى عصر البويهيين. كان الأب بُويه الذى يرجع أصله إلى سواحل بحر قزوين ينتمى إلى نسب متواضع، وقد نجح مع ذلك، بمساعدة أولاده الثلاثة فى تأسيس سلالة حملت اسم السلالة البويهية. وهكذا أصبح أحمد سيد البصرة وواسط ثم جاء بعد ذلك إلى بغداد، وتمكن من الدخول إلى مدينة بغداد سنة ٩٤٥ منتصرا واستقبله الخليفة المستكفى (٩٤٤- ٩٤٦). وقام، بعد تسلمه السلطة واتخاذه لقب الأمير الكبير، بإعفاء الخليفة وفرض الخليفة المطيع (٩٤٦ - ٩٧٤) خلفًا له.

كانت بغداد، وعلى الرغم من الاضطرابات المدنية والعسكرية التى سادت فى أواسط القرن العاشر، إحدى أجمل مدن العالم وأكبرها، بمبانيها الكبيرة ومآذنها وكنائسها ومدارسها ومراكزها التجارية، ومكتباتها ومقاهيها وحماماتها وحدائقها الغناء. وكانت ترفع صوتها بتناسق تام مع شهرتها، وتطلب دائما من علماء الرياضيات والفلك والطب والفلسفة التوجه إليها والمجىء للبقاء فيها.

وكان رجال الحكم فيها مثل الوزير العريد بن سعدان وعلماؤها مثل أبى سليمان السجستانى يفتحون مجالسهم أمام العلماء المسلمين والمسيحيين والصابئة واليهود الذين كانوا ينهلون من العلوم القديمة ويكتسبون المعارف ويدرسونها فى هذه المجالس وغيرها. كانت الأفكار والمشاعر تلتهب فى أجوائها وتتوهج فى نقاشاتها الدائمة. ترعرع فيلسوفنا فى هذه الأجواء الاجتماعية والثقافية الراقية .

سجل الرحالة المعروف المقدسي (ت ٩٩٠) الذى كتب فى ذلك الزمن كتابا مشهورا عن الجغرافيا، بكل حماس، أجواء بغداد :

"بغداد، هنا نجد المواهب التى يتحدثون عنها، هنا الأناقة والمجاملات. رياحها تداعب الأبدان وعلومها تخترق القلوب، هنا تجد الأفضل والأجمل. من بغداد ينبع كل ما يستحق التقدير وكل اللباقة تعود إليها، نحوها تتجه كل القلوب، ولكن كل الحروب تشن ضدها"(١) .

ولد فى مدينة تكريت وعاش فى بغداد

كان أبو زكريا يحيى بن عدى عالما مسيحيا ومناقشا بارعا ومنطقيا لامعا. يذكر لنا ابن العبرى أنه ولد سنة ٨٩٣ ليس فى بغداد ولكن فى مدينة تكريت، المدينة الواقعة على ضفاف نهر دجلة بين مدينتي بغداد والموصل. وقد اعتنقت تكريت الديانة المسيحية في وقت مبكر، وأصبحت مركزا مهمًا لكنيسة السريان الأرثوذكس. وكانت مقرا لكرسى المفريان، من سنة ٦٢٩ إلى ١١٥٦ .

تعلم ابن عدى اللغة السريانية منذ طفولته، وكان ينطق بها، وحرر مؤلفاته الأولى بلغته. ثم تعلم اللغة العربية وتوجه إلى بغداد وارتاد دروس أساتذة عصره، وقرأ على أبى بشر متى، وعلى أبى نصر الفارابى، واتخذ مقامه فى قلب العالم النابض.

خصص ابن النديم معلومات ببليوجرافية عن سيرة يحيى بن عدى، وكان يزوره ويطلع على مكتبته الغنية. يقول ابن النديم عنه :

"أبو زكريا يحيى بن حميد بن زكريا المنطقى، وإليه انتهت رياسة أصحابه فى زماننا. قرأ على أبى بشر متى، وعلى أبى نصر الفارابى، وعلى جماعة، وكان أوحد دهره، ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية، قال لى يوما فى الوراقين، وقد عاتبته على كثرة نسخه، فقال : من صبرى ! قد نسخت بخطى نسختين من تفسير الطبرى، وحملتهما إلى ملوك الأطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ولعهدى بنفسى وأنا أكتب فى اليوم مائة ورقة وأقل"(٢) .

كان يحيى بن عدى يتردد كثيرا على حارة باعة الكتب فى بغداد، والتى كانت تسمى فى ذلك الوقت حارة الوراقين. كان يفتش فى الحوانيت للبحث عن نصوص قديمة لاستنساخها أو لترجمتها، وتمكن بذلك من أن يكون لنفسه مكتبة واسعة. وكان يحيى بن عدى يدرس الطب، وينسخ بصبر شديد نصوصا فلسفية ولاهوتية عديدة للتمكن من كسب قوته.

يقول الببليوجرافى المصرى، القفطى، إن يحيى بن عدى كان ينظم دروسا للقراءة العامة فى منزله. وكان يستقبل الطلاب الذين كان يشرح ويفسر لهم أعمال أرسطو بشكل واضح، لكى يتمكنوا من استيعاب هذه الأعمال بسهولة وبدون تعقيد. وكان حبّ الفلسفة الإغريقية يجمعه مع ممثلى الأوساط المسيحية السريانية والعربية المسلمة على حد سواء.

كان يحيى بن عدى يشارك فى المجالس التى أخذت تزداد فى بغداد يومًا بعد يوم، ويشهد أبو حيان التوحيدى، بأن يحيى كان يمنح لهذه المجالس الفلسفية والأدبية مهارة المعلم الماهر :

" وقد برع فى مجلسه أكثر هذه الجماعة، ولم يكن يلوذ بالإلهيات، كان ينبهر فيها ويضل فى بساطها، ويستعجم عليه ما جلَّ ، فضلا عما دقّ منها؛ وكان مبارك المجلس" (٣) .

كان المستمعون يتسارعون للإحاطة بالأستاذ، وكانوا يلجأون إليه لاستشارته بتوجيه الأسئلة إليه لحل المشاكل الصعبة التى كان يجيب عنها بصوته الجهورى.

وأصبح أخوه إبراهيم المساعد المقرَّب لأبى نصر الفارابى قبل أن يستقر هذا الفيلسوف فى بلاد سوريا سنة ٩٤١، فعين عندئذ يحيى بن عدى أخاه رئيسا فى مدرسته الخاصة.

وكتب المؤرخ والجغرافى المشهور المسعودى سنة ٩٥٦ عن ابن عدى مقارنا إياه بأبى نصر الفارابى قائلا :

"كنا نلتقى أبا نصر الفارابى . لم يكن فى عصرنا هناك شخص يفوقه علما ونستطيع الاعتماد عليه فى هذا الموضوع (الفلسفة) غير شخص نصرانى فى بغداد معروف

باسم أبى زكريا يحيى بن عدى الذى أحيا بتعليمه ونظرته وأسلوبه طريقة محمد بن زكريا الرازى، أى نظرية الفيثاغورسيين على الفلسفة الأولى(٤) .

ابن عدى المؤلف والمترجم

كان يحيى بن عدى مؤلفا تميز بفكره الخصب، وكرس حياته للعلم. وقد استمر، نظرًا لإتقانه اللغتين السريانية والعربية، فى إنجاز تراجم المؤلفات الفلسفية والعلمية الإغريقية، فهل كان يعرف اللغة الإغريقية أيضا ؟

لقد ألّف وشرح وترجم حوالى ١٤٠ كتابا ضمنها بعض التراجم من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، ودراسات فلسفية مع شروح وملخصات. ويعرض القفطى فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء قائمة طويلة لتآليف فيلسوفنا فيقول :

"و له من التصانيف فى التفاسير والنقول كتاب نقض حجج القائلين بأن الأفعال خلق الله واكتساب للعبد، وتفسير كتاب طوبيقا لأرسطوطاليس، وكتاب مقالة فى البحوث الخمسة من الرءوس الثمانية، وكتاب فى تبيين الفضل بين صناعتى المنطق الفلسفى والنحو العربى، وكتاب فى فضل صناعة المنطق، وكتاب هداية من تاه إلى سبيل النجاة"(٥).

كان يحيى بن عدى يمتلك ثقافة عميقة فى فلسفة أرسطو وكان متحمسا شديدا لعلم المنطق "ذلك الفن المستخدم للتمييز بين الصحيح والخطأ فى العلم النظرى وبين الخير والشر فى العلم التطبيقى." وكان يسمى بالمنطقى، مثله مثل أستاذه أبى بشر.

وقد ترجم يحيى بن عدى من اللغة السريانية إلى العربية كتاب المواضيع الجدلية Topiques لأرسطو معتمدا على الترجمة السريانية التى أجراها إسحاق بن حنين من اللغة الإغريقية. وقام بتحرير شرح طويل عن كتاب المواضيع الجدلية Topiques كما ذكر لنا ذلك ابن النديم والقفطى.

نسب إليه تلميذه ابن سوار ترجمة النسخة العربية من كتاب الحكمة المموهة من النسخة السريانية التى أنجزها أثناسيوس البلدى، أو من النسخة التى أنجزها تيوفيلس الرهاوى، وترجم من اللغة السريانية إلى اللغة العربية الكتاب الثانى للفيزياء مستندا على ترجمة حنين من اللغة الإغريقية إلى اللغة السريانية.

ويذكر الفيلسوف العربى محمد بن رشد (١١٢٦-١١٩٨) أن يحيى بن عدى قام بترجمة المقالة لمدا Lamda من كتاب ميتافيزيقية أرسطو. ذكر القفطى أن يحيى شرح أيضا كتاب الألفا الصغير من ميتافيزيقية أرسطو، أجل هناك مخطوطة مكتبة بهار فى كلكتا لهذا الشرح. كما أنه اهتم اهتماما كبيرا بالمفسرين الإغريق الكبار لأرسطو ومن بينهم تيميستيوس والإسكندر الأفروديسى، وقام بترجمة وتصحيح الشرح الذى أجراه تيميستيوس على كتاب عن السماء والعالم.

وشرح يحيى كتاب البحث حول الفرق بين المادة والجنس للإسكندر الأفروديسى والذى كان حنين قد سبق وأن ترجمه. وقام أيضا بتصحيح شرح الإسكندر للكتاب الأول لفيزياء أرسطو المترجم إلى اللغة العربية.

وكان يحيى بن عدى يهتم أيضا بأفلاطون، وترجم كتابه القوانين إلى اللغة العربية. ويخبرنا ابن النديم أنه قام بتصحيح النسخة العربية لكتاب التميه Timée التى سبق وأن قام حنين بإنجازها.

وقد أنجز فيلسوفنا المنطقى هذا تراجمه طبقا للأسلوب الذى كان قد سبق إعداده من قبل مدرسة حنين، وكان يستند فى عمله إلى إجراء نوع من المقابلة بين المخطوطات مع إجراء دراسة نقدية للمصادر. وكان يقوم بذلك اعتبارا من النصوص الإغريقية المترجمة إلى اللغتين السريانية والعربية. وكان لا يتردد فى مراجعة وتصحيح بعض من تراجم المترجمين السابقين، وكان يستخدم أخيرا المفردات التقنية.

وكان يحيى بن عدى يمتلك فى الواقع معرفة ممتازة فى فن الترجمة، كما أخبرنا بذلك ابن أبى أصيبعة قائلا :

"وكان أوحد زمانه، ومذهبه من مذهب النصارى اليعقوبية، وكان جيد المعرفة بالنقل "(٦).

بحث فريد : تهذيب الأخلاق

حمل واحد من هذه البحوث، والذى لم يتميز بطابع مذهبى أو طائفى، عنوان : تهذيب الأخلاق. وهو عبارة عن كتاب يحمل جودة أدبية راقية، وأعيد طبعه لمرات عديدة وقرأته الطوائف المسيحية والمسلمة في الشرق وقامت بشرحه. وسبق هذا العمل كتاب مسكويه (ت١٠٣٠) الأخلاق بأكثر من خمسين سنة.

يبدأ يحيى كتابه هكذا :

"اعلم أن الإنسان من بين سائر الحيوان، ذو فكر وتمييز. وهو أبداً يحب من الأمور أفضلها ومن المراتب أشرفها ومن المقتنيات أنفسها، إذا لم يعدل عن التمييز فى اختيارها، ولم يغلبه هواه فى اتباع أغراضه.

وأَوْلى ما اختاره الإنسان لنفسه ولم يقف دون بلوغ الغاية منه، ولم يرضَ بالتقصير عن نهايته - تمامه وكماله. ومن تمام الإنسان وكماله أن يكون مرتاضا بمكارم الأخلاق ومحاسنها ومتنزها عن مساوئها ومقابحها، آخذا فى جميع أحواله بقوانين الفضائل، عادلا فى كل أفعاله عن طرق الرذيلة .

وإذا كان ذلك كذلك، كان واجبا على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعايب، ويصرف همته إلى اقتناء كل خلق كريم خالص من الشوائب، وأن يبذل جهده فى اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة، ويستفرغ وسعه فى اطراح كل خلة مذمومة دنيئة . حتى يجوز الكمال بتهذيب خلائقه"(٧).

ثم يتطرق المؤلف للتعريف بمفهوم الأخلاق ويشرح أهمية الوصول الى الأخلاق الحسنة، لأن أكثر الناس مجبولون على الأخلاق السيئة ويؤكد أن الغالب على طبيعة الإنسان الشر. لذا من الضرورى تدريب الذات على الأخلاق الحسنة والحصول على الفضائل الأساسية.

هو ذا قول ابن عدى

"وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه، ولم يستعمل الفكر ولا التميز ولا الحياء ولا التحفظ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم، وذلك أن الإنسان إنما يميز عن البهائم بالفكر والتميز، فإذا لم يستعملها كان مشاركا للبهائم فى عاداتها، والشهوات مستولية عليه والحياء غائب عنه والغضب يستفزه، والسكينة غير حاضرة له، والحرص والاحتشاد ديدنه، والشر لا يفارقه. فالناس مطبوعون على الأخلاق الرديئة ومنقادون للشهوات الدنيئة" (٨).

كل إنسان مدعو أن يعرف ذاته وأن يعلم أنه فرد من أفراد البشرية، وعليه السير بدرب الحق والعدل الذى يقوده إلى محبة الناس جميعًا ، فيقول :

"وينبغى لمحب الكمال أيضا أن يعوِّد نفسه محبة الناس جميعًا، والتودد إليهم والتحنن عليهم، والرأفة والرحمة لهم. فإن الناس قبيل واحد متناسبون، تجمعهم الإنسانية، وحلية القوة الإلهية التى هى فى جميعهم وفى كل واحد منهم، وهى النفس العاقلة، وبهذه النفس صار الإنسان إنسانا، وهى أشرف جزأى الإنسان اللذين هما النفس والجسد. فالإنسان فى الحقيقة هو النفس العاقلة، وهى جوهر واحد فى جميع الناس، والناس كلهم فى الحقيقة شيء واحد، والأشخاص كثيرون"(٩).

يوجه ابن عدى كلامه للحكام وللرؤساء قائلا :

"فبحق يجب لمحب الكمال أن يكون محبًا لجميع الناس، متحننا عليهم، رءوفًا بهم، وخاصة الملك والرئيس. فإن الملك ليس يكون ملكا، ما لم يكن محبا لرعيته رءوفًا بهم، وذلك أن الملك ورعيته، بمنزلة ربّ الدار وأهل داره، وما أقبح رب الدار إن يبغض أهل داره ولايتحنن عليهم ولا يحب مصالحهم(١٠).

ينصح يحيى بن عدى الفرد بتهذيب النفس بالفضائل والسلوك العادل والمتزن. ويتمكن الفرد من الوصول تدريجيا، عن طريق التربية، إلى التحكم فى أعماله وتصرفاته وتفادى الرذائل والارتقاء إلى أعلى مستوى إنسانى من الكمال.

إذا اعتاد الإنسان على محبة إخوته، فإنه يبلغ عندئذ مستوى الحكمة التى يمكن مقارنتها باللؤلؤة التى تمنح روح الإنسان أفضل جواهرها.

توفى يحيى فى مساء يوم ١٣ آب (أغسطس) ٩٧٤ عن عمر ناهز الحادية والثمانين. ودفن فى كنيسة مار توما اليعقوبية الواقعة فى الحى المسيحى بمدينة بغداد.

ويذكر لنا ابن أبى أصيبعة نص الكتابة الشعرية المنقوشة على رخام قبره، نقلا عن تقليد موروث رواه له أبو على عيسى بن زرعة[١١]:

"رب ميت قد صار بالعلم حيا ومبتقى قــد مات جهلا وعيا

فاقتنوا العلم كى تنالوا خلودا لا تعدوا الحياة فى الجهل شيئا"

كان ظاهر الدين البيهقى (ت١١٧٠) محقا تماما حين أطلق على يحيى بن عدى تسمية "الحكيم التام"، وما النص المكتوب على قبره إلا شاهد حى على تعلقه الشديد بالعلم والعلماء.

ترك يحيى بن عدى كوكبةً من التلاميذ الذين انتموا إلى مختلف الأصول والديانات، وبرزوا بفضله فى مجال الفلسفة والمنطق والعلوم الأخرى. واهتموا اهتماما كبيرا بالتقاليد والشروح ونشر كتب الفلاسفة الإغريق. لنذكر منهم على سبيل المثال: أبو على مسكويه وأبو بكر القاسمى وأبو سليمان السجستانى وأبو على عيسى بن زرعة وأبو الخير بن سوار (ابن الخمار).

هوامش الفصل الثانى والعشرين

(١) المكتبة الجغرافية العربية Bibliotheca Geographorum Arabicorum، ليدن 1927-1885 (Leyden، الجزء الثالث، ص ١١٩-١٢٠، مذكورة من قبل أبيل Abel، ص ١٤٩ . راجع أيضا ج. م. فاى J. M. Fiey، المسيحيون السريان تحت حكم العباسيين Chrétiens Syriaques sous les Abbassides، ص ١٥٤-١٥٥ .

(٢) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٦٩ .

(٣) التوحيدى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ٣٧ .

(٤) المسعودى، كتاب التنبيه والإشراف، ص ١٢٢ .

(٥) القفطى، كتاب أخبار العلماء، مطبعة السعادة، مصر، ص ٢٣٧ .

(٦) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، ص ٣١٨ .

(٧) يحيى بن عدى، تهذيب الأخلاق، دار المشرق، بيروت لبنان، ص٤٥ .

(٨) نفس المصدر السابق ص٨٢ .

(٩) نفس المصدر السابق ص٨٣ .

(١٠) نفس المصدر السابق ص٨٣ .

(١١) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، ص ٣١٨ .

الفصل الثالث والعشرون

أبو على عيسى بن زرعة

بغداد كتاب بصفحات ذهب وفضة

بدأت الخلافة العباسية تضعف شيئا فشيئا فى بغداد، على أن الأفكار كانت مستمرة مع ذلك فى بث إشعاعاتها الأدبية والعلمية خلال عصر الأمير البويهى الكبير عضد الدولة (٩٧٥- ٩٨٣)، فى هذه المدينة الفخمة والمليئة بالثقافة والمتفتحة على مختلف الأجناس. وكانت الحكايات والروايات مثل قصة السندباد البحرى والبحوث التاريخية والجغرافية والعلوم والفلسفة ما زالت بعد مزدهرة فى بغداد حاضرة الدنيا. كانت بغداد كتابا جميلا يحلو للكبير وللصغير تصفُّح أوراقه الذهبية والفضية.

كانت المكتبات ومجالس القراءة تتضاعف مع ذلك فى مدينة السلام على الرغم من الاضطرابات وعدم الاستقرار السياسى فيها. وقام شابور بن أردشير، وزير الأمير البويهى بهاء الدولة (٩٨٩- ١٠١٢)، بتأسيس "دار العلم" سنة ٩٩٢ فى منطقة الكرخ، ذلك الحى الواقع فى الجزء الغربى من المدينة. وحفظ فيه آلاف الكتب المجلدة والمجمعة فى كل المجالات والمواد التى تم تنظيمها باعتناء داخل خزانات مرتبة حول الصالات المختلفة.

كانت الحركة الفلسفية والعلمية مستمرة وبزخم شديد فى قلب العاصمة، ومنها تشرق لتصل إلى مختلف البلدان العربية والإسلامية، وكان فكر أرسطو يتابع جولته وانتشاره فى جميع بقاع الارض.

كان المفكرون فى بغداد يشاركون فى الاجتماعات المشهورة ومجالس النقاشات الفلسفية المعروفة، وكانوا مغرمين بهذه المجالس الفكرية التى كانت تعقد باستمرار

على الشرفات وفى الحدائق المعطرة بعطور الياسمين والورود والزنبق التى تنبعث منها أجمل الروائح وأحلاها فى الليل كما فى النهار. كان عالم بغداد، ببساطة عالم النقاشات والتمالات الفكرية والأحلام الفلسفية.

ابن زرعة الطبيب والمنطقى

ولد أبو على عيسى بن زرعة، المسيحى اليعقوبى فى بغداد (سنة ٩٤٣) ، والتحق بإرادته بهؤلاء العلماء. عاش أبو على، الفيلسوف وعالم المنطق والمترجم، فى النصف الثانى من القرن العاشر. ودرس مواضيع الفيزياء والرياضيات والأدب ثم الفلسفة تحت إدارة يحيى ابن عدى، صديقه القديم منذ فترة طويلة، وقام أيضا بدراسات فى مجال الطب.

يخبرنا ابن النديم أن ابن زرعة أصبح واحداً من أكثر الرجال كفاءة فى العاصمة فى مجال الفلسفة والمنطق والنقل يقول :

"هو أبو على بن إسحاق بن زرعة بن مرقس بن زرعة بن يوحنا، أحد المتقدمين فى علم المنطق وعلوم الفلسفة، والنقلة المجودين فى زماننا هذا، ومولده ببغداد سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة"(١).

كان ابن زرعة، على الرغم من ذهنه الحاد وقامته الضعيفة، شخصا يتمتع بخصائص لطيفة ويتميز بصفة مرنة وماهرة، وكان يرتاد الحلقات و"المجالس" ويعرف عقد الصداقات والعلاقات المختلفة فيها.

لكن أبا حيَّان التوحيدى الذى كان يحضر مجالس النقاشات الفلسفية الطويلة مع عيسى بن زرعة وتلامذة ابن عدى، يقدم وصفا يرسم فيه ببضع جمل صورة ناطقة لابن زرعة حيث يقول :

" أما ابن زرعة فهو حسن الترجمة، صحيح النقل، كثير الرجوع إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية، جيِّد الوفاء بكل ما جلَّ من الفلسفة ؛ ليس له فى دقيقها

منفذ، ولا له من لغزها مأخذ، ولولا توزع فكره فى التجارة، ومحبته فى الربح، وحرصه على الجمع؛ وشدّته على المنع ؛ لكانت قريحته تستجيب له، وغائمته تدرُّ عليه ؛ ولكنه مبدَّد مندَّد، وحبُّ الدنيا يعمى ويصم"[٢].

غير أن ابن النديم لا يوافق على ذلك مع ابى حيان التوحيدى كما رأينا سابقا حول شخصية فيلسوفنا عيسى بن زرعة. يقول ابن أبى أصيبعة إن عيسى بن زرعة كان شخصًا مجتهداً ومثابرًا على التدريس والترجمة من اللغة السريانية إلى العربية وعلى التأليف، وكرس سنة كاملة، فى نهاية حياته أمضاها فى التفكير وكتابة مقالة عن خلود النفس[٣].

وعمل بحماس شديد فى مجال التجارة، وامتهنها مع البيزنطيين بصورة خاصة، لكسب عيشه منها. وكان التجار السريان يغارون منه كثيرا وينافسونه فى التجارة، واتهموه بعقد الصداقات مع الروم (البيزنطيين)، وقد أدى ذلك إلى أن يصدر سلطان بغداد أمرا بإيقافه ومصادرة أملاكه. كما أن هذه الهزيمة التى تعرض لها أدت إلى تدهور حالته الصحية. عندما أصيب بسكتة دماغية أحاط به ألمع أطباء العاصمة الذين اجتمعوا حوله، لعلاجه وتحسين حالته بإعطائه الأدوية الملينة، التى كانت تعتبر من الأدوية الجديدة فى عصره.

تراجم وتآليف متعددة

ويقدم لنا ابن النديم الذى كان من معاصريه فى الفهرست قائمة كاملة بأعماله كافة:

كتاب اختصار كتاب أرسطوطاليس فى المعمور من الأرض مقالة، كتاب أغراض كتب أرسطوطاليس المنطقية مقالة، كتاب معانى إيساغوجى مقالة، كتاب معانى قطعة من المقالة الثالثة من كتاب السماء مقالة، كتاب فى العقل مقالة، كتاب النميمة مقالة .

ما نقله من السريانية كتاب الحيوان لأرسطوطاليس، كتاب منافع أعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوى، مقالة فى الأخلاق، كتاب خمس مقالات من كتاب نيقولاوس فى فلسفة أرسطوطاليس، كتاب سوفسطيقا لأرسطوطاليس[٤].

لنذكر فى هذا الصدد ذلك البحث الذى كتبه عن العقل والآخر عن النميمة ومقدمة لكتاب إيساغوجى للمؤلف فرفوريس والبحوث التى أعدها عن علم المنطق لأرسطو.

وقد حرر هذا المفكر المسيحى رسالة إلى صديق مسلم يعالج فيها مسألة وجود الله. وكرس وقتا مهماً من حياته لترجمة الحكمة المموهة من اللغة السريانية إلى العربية. نقل إلى اللغة العربية رسالة أرسطوطاليس عن الاقتصاد إضافة إلى بحث آخر عن الاقتصاد منسوب الى أرسطوطاليس.

ويخبرنا ابن النديم أن عيسى بن زرعة كان قد بدأ بترجمة مقالة فى الأخلاق عن السريانية وكتاب الحكمة المموهة لأرسطوطاليس، ومقالة عن الأخلاق لكاتب غير معروف.

وترجم خمس مقالات لنيقولا الدمشقى عن فلسفة أرسطو. ولم يبق من كل هذه التراجم إلا ترجمة كتاب الحكمة المموهة.

ووصلتنا أيضا عشرة مؤلفات لفيلسوفنا. قام بول صبات فى سنة ١٩٢٩ بنشر أربعة كتب منها فى القاهرة هى : بحث عن الثالوث (كتبه سنة ٩٧٩)، ورسالة عن الثالوث، ورسالة إلى اليهودى بشر بن فينحاس، وردّ على كتاب البراهين الرئيسية (للديانة) بقلم المسلم أبى القاسم عبدالله بن أحمد البلخى (المتوفى ٩٣١).

وتوجد ستة بحوث أخرى له فى المكتبة الوطنية فى باريس وفى مكتبة الفاتيكان.

درس عيسى بن زرعة بدوره موضوع المنطق الأرسطوطالى، وله كتاب هام حول هذا الموضوع يشرح المنطق ويتكلم عنه :

"أعنى بالصناعة. الصناعة المنطقية، البرهان. ولأن البرهان قياس ما فطبيعته مركبة من القياس المطلق، وهذا يجرى مجرى الجنس، ومن صورة المقدمة البرهانية، وهذه تجرى مجرى الفصل. والكلام فى جنس الشىء يتقدم الكلام فى ذلك الشىء نفسه. فقدَّم أرسطوطاليس أولا النظر فى طبيعة القياس. ولأن القياس مؤلف من مقدمات ما، احتاج قبل الكلام فيه أن يتكلم فى طبيعة المقدمات. ولأن المقدمات مركبة من مادة وصورة ومادتها الألفاظ البسيطة وصورتها المناسبة لغرض، وهى أقسام الصدق والكذب. وذلك أن غرضه فى هذا الكتاب إنما هو تحصيل مقدمات صوادق يبنى منها القياس "(٥).

وقد أُنجزت دراسة فى عام ١٩٥٢ساعدت على إلقاء ضوء جديد على حياة ومؤلفات هذه الشخصية المشهورة فى الفكر السريانى. فقد ناقش السيد سيريل حداد فى جامعة السوربون أطروحة أعدها باللغة الفرنسية تحت عنوان : "عيسى بن زرعة الفيلسوف العربى والمدافع عن الدين المسيحى فى القرن العاشر" (٦).

لقد دافع عيسى بن زرعة عن دينه، حرصا منه على مذهبه اليعقوبى، ويقول سيريل حداد إن مفكرنا هذا لم يتردد فى اللجوء إلى تبنى العقيدة الأفلاطونية الحديثة والتيارات الأرسطوطالية لدمجها فى أفكاره الفلسفية. وكان أحيانا يسند براهينه على المراجع الدينية مثل الكتاب المقدس وعلى آباء الكنيسة كغريغوريوس النزينزى وديونسيوس الإيروباجيس.

هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٦٩ .

(٢) أبو حيان التوحيدي، كتاب الإمتاع والمؤانسة؛ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان ص ٣٢ .

(٣) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٣١٩ .

(٤) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٧٠ .

(٥) ابن زرعة، كتاب منطق بن زرعة، دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان ص ٢٥ .

(٦) سيريل حداد Cyrille Haddad، عيسى بن زرعة Isa Ibn Zur'a ، فيلسوف عربي ومدافع عن العقيدة المسيحية في القرن العاشر - philosophe arabe et apologiste chrétien du Xème siècle آباء وكتاب كنيسة المشرق Pères et écrivains de l'Eglise en Orient ، أطروحة منشورة في بيروت، ١٩٧١ .

الفصل الرابع والعشرون
أبو الخير الحسن بن سوار

أعود لاسترجاع الزمن الماضي وألغي المسافة التي تفصل بيننا وبين رجل البلاغة والكلمات الجميلة بل والأنيقة، أبو الخير الحسن بن سوار.

نتخيله وهو يجتاز ممرات الجنات المعلقة، حيث تتماثل الأفكار مع الورود ويفوح من حقولها أريج الروائح المعطرة، منطلقة نحو السماء، ترافقها عصافير بابل وهي تغني أعذب الألحان وأجملها.

لُقِّب أبو الخير بابن الخمَّار "ابن بائع النبيذ". وكان ابن سوار أيضا واحداً من تلاميذ ابن عدى. ولد سنة ٩٤٢ وسط عائلة سريانية شرقية (نسطورية). درس علوم الطب وأصبح بعد ذلك مدرسا لهذه المادة.

وعقد ابن سوار في بغداد علاقات صداقة مع ابن النديم، وترك لنا هذا الببليوجرافي المشهور شهادة يصف فيها كاتبنا قائلا:

"وهو أبو الخير بن سوار بن بابا بن بهرام، من أفاضل المنطقيين في زماننا ممن قرأ على يحيى بن عدى، في نهاية الذكاء والفطنة والاضطلاع بعلوم أصحابه، ومولده في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة"(١).

وقد أضاف أبو حيان التوحيدي الذي كان ينتقده في بعض الأحيان، فنراه يرسم صورة غير ناصعة عن ابن سوار، لكن مع ذلك تخفي في ملامحها شيئا من التقدير له، حيث يقول:

"كان بليغًا وسهل الكلام، طويل النفس وقادرًا على الارسترسال فى الحديث. كان مترجمًا جيدًا، واضحًا فى عمله، ولكن عيبه هو أنه يخلط الدرر بالأزبال والسمين بالغثٍّ ويضع رقعة بالية على ثوب جديد، ويتصرف هكذا مدفوعا بروحه العالية وكبريائه وكذبه ومبالغاته. فكل ما يكسبه استحقاقا يُضيعه بدناعته، وكل ما يقدمه صافيا بدهائه يعكره بتبجُّحه، كما يضاف إلى هذا أنه يقع ضحية الصرع مرة أو مرتين فى الشهر" (٢).

وقد أصلح ابن أبى أصيبعة، كاتب السيَر الذاتية، الصورة التى قدمها التوحيدى، وذكر فى كتابه المشهور عيون الأنباء فى طبقات الأطباء أن ابن سوار كان يمتلك معرفة كاملة فى علوم الطب وفروعه، وكان ماهرا جدا فى العلوم الفلسفية، وترجم عدة كتب من السريانية إلى اللغة العربية، ويقول :

"و كان أبو الخير الحسن هذا نصرانيا عالمًا بأصول صناعة الطب وفروعها، خبيرا بغوامضها، كثير الدراية بها، ماهرا فى علوم الحكمة. وله مصنفات جليلة فى صناعة الطب وغيرها. وكان خبيرا بالنقل، وقد نقل كتبا كثيرة من السريانية إلى العربية. ووجدت بخطه شيئا من ذلك، وقد أجاد فيها. وقرأ الحكمة على يحيى بن عدى. وكان فى نهاية الذكاء والفطنة"(٣).

وذكر ابن أبى أصيبعة أيضا أن ابن سوار عندما كان يذهب للقاء الشخصيات المهمة لعلاجهم أو للإجابة عن استفساراتهم، كان يرتدى ملابس لا تقل فخامة عن ملابس الأمراء، وكان يخرج على رأس موكب رائع يتكون من ثلاثمائة خادم راكبين على أجمل الحصن المزينة. وكان يعرض صورة راقية له، ويتصرف بدبلوماسية رفيعة مع الملوك والحكام، وكان لطيفًا متواضعًا مع الصغار ورجال الدين. وكان يزور هؤلاء مشيًا على الأقدام وبثياب عادية مجردة عن كل زينة.

تحدث لنا الكاتب زاهر الدين البيهقى، أن ابن سوار رافق عدة أمراء مسلمين وهم يتوجهون إلى مختلف بلدان الشرق، وأنه استقر أخيرا فى بلاط الأمير محمود الغزنوى، حيث أصبح طبيبًا بارزًا ، وحصل على أكبر وأعلى تقدير من هذا الأمير، بل وتحول إلى نوع من "أبيقراط ثانٍ" .

بحوث وتراجم

يتطرق ابن النديم إلى أعمال ابن سوار الأصلية وبحوثه المتعددة عن الصداقة والسعادة والسلوك الذى يجب أن يقتفيها الفيلسوف فى حياته :

من الكتب كتاب الهيولى مقال،كتاب الوفاق بين رأى الفلاسفة والنصارى ثلاث مقالات، كتاب تفسير إيساغوجى مشروح، وكتاب تفسير إيساغوجى مختصر، وكتاب الصديق والصداقة مقالة، كتاب سيرة الفيلسوف مقالة .

مما نقله من السريانية إلى العربية كتاب الآثار العلوية، وكتاب اللبس فى الكتب الأربعة فى المنطق الموجود من ذلك، كتاب مسائل ثاوفرسطس، وكتاب مقالة فى الأخلاق(٤).

تابع ابن سوار الذى كان موهوبًا جدا أعمال التراجم والشروحات الفلسفية التى بدأها سابقوه من المفسرين واهتم بشرحها. وضع تعليقًا على كتاب إيساغوجى لفرفوريس. كما قام بإعداد هوامش على كتاب الأصناف لأرسطو ومراجعته، وتمتلك المكتبة الوطنية الفرنسية نسخة من هذا الكتاب .

وأما ابن أبى أصيبعة فيتكلم بغزارة عن تآليف فيلسوفنا، ويذكر أنه ألّف كتابا فى خلق الإنسان وتركيب أعضائه وكتابا آخر فى الإفصاح عن رأى القدماء فى البارى تعالى وفى الشرائع وأصولها.

ويبقى مع ذلك العمل الأكثر أصالة لهذا الطبيب الفيلسوف، ذلك البحث الكبير الذى أنجزه عن تطابق آراء الفلاسفة والمسيحيين، وهو الذى حاول فيه التوفيق بين المعتقد والفلسفة. فهل يحوز للإنسان إخضاع معطيات الوحى إلى تمحيص دقيق للعقل ؟ وهل يمكن التشكيك فى الفلسفة ؟ كانت مثل هذه الأسئلة الأزلية وغيرها تثير اهتمامات يحيى بن عدى ومدرسته والمدافعين عن الدين المسيحى والفلاسفة المسلمين فى ذلك العهد.

الطريقة الجيدة للترجمة

وكان فى حوزته عدة مصادر عربية وسريانية وإغريقية، أتاحت له إمكانية القيام بإعداد نصوصه النقدية. كان ابن سوار يحرر مقدمة على شكل خلاصة للموضوع الذى يعالجه، قبل البدء بدراسة الأعمال الفلسفية، وكان يمارس طريقة منهجية ويطبقها فى ترجمته. يحلل أولا المفردات اليونانية، ثم يدرج ملاحظاته عند الضرورة على هوامش النصوص المدروسة وبين سطورها، ويحاول فهم أفكار المؤلف.

وقد كتب نقدا بخصوص الترجمة العربية لكتاب الحكمة الموهة التى أنجزها يحيى بن على اعتبارا من النص السريانى لأثناسيوس البلدى، وأعطى نصائح تساعد المترجم على القيام بترجمة جيدة .

"لما كان الناقل يحتاج فى تأدية المعنى إلى فهمه باللغة التى إليها ينقل، إلى أن يكون متصورا له كتصور قائله وأن يكون عارفا باستعمال اللغة التى منها ينقل، والتى إليها ينقل وكان أتانس الراهب غير فهم بمعانى أرسطوطاليس، فإنه داخل نقله الخلل لا محالة، ولما كان من نقل هذا الكتاب من السريانية بنقل أتانس إلى العربية ممن قد ذكر اسمه لم يقع إليهم تفسير له عولوا على أفهامهم فى إدراك معانيه، فكل اجتهد فى إصابة الحق وإدراك الغرض الذى إياه قصد الفيلسوف، فغيروا ما نقلوه من نقل أتانس الى العربية. فلأنا أحببنا الوقوف على ما وقع لكل واحد منهم كتبنا جميع النقول التى وقعت إلينا ليقع التأمل بكل واحد منها، ويستعان ببعضها على بعض فى إدراك المعنى"(٥).

كان ابن سوار يقدِّر المترجمين والمفسرين الذين سبقوه حق التقدير . أجل، من المستحيل، قطف ثمار جميع النشاطات المدهشة التى مارسها ابن سوار فى حياته الخصبة، فقد تعرضت شروحاته الفلسفية التى أشار إليها ابن النديم وابن أبى أصيبعة، مثلها مثل العديد من أعمال الفلاسفة السريان الآخرين، وللأسف الشديد لضياع قسم كبير منها.

هوامش الفصل الرابع والعشرين

(١) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٧٠ .

(٢) ترجمة إ. كايلاني I. Keilani ، فى أبو حيان التوحيدى، مذكور فى الصفحتين ١٠٣-١٠٤، وفق كتاب الإمتاع، الجزء الأول، ص ٣٣-٣٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة، كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار الحكمة، بيروت- لبنان، ص ٤٢٨ .

(٤) ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٧٠ .

(٥) النص مأخوذ من المخطوطة Parisinus ar، رقم ٢٣٤٦، المكتبة الوطنية فى باريس.

الفصل الخامس والعشرون

ابن الطيِّب المفسر الكبير (ت ١٠٤٣)

أخذ حكم البويهيين يضعف فى بغداد شيئا فشيئا. وانفجرت الصراعات الطائفية تدريجيا بين الطائفتين الشيعية والسنية. دخل الأتراك السلجوقيون الذين كانوا ينتمون إلى المذهب السنى فى سنة ١٠٤٥، مدينة السلام تحت قيادة طغرل بك. وعلى الرغم من هذه الاضطربات كانت بغداد، وما زالت متعطشة للمعرفة، وكانت تتأمل فى الآفاق من خلال علمائها الكثيرين فى عمق دوامة من الأفكار والصور التى كانت تضيئها إشعاعات الشمس الذهبية المطعمة ببريق الأرجوان والياقوت.

كان الفلاسفة المشهورون مستمرين مع ذلك فى نقاشاتهم الطويلة، حول المسائل المهمة فى الساحات والفناءات والحدائق. وكانوا ينشرون ويمدون بين أفكارهم المختلفة جسورا منسوجة من النشوات الفكرية الدائرة فى أجواء بغداد. واصلوا أعمالهم الفكرية، وكانوا فى زمانهم الحلقات الجديدة من السلسلة الطويلة فى الدراسات والتراجم التى ربطت الإغريق بالعلماء السريان والعرب.

كانت العلوم تنتشر فى الدولة الإسلامية، واللغة العربية تشتد قوة لدى المؤلفين السريان الذين جعلوا منها لغتهم بالإضافة إلى اللغة السريانية.

ابن الطيب سكرتير الجثالقة

هو ذا أبو الفرج عبدالله بن الطيب العراقى. اختفى الوجه وضاعت صورته، مثله مثل صورة تنعكس معالمها على سطح الماء، ولم يبقَ منه إلا اسم وعمل، حافظ من خلالهما على شهرته بفضل العلم الذى ارتوى به على امتداد الأيام.

كان ابن الطيب، الكاهن واللاهوتي والطبيب الماهر والفيلسوف العالم وممثل مدرسة المنطقيين السريان في بغداد، مفسراً كبيراً أيضا. إنه يحمل قلباً وعقلاً ناضجاً في مختلف أنواع العلوم، تمتع بشهرة امتدت آفاقها إلى أقاصي البلدان، وجعلت العالم السرياني الغربي ابن العبري لا يتردد في مدحه في القرن الثالث عشر، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على المكانة التي وصل إليها فيلسوفنا هذا .

"في سنة ٤٣٥ هجرية (١٠٤٣ ميلادية) توفي أبو الفرج عبدالله بن الطيب، وهو عراقي، فيلسوف فاضل مطلع على كتب الأوائل وأقاويلهم وعني بشرح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تآليف أرسطوطاليس ومن الطبّ كتب جالينوس وبسط القول في الشروح بسطا شافيا قصد به التعليم والتفهيم"(١).

ليس من السهولة مع ذلك تحديد تاريخ ميلاد هذا الفيلسوف بالضبط على الرغم من شهرته، إذ إن كتب السيرة المختلفة لم تقدم لنا شيئا عن هذا الموضوع.

كان ابن الطيب تلميذاً من تلاميذ عيسى بن زرعة والحسن بن سوار، وتعلم منهما مبادئ الفلسفة والطب.

درس ابن الطيب في البيمارستان العضدي الواقع في بغداد، والذي شيده الأمير البويهي الكبير عضد الدولة (٩٧٥ – ٩٩٥). وقد قام بالتدريس فيه وعمل في ردهاته، وكان أستاذاً محترماً، غزير العلم والمعارف. ويمكن ذكر بعض من تلاميذه المشهورين أيضا مثل الطبيب ابن بطلان النسطوري البغدادي الأصل، وطبيب العيون المسيحي علي بن عيسى.

أصبح أبو الفرج بن الطيب، الذي كان لاهوتيا نسطوريا، كاتم أسرار الجاثاليق يوحنا بن نازوك (١٠١٢-١٠٢٢). حدثت اضطرابات ومنازعات شديدة في البلد بعد وفاة الجاثاليق، وتعرض مقر إقامة البطريرك للحريق، وأدى ذلك إلى تأخير انتخاب رئيس ديني جديد لكنيسة المشرق.

دعا ابن الطيب الرجل القوي عندئذ إلى عقد مجمع بموجب القوانين الكنسية، لانتخاب جاثاليق جديد ؛ وتم اختيار الفاضل والعالم إيليا الأول (١٠٢٨– ١٠٤٩) جاثاليقا جديدا لكنيسة المشرق. واستمر ابن الطيب في خدمته بصفة كاتم أسرار.

وقد نقل لنا ابن أبى أصيبعة طرفة تحمل مغزى هاما عن أبرز المسيحيين فى بغداد، حيث يذكر :

"أن رجلين من بلاد العجم كانا قد قصدا بغداد للاجتماع بأبى الفرج بن الطيب والقراءة عليه، والاشتغال عنده، ولما وصلا دخلا بغداد وسألا عن منزل أبى الفرج فقيل لهما إنه فى الكنيسة للصلاة، فتوجها نحوه ودخلا الكنيسة. فلما قيل لهما إنه ذلك الشيخ، وكان ابن الطيب فى ذلك الوقت لابسا ثوب صوف، وهو مكشوف الرأس وبيده مبخرة بسلاسل وفيها نار وبخور، وهو يدور بها فى نواحى الكنيسة ويبخر، تأملاه وتحدثا بالفارسية وبقيا يديمان النظر إليه ويتعجبان منه أنه على هذه الهيئة ويفعل هذا الفعل، وهو من أجَلِّ الحكماء، وسمعته فى أقاصى البلاد فى الفلسفة والطب وفهم عنهما ما هما فيه. ولما فرغ وقت الصلاة وخرج الناس من الكنيسة خرج أبو الفرج بن الطيب ولبس ثيابه المعتاد لبسها، وقدمت له البغلة فركب والغلمان حوله، وتبعه هذان الأعجميان إلى داره وعرّفاه أنهما قاصدان إليه من بلاد العجم للاشتغال وأن يكونا من جملة تلامذته.

فاستحضرهما فى مجلسه وسمعا كلامه ودروس المشتغلين عليه ثم قال لهما... إن كنتما تريدان أن تقرآ على وأن أكون شيخكما فحجا... فقبلا أمره وحجا. ولما عاد الحاج جاءا إليه من أثر الحج وهما أقرعان وقد غلب الشحوب عليهما من حر الشمس والطريق، فسألهما عن مناسك الحج وما فعلا فيه، فذكرا له سورة الحال... فقال هكذا الواجب إن الأمور الشرعية تؤخذ نقلا لا عقلا... ثم اشتغلا عليه بعد ذلك إلى أن تميزا وكانا من أجل تلاميذه" (٢).

اهتم ابن الطيب اهتماما كبيرا بتنظيم شئون جماعته المسيحية، وساعد على إجراء الإصلاحات فى الكنيسة التى أهمل فيها الأساقفة والكهنة المسنون الجهلة قراءة الكتب .

"رأيت بأن علوم الكنيسة المقدسة قد دخلت أدراج النسيان، ولم يعد هناك بين الكهنة المسنين من يفتح كتابا واحدا فقط، وتوقفوا عن قراءة التفاسير، وقررت لذلك أن أجمع شروحاتى كافة للعهدين القديم والجديد فى بحث واحد باللغة العربية"(٣).

المؤلفات الدينية والطبية

نظَّم ابن الطيب كتابا عن قانون المسيحية، يدعى فقه المسيحية الذى يتمثل فى مجموعة القوانين الأساسية السائدة فى الكنيسة النسطورية التى ترجمها من السريانية إلى اللغة العربية.

وألف بالعربية كتاب فردوس المسيحية، الذى قدم فيه شرحا واضحا للكتاب المقدس. أُحيط ابن الطيب بالتكريم والتقدير على أعماله التى أنجزها فى مجال شرح الكتاب المقدس، والتفسيرات الدينية التى اتبع فيها طريقة منهجية مماثلة لطريقة تيودورس المصيصى.

كما قام بترجمة كتاب دياتصارون لطيانوس[٤] . وكان يعطى شروحه أحيانا تحريريا، بل على الأكثر شفهيا. وكان يؤكد على أهمية التعليم الشفهى، ولم يكن يتردد فى إملاء هذه الشروحات على تلاميذه مباشرة.

الأعمال الفلسفية

اهتم ابن الطيب بالبحث عن العلم القديم ودراسته وشرحه، وأعطى جهودا كثيرة لتدريس المنطق وكل فروع الحكمة . ويعطينا ابن أبى أصيبعة وصفا رائعا لفيلسوفنا هكذا :

"كان عظيم الشأن، جليل القدر، واسع العلم، كثير التصنيف، خبيرا بالفلسفة، كثير الأشغال فيها، وقد شرح كتبًا كثيرة من كتب أرسطاطاليس فى الحكمة، وشرح أيضا كتبًا كثيرة من كتب أبقراط وجالينوس فى صناعة الطب، وكان له مقدرة قوية فى التصنيف وأكثر ما يوجد من تصانيفه كانت تنقل عنه إملاء من لفظه. وكان معاصراً للشيخ ابن سينا. وكان الشيخ الرئيس يحمد كلامه فى الطب، أما فى الحكمة فكان يذمه"[٥].

لقد أعطى ابن الطيب أهمية كبرى لدراسة تآليف أرسطوطاليس الفلسفية وقام بشرحها بدون كلل وكان يكنُّ احتراما شديدا لهذا المفكر الإغريقي. لا ينسى ابن أبى أصيبعة الإشارة والتذكير بذلك :

"لأبى الفرج بن الطيب من الكتب: تفسير كتاب قاطيغورياس لأرسطوطاليس. تفسير كتاب باريمينياس لأرسطوطاليس. تفسير كتاب أنالوطيقا لأرسطوطاليس. تفسير كتاب أنالوطيقا الثانية لأرسطوطاليس. تفسير كتاب طوبيقا لأرسطوطاليس. تفسير كتاب سوفيسطيقا لأرسطوطاليس. تفسير كتاب الخطابة لأرسطوطاليس" (٦).

وقد قام بشرح كتاب المقولات لأرسطو(٧).

كما أنجز ابن الطيب أيضا شرحا لكتاب الفيزياء لأرسطوطاليس(٨).

ويسرد علينا تلميذُه ابن بطلان (ت ١٠٦٦) أن ابن الطيب قضى عشرين سنة من عمره فى شرح ميتافيزيقية أرسطو. واستمر فى التفكير بها والتمعن فى محتوياتها ونصوصها إلى آخر يوم من حياته. وشرح فيلسوفنا الكبير أيضا سنة ١٠١٤ كتاب المسائل لحنين بن إسحاق.

ولا يتوفر اليوم إلا عدد محدود من الشروحات الفلسفية لابن الطيب؛ وصلت إلينا فى بعض المخطوطات القديمة ومنها شرح لكتاب المقولات لأرسطو، وشرح لكتاب الفيزياء لأرسطو ، وشرح لكتاب إيساغوجى لفرفوريس(٩).

ندرك الآن الآفاق الواسعة التى اقتحمها هذا الكاتب فى مختلف مجالات الكتابة.

شهرة ابن الطيب

أصبح ابن الطيب مشهوراً فى زمانه وبعد وفاته أيضا، كما يشهد على ذلك المؤلفون المعاصرون الذين تعمقوا فى حياته ودراساته.

أفضت أعماله الفلسفية إلى إثارة بعض الانتقادات التى أتته من قبل بعض فلاسفة عصره، ويمكننا أن نذكر بهذا الصدد الانتقادات التى أطلقها عليه ابن سينا

معاصره، الذى كان قد قيم أعماله فى مجال الطب تقييما إيجابياً، بينما لم يتخذ موقفا مؤيدا لأعماله الفلسفية، بل انتقدها بشدة.

ويمكننا اعتبار المساجلة الجدلية التى انتقد فيها ابن سينا مفكرى بغداد الذين يتحدث عنهم بأنهم قد بالغوا فى ميلهم الهلّينى والمتمثلين بشكل خاص فى ابن الطيب، كانت لهذه المساجلة الجدلية الصدى المعبر عن كل الانتقادات الموجهة ضد فيلسوفنا.

هل يجوز أن نثق فى حكم رجل غزير العلم مثل الغزارة التى امتلكها ابن سينا، والذى تميز مع ذلك فى بعض الأحيان بالتكبر والإفراط فى النقد والحسد ؟ ذلك هو السؤال. أما الجواب عنه، فهو متروك للقارئ من جهة وللباحثين عن الأجوبة من جهة أخرى.

طبيب وفيلسوف مسلم آخر فى القاهرة، كان قد عاشره ابن بطلان الفيلسوف، وهو ابن رضوان. دخل هو أيضا فى دائرة الاعتراضات الموجهة ضد الفيلسوف والمفسر النسطورى ذى الشخصية القوية. وألّف ابن رضوان كتابا ضده، ضم خمسة بحوث ذكر فيه أن أعلى مستوى بلغه عبدالله بن الطيب هو مستوى السفسطائيين.

لكن غالبية العلماء لم يكونوا متفقين مع الانتقادات الشديدة الموجهة من قبل ابن سينا وابن رضوان ضد ابن الطيب.

فها هو جمال الدين القفطى (١١٧٢– ١٢٤٨) يتخذ جانبه ويدافع عنه دفاعًا إيجابيا، ويمتدح الطريقة التى طبقها فى تعليمه.

" أبو الفرج الفيلسوف، عراقى فيلسوف فاضل مطلع على كتب الأوائل وأقاويلهم، مجتهد فى البحث والتفتيش وبسط القول، واعتنى بشروح الكتب القديمة فى المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسطوطاليس وفى الطب كتاب جالينوس، وبسط القول فى الكتب التى تولى شرحها بسطا شافيا، قصد به التعليم والتفهيم، حتى رأيت من ينتحل هذه الصناعة يذمه بالتطويل، وكان هذا العائب يهوديا ضيق الفطن قد وقف على عبارة ابن سينا، فأما أنا وكل منصف فلا نقول إلا أن أبا الفرج بن الطيب قد أحيا من هذه العلوم ما دثر وأبان منها ما خفى، وقد تلمذ له جماعة سادوا وقادوا، منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان"(١٠) .

توفى ابن الطيب، الرجل الحكيم المتواضع ربما سنة ١٠٤٣، وفقا للوقائع التى يذكرها لنا الكاتب صليوا بن يوحنا (القرن الرابع عشر) وابن العبرى. أما تلميذه ابن بطلان فيؤكد أنه وقع ضحية وباء الطاعون الذى بدأ انتشاره فى العراق سنة ١٠٥٥ .

وقد ترك ابن الطيب عدداً كبيراً من تلاميذ مشهورين فى العلوم والطب والفلسفة مثل أبى الحسن البصرى وعلى بن عيسى وابن الأثرادى، وغيرهم.

وقد عُرف ابن الطيب فى الغربْ فى القرون الوسطى اللاتينية، تحت اسم اشتهر به وهو Abulpharagius Abdalla. Benattibus.

بقى هذا الاسم وسوف يبقى محفوظا فى ذاكرة السريان مثل ذكريات موسم الصيف الساخنة فى قلوبهم وفى عقولهم.

هوامش الفصل الخامس والعشرين

(١) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، نشر دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٨٦، ص ١٩٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٥ ،ص ٣٢٤ .

(٣) ابن الطيب، تفسير التكوين Commentaire sur la Génèse، منشور ومترجم من قبل ج. س. ج. سانديرس J.C.J. Sanders، لوفان Louvain، ١٩٦٧ .

(٤) ترجمة عن اللاتينية حققها ونشرها، أ. سياسكا A. Ciasca، روما، ١٩٨٨، الترجمة الفرنسية حققها أ. س. مارماجى A.S. Marmadji، بيروت، ١٩٣٥ .

(٥) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٥ ص ٣٢٤ .

(٦) المصدر السابق نفسه، بيروت، ١٩٧٥ ، ص ٣٥٤ ..

(٧) يوجد شرحه عن كتاب المقولات لأرسطو Commentaire des Catégories d'Aristote فى المكتبة المصرية فى القاهرة، فى مخطوطتين: الأولى تحمل تاريخ ١٠٨٧ والثانية هى عبارة عن نسخ منجز سنة ١٩١٧ .

(٨) شرح عن الفيزياء، مخطوط ليدن Leyden رقم ٥٨٣، وارنر Warner، الكتاب السابع والثامن.

(٩) مطبوعة كوام جايكى Kwame Gyekye، ابن الطيب، شرح عن كتاب إيساغوجى لفرفوريس Commentary on Porphyr's Eisagoge

(١٠) القفطى، تاريخ الحكماء، نشره ج. ليبيرت J. Lippert، ليبزج، ١٩٠٣، ص ٢٢٣ .

القسم الخامس

الفلاسفة السريان فى عهد المغول

الفصل السادس والعشرون

ابن العبرى الفيلسوف واللاهوتى (١٢٢٦ - ١٢٨٦)

عصفت رياح العظمة والانحطاط على حد سواء خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر على بلاد دجلة والفرات والشرق الأوسط.

وعانت الحركة الفكرية كثيرًا من الحروب الصليبية المتواصلة، ومن صعوبة القيام بزيارات الحج لبلدان الشرق، وانخفض عدد العلماء السريان الذين كانوا يعملون فى مجال العلوم الدنيوية.

تمكنت شخصيات سريانية غربية، مع ذلك، من فرض نفسها ومن أن تسهم كثيرا لرفع بريق التفكير الفلسفى عاليا، قبل أن تبدأ شمس المعرفة أفولها ثم غروبها القاسى عن هذه البقاع، ومن بين هذه الشخصيات البارزة برصليبى ويعقوب بر شكاكو وابن العبرى.

تم تعيين هذا السريانى الغربى الذى ينتمى أصله إلى مدينة ملطية أسقفا لمدينة ماراش (جيرمانيسيا) سنة ١١٥٤ ، وقد سانده البطريرك ميخائيل الكبير عند انتخابه، وقام بعدئذ بتعيينه رئيسا لأساقفة مدينة أمد (ديار بكر).

وأنجز ديونوسيوس بر صليبى سنة ١١٤٨ شروحًا مختلفة عن كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان لأرسطو وشرح أيضا كتاب إيساغوجى لفرفوريوس. تميزت مؤلفاته هذا العالم بالخصوبة والتنوع؛ ألّف شرحا آخر عن الأعمال الكتابية لآباء الكنيسة.

شكل انتقال تآليف ديونيسيوس برصليبى (ت١١٧٢) إلى الاجيال التالية حدثا أساسيا مهما.

وتبرز أعمال أخرى لتخترق أجواء هذه الدراسة، ويدفعنى ذلك إلى الحديث عن العالم والفيلسوف يعقوب بر شكاكو (١٢٤١) وتأليفه تشهد على اسمه.

وُلد يعقوب فى مدينة برطلة الواقعة قرب الموصل، وأصبح راهبا وأسقفا بعد ذلك فى دير مار متى ، واتخذ له عندئذ اسم سيويريوس. وقام بدراسة القواعد مع اللغوى النسطورى يوحنا بر زعبى الذى كان راهبا فى دير بيت قوقا الواقع فى مقاطعة حدياب، والذى اشتهر بمعرفة واسعة فى مجال النحو، ودرس مواضيع الجدلية والفلسفة على يد الفيلسوف العربى الموصلى كمال الدين موسى بن يونس. وألّف كتابين باللغة السريانية، هما كتاب الكنوز الذى يتكون من مجموعة دراسات لاهوتية، وكتاب الحوارات.

الحوار الأول مكرس للقواعد والمنطق، أما الكتاب الثانى فإنه موزع على خمسة فصول، هى تعريف الفلسفة وأقسامها، والأخلاقيات، والفيزياء وعلم الفلسفة، والرياضيات، والميتافيزيقيا واللاهوت.

ابن العبرى العالم

برزت شخصية مهمة أخرى على الساحة الحمراء لهذا العصر المضطرب وفرضت نفسها، هذه الشخصية الفريدة هى جريجوريوس أبو الفرج جمال الدين الذى ينحدر أصله من قرية عبرة الواقعة على نهر الفرات، على مسافة غير بعيدة عن مدينة ملطية، وقد عرفه العرب باسم ابن العبرى، وعرفه الأوربيون باسم Bar Hébraeeus .

ولد هذا المؤلف، الابن الرابع للطبيب المعروف فى عصره هارون سنة ١٢٢٦ ونال اسم يوحنا فى العماد وفقا للطقوس السريانية الغربية، ونشأ وتلقى دروسه فى مدينة ملطية.

وكان هذا المؤلف، وهو لم يزل بعد فى سن السابعة عشرة من عمره، شاهداً على وصول حشود المغول الهائلة التى حاصرت أسوار مدينة ملطية ثم اخترقتها بسرعة عالية. تمكنت قوات المغول إذن من اجتياح المدينة، وقامت بسلب العديد من السكان

وقتلهم، واستسلمت مدينة ابن العبرى لحشود المغول، ودفعت الفدية وخضعت لسيطرة الوالى المغولى.

وقع القائد المغولى يسعور الذى وجه هذه الحملة المغولية الغازية مريضًا، وقام الطبيب هارون بتقديم العلاج له وتمكن من شفائه، فسمح هذا العسكرى الكبير، بعد سنة من شفائه واعترافًا منه بالجميل، للطبيب هارون بالهجرة مع عائلته إلى مدينة أنطاكية، الإمارة الإفرنجية التى كان يحكمها الأمير بوهيموند الخامس (١٢٣٣- ١٢٥١).

وتابع الشاب يوحنا عندئذ دراسته فى مواضيع اللاهوت والفلسفة والخطابة والقواعد والتاريخ والطب، وتوجه بعد ذلك إلى مدينة طرابلس، التى كانت مقاطعة لاتينية تابعة إداريا لمدينة أنطاكية. وتبع دروس أحد الأساتذة، المدعو يعقوب النسطورى، واستمر فى دراسته.

وعاد يوحنا إلى مدينة أنطاكية وقرر ارتداء الزى الرهبانى، وسيم كاهنا بعد ثلاث سنوات، ثم تم تعيينه وهو فى سن العشرين من عمره بتاريخ ١٤ أيلول (سبتمبر) سنة ١٢٤٦ أسقفا على مدينة جوباس الواقعة بالقرب من مدينة ملطية، وقام برسامته البطريرك السريانى الغربى أغناطيوس الثالث. واتخذ له اسم جريجوريوس ثم نُقل بعد سنة واحدة إلى كرسى مدينة لاقبين الواقعة فى نفس المنطقة.

وحدث بعد وفاة البطريرك أغناطيوس الثالث سنة ١٢٥٢، انشقاق خطير فى الكنيسة السريانية الغربية. وتحزَّب فيلسوفنا جريجوريوس ابن العبرى للبطريرك ديونسيوس عنجور ضدّ خصمه البطريرك ابن المعدنى، لذلك أرسله البطريرك ديونسيوس سنة ١٢٥٣ إلى مدينة حلب لكى يشغل فيها مهمة رئيس الأساقفة. على أنه لم يتمكن من ممارسة عمله هناك نظرا إلى أن المدينة كانت قد اتخذت موقفا مواليا لابن المعدنى. لذا اضطر إلى ترك مدينة حلب واللجوء إلى دير مار برصوم الواقع بالقرب من مدينة ملطية، حيث كان يسكن صديقه البطريرك ديونسيوس عنجور.

دقت ساعة بغداد الحزينة فى سنة ١٢٥٨، وألقت المدينة نيران هزيمتها الأخيرة قبل الوقوع تحت ضربات المغول، واستولى جنود هولاكو (١٢٥٦- ١٢٦٥)، حفيد جنكيز خان المغولى على بغداد، عاصمة العباسيين. أخذوها بعنف شديد، لكنهم حافظوا على حياة الجاثاليق مكِّيخا الثانى والمسيحيين الذين لجأوا إلى كنيسة سوق

الثلاثاء. أضرموا النيران فى المكتبات الجميلة التى كانت تضم ذلك العدد الضخم المعروف من الكتب، وألقوا الكتب التي نجت من لهب النيران فى مياه نهر دجلة، وتذكر الأخبار، أن لون مياهه قد أصبح غامقا مثل لون حبر هذه الكتب المفقودة.

وخمدت بذلك نبضات قلب مدينة بغداد القيثارة المحطمة، وهى تئن تحت عتمة ألوان لياليها الزرقاء الحالكة، وصمتت أصوات عزف الموسيقى الجميلة التى طالما رحّبت مهللة بقدوم العلماء إلى ربوعها الدافئة من مختلف بلدان الشرق والغرب، واستعاضت مدينتا القاهرة ودمشق عن عاصمة العباسيين القديمة، وفتحتا أبوابهما أمامهم ليغوصوا مرة أخرى فى أجواء العوالم المشبعة بحمى وثمالة العلم والحكمة.

رجع ابن العبرى إلى مدينة حلب ليدبر شئون أبرشيته، وشهد فى شهر كانون الثانى (يناير) سنة ١٢٦٠ حصار المدينة الذى حدث بقيادة المغولى إيلخان هولاكو. وتوجه عندئذ للقاء المغول وناشد رأفتهم تجاه المسيحيين. فتعرض للسجن ثم أُفرج عنه.

كانت الاتصالات الأولى التى حاول ابن العبرى القيام بها مع المغول صعبة ومليئة بالعراقيل المؤلمة، غير أنها تحسنت تدريجيا فيما بعد. واستطاع ابن العبرى كسب ثقة هولاكو، وقرينته دوقوز خاتون التى كانت مسيحية ومن المذهب النسطورى.

وقام سنة ١٢٦٣ بمعالجة هولاكو، ويحتمل أن يكون قد أصبح طبيبه الخاص وطبيب عائلته. وفى سنة ١٢٦٤ رُفع ابن العبرى إلى رتبة المفريان، يعنى نال منصب المفريانية على بلاد الشرق. وتم تنصيبه فى مدينة سيس الواقعة شمال أدنه بحضور شخصيات دينية ومدنية وملك أرمينيا الصغيرة، هيثوم. واحتفظ المفريان بهذا المنصب إلى وفاته، وكان يتمتع بطبيعة توافقية ومتسامحة فى معاملته مع الآخرين.

وكان ابن العبرى إنسانا نشيطا وحيويا ويتمع بجانب كبير من حب الاطلاع، كما تميز بسفراته المتعددة وزيارته للمقاطعات الشرقية فى الإمبراطورية المغولية، وكان يذهب إلى المدن والمكتبات ليستشير فيها خزائن الكتب والمجلدات.

وكان يبذل جهداً كبيراً لمساندة المؤمنين، نظراً لوعيه العالى فى أداء واجباته الكنسية ومسئولياته الدينية نحوهم. وكان يعمل على تشييد الكنائس والأديرة. كما فعل فى مدينة برطلة الواقعة بالقرب من الموصل، على سبيل المثال. وأقام فترة زمنية فى

بغداد، حيث أستقبله الجثالقة النسطوريون بكل احترام وتقدير. يذهب إلى بغداد للقاء علماء النحو والقواعد، وللتشاور معهم والاستفادة من خبراتهم فى هذا المجال الذى كان يمثل واحدا من أهم مجالات عمله اللغوية.

وجاء هولاكو سنة ١٢٥٩ ليستقر فى مدينة مراغا، تلك المدينة الواقعة بين أذربيجان وبلاد ما بين النهرين. وكان إيلخان قد شيَّد فيها قصورا ومرصدا مهما نصبه على تلٍّ، اختار موقعه فى غرب العاصمة.

كان ابن العبرى يقيم فى أغلب الأحيان خلال العشرين سنة الأخيرة من عمره فى مدينة مراغا، وكان يرتاد هذه المدينة الحكماء القادمون من مختلف البلدان والذين كانوا يجتمعون حول الخواجة نصر الدين الطوسى، كان هذا الأخير محط إعجاب ابن العبرى. أولم يكن هذا العالم المسلم رجلاً حكيماً وفاضلاً ومتبحراً فى علوم الرياضيات والفلك ؟ ألم يكن ذاك العالم الذى صنع الأسطرلاب ؟ ألم يتمكن بعلمه ومعرفته من التفوق على بطليموس ؟

كان ابن العبرى شغوفا بالعلوم، وقد ألقى خلال سنة ١٢٦٨ دروسا مهمة عن عالم الرياضيات المشهور أقليدس، وألقى دروسا أخرى سنة ١٢٧٢ عن بطليموس.

تمكن من الاندماج والدخول بسهولة فى ذاك المجتمع، وقد شارك فى الكثير من احتفالات البلاط المغولى، نظرا لتعرفه على العديد من الأمراء والأميرات فيه. كما أنه سافر أيضا إلى مدينة تبريز فى أذربيجان التى كانت قد احتلت لفترة قصيرة المكانة التى كانت تتمتع بها مدينة مراغا عاصمة المغول. وكانت سهول الشمال وهضابها توفر المراعى الخصبة لخيول الغزاة وتغذيتها. وكانت مدينة تبريز التى شُيدت فى نهاية القرن التاسع الميلادى قد أصبحت مدينة التبادلات التجارية المختلفة، حيث كان الإيطاليون قد أقاموا فيها مستعمرات تجارية مهمة. وكانت السلع تتدفق إليها من مختلف مناطق آسيا الوسطى وبلدان الشرق الأقصى.

وقد أقام ابن العبرى عدة مرات فى مدينة تبريز، وبنى فيها مركزًا أسقفيا ومصلًى ومستوصفًا طبيا.

وأخيراً عاد المفريان أدراجه، وأقام فى مدينة مراغا إلى أن فارق الحياة فيها على أثر إصابته بحمى شديدة، أدت إلى وفاته بتاريخ ٢٩ تموز (يوليو) ١٢٨٦ . حضر تشييعه بطريرك النساطرة يهبالاها الثالث الذى كان ينتمى إلى أصل مغولى والذى كان مارا فى المنطقة، كما حضر التشييع عدد من اليونانيين والأرمن. وأعلن البطريرك يهبالاها الحداد العام له حيث أغلقت كل مخازن المدينة أبوابها بهذه المناسبة الحزينة، ونُقل رفاة ابن العبرى بعد ذلك إلى دير مار متى بالقرب من مدينة الموصل، وضريحه فى هذا الدير إلى الآن، ونقشت على قبره عبارة بالكرشونى، أى اللغة العربية المكتوبة بالحروف السريانية.

مؤلف غزير

لم يتوقف ابن العبرى طوال حياته عن القراءة والكتابة، وقد اكتسب دائرة معارف واسعة فى مختلف أنواع العلوم. وقد تطرقت الكتب العديدة التى كتبها باللغتين السريانية والعربية عدا الفلسفة إلى فروع العلم كافة، وغالبية كتبه قد وصلتنا وهى محفوظة.

ومن تآليفه الشهيرة كتاب تاريخ الزمان الذى كتبه باللغة السريانية، وسجل فيه مختلف الأحداث من نشوء العالم إلى غزو المغول. وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: يتطرق القسم الأول فيه إلى تاريخ السريان وهو عبارة عن قسم مخصص للتاريخ السياسى والمدنى لبلاد المشرق، بينما يتناول القسم الثانى التاريخ الكنسى، أى تاريخ البطاركة والمفارنة فى الكنيسة السريانية الشرقية.

ألف ابن العبرى كتابا باللغة العربية ووضع له اسم كتاب مختصر تاريخ الدول.

ألف أيضا كتابا عن علم الفلك ومظاهر الكون ووضع له اسم كتاب ارتقاء الروح.

وحرر أيضا كتابا عن قواعد اللغة السريانية، ووضع له اسم كتاب الأضواء، وهو عمل كامل ورصين، ألّفه على طريقة النحويين العرب.

فيلسوف واع

ألف ابن العبرى بحثا عن المبادئ الأخلاقية وعن حسن السلوك، كتبه باللغة السريانية بعنوان الإيتيقون[1] .

يذكر الكاتب فى مؤلفه هذا أن هناك أمرين أساسيين فى حياة الإنسان، هما العلم النظرى الذى يتمثل فى معرفة الحقيقة وتمييزها عن الكذب. والعلم التطبيقى، أى تطبيق المعطيات المتعلقة بالعمل الذى يجب على الإنسان أن يؤديه، وهو المجال الذى يهتم خاصة بالتمييز بين الخير والشر.

ويتحدث المؤلف بهذا الصدد عن السلوك الذى يمكن للمسيحيين اقتفاؤه تجاه السلطة القمعية، ويدعو فى هذا الكتاب رؤساء الدين مثل البطريرك والمطران إلى التدخل لدى السلطات المدنية لإدانة الأعمال غير العادلة التى ترتكب بحق الإنسان. وينتهى إلى شجب المواقف السلبية لرجال الدين المسيحيين المعاصرين له، الذين لا يترددون فى أغلب الاحيان فى طأطأة رءوسهم أمام الكثير من الأعمال غير العادلة.

كرس ابن العبرى قدراً كبيراً من وقته لتحرير واحد من أهم مؤلفاته الفلسفية هو حديث الحكمة الذى يتكون من أربعة بحوث تطرق فيها إلى مواضيع المنطق والفيزياء والعدالة الإلهية والأخلاق.[2] ويركّز ابن العبرى فى مؤلفه هذا على تكوين الإنسان، ويبين أن الإنسان يتكون قبل كل شىء من الجسد والنفس، وتتمتع النفس التى لا يمكن تحديد أبعادها بالنسبة له، باستقلالية شبه كاملة مقارنة ببدنه.

ثم يتطرق إلى موضوع المعرفة لدى الإنسان، ويرى فيها ثلاث درجات، استنادا إلى المبادئ التى بينها سابقا الفيلسوف أرسطو، أى الحس والمخيلة التى تحفظ الانطباع الذى تستلمه من الحس الخارجى، والعقل الذى يستوعب كل ماهو قابل للإدراك.

ويبين لنا، عندما يتطرق إلى موضوع الحواس، أن الإنسان يمتلك خمس حواس خارجية، هى النظر والشم والذوق واللمس والسمع، وخمس حواس داخلية، هى الحس العام والتخيل والتقييم أو التخمين والقدرة على التخيل التى تسمح للإنسان بالجمع بين تكوين الصور فى مخيلته وحفظ مكوناتها فى ذاكرته.

ويتساءل ابن العبرى قائلاً: هل الإنسان حر ؟

والواقع أن هذا السؤال الذى يطرحه ابن العبرى فى مؤلفه هذا، كان موضوعا أساسيا مهما لدى الفلاسفة السريان كافة الذين طرحوه وأعادوا طرحه مرات عديدة فى مؤلفاتهم منذ زمن الفيلسوف برديصان. ويحاول المؤلف الإجابة عن هذا السؤال فى كتابه المشهور الذى يحمل أسم "زبدة الحكمة"[٣] .

كتاب زبدة الحكمة يشكل فى الواقع، موسوعة كبيرة حاول المؤلف أن يجمع فيها كل فروع العلم التى تشمل بشكل خاص الفلسفة المشائية. وينقسم هذا المؤلف إلى ثلاثة أقسام : يضم القسم الأول بحثا عن كتاب إيساغوجى لفرفوريس وشرحا لكتاب المقولات والعبارة والقياس والبرهان والحكمة المموهة والبلاغة والشعر لأرسطوطاليس. ويضم القسم الثانى منه أربعة بحوث عن الفيزياء والسماء والكون والنيازك والتوليد والفساد والمعادن والنباتات والحيوانات والنفس. أما القسم الثالث، فإنه يتفرع إلى فرعين مخصصين لمواضيع الميتافيزيقية والمبادئ الأخلاقية والسياسة والاقتصاد.

وقام ابن العبرى بتلخيص القسم الأول من زبدة الحكمة الذى وضع له اسما، يمكن القول إن تسميته رمزية المعنى لأنه دعاه تجارة التجارات.

ويؤكد فيلسوفنا، فى كتابه الذى يحمل اسم الإحداق على أهمية المنطق، ويكرس سبعة فصول كاملة منه لتفسير كتاب إيساغوجى وستة فصول أخرى لشرح كتب الأورجانون المنطقية لأرسطوطاليس.

وألّف المفريان ابن العبرى أيضا كتابا حمل عنوان البحث الموجز عن النفس، ينقسم إلى ستة وعشرين فصلا[٤] . وهو كتاب مهم لدراسة قوة النفس.

كتب ابن العبرى كتابا عن العقيدة المسيحية، وضع له اسم "منارة الأقداس" عرض فيه المبادئ التى تربط بين اللاهوت والفلسفة، ويتطرق الفصل التاسع، من هذا الكتاب المكون من اثنتى عشرة ركيزة أساسية، إلى موضوع حرية الاختيار الذى شكل هو الآخر موضوعا طالما تطرق إليه الفلاسفة السريان.

يعتقد ابن العبرى، مثله مثل الفيلسوف برديصان، أن الله خلق الإنسان حرا فى أعماله وسلوكه، بالنسبة له الإنسان، ليس مجرد أداة وإنما كائن حى قادر تماما على

ممارسة الخير والشر. ولتقديم تعريف واضح للمفاهيم التى تؤدى إلى منح الإنسان حرية الاختيار، يستمر الفيلسوف فى كتابه هذا فى اقتفاء خط الفلاسفة الإغريق. فالخير أساسى وطبيعى والشر هو السلبية إذ لا وجود له ولا طبيعة له أيضا:

"ولأجله فإن الخير هو فى آن واحد شىء مخلوق وشىء طبيعى وثابت فى حقيقة الأشياء الواقعية الملموسة، وهذه الأشياء عندما لا تتحقق بموجب الضوابط فإنها تعتبر سيئة، أجل سيئة حسب الضوابط وليس بطبيعتها.

نقول إن المدخل إلى كنه كل حقيقة هو وجود، وبعكس ذلك فإن الشر هو عدم وجود. إذا كان الشر موجوداً فى طبيعة الحقائق فإنه سيكون حقيقة وفى نفس الوقت يكون الشىء الموجود والشىء غير الموجود، وهذا غير معقول.

و نقول أيضا إن وجود كل حقيقة هو جيد بالنسبة لها وإن وجودها ليس سيئا بالنسبة لها؛ لأنه إذا كان الشر موجودا فى الطبيعة عين الحقيقة، وبنفس نسبتها تكون جيدة أو سيئة، وهذا غير معقول"(٥).

يقول ابن العبرى إن البشر يمتلكون حرية الاختيار ولا يقومون بأعمالهم بـ(أمر) من الله كما يقول بعض الفقهاء المسلمين، أو طبقا للقدر والحظ كما يدَّعى الفلكيون.

"نقول إنه إذا لم يقم الإنسان بأعماله الطوعية بحرية ولكن بأمر من الله كما يقول الفقهاء المسلمون أو بالقدر والحظ كما يدعى الفلكيون بتهور، لكان هناك سجلان فقط، الضرورى والمستحيل ولن يبقى هناك مجال لسجل الممكن، لأنه سينجز بالضرورة ما قد أُمر به أو حُدِّد له دون إمكانية القيام بما لم يؤمر به أو يحدد له"(٦).

يرفض المؤلف رأى الفلاسفة الذين ينكرون وجود حرية الاختيار، وهو يؤكد فى بحثه هذا أن الله قد منح الإنسان حرية الاختيار، لكى يتمكن من أداء أعماله أداءً كاملا وليس أداءً مفروضاً أو منقوصاً.

و يضاف إلى كتبه الفلسفية الأصلية، تراجم من العربية إلى السريانية، تيار معاكس لمدرسة حنين بن إسحاق وأبى بشر متى ويحيى بن عدى الذين كانوا يترجمون من السريانية إلى العربية.

أجل، قام ابن العبرى بتكييف وترجمة كتابين لابن سينا من اللغة العربية إلى اللغة السريانية، هما : كتاب الإشارات والتنبيهات الذى عالج فيه ابن سينا علوم المنطق والطبيعة والميتافيزيقية، وكتاب عيون الحكمة.

كما ترجم إلى اللغة السريانية كتاب الفيلسوف العربى المعاصر أثير الدين الأبهارى (١٢٦٤) الذى حمل عنوان "زبدة الأسرار فى الفلسفة" الذى تعرض لسوء الحظ للفقدان.

وهكذا بدأ السريان يستفيدون بدورهم من العلوم والفلسفة العربية.

وتجدر الإشارة أخيراً وليس آخراً إلى أن ابن العبرى المؤلف والناقد والمترجم والموسوعى والمبسط الموهوب، قد قام بإحياء العلوم السريانية فى القرن الثالث عشر، ومنح هذه العلوم دفعة فريدة من نوعها. وعلى الرغم من تأثره بالثقافة العربية، فإنه بقى وارثا ومحافظا على المنهجية التى اتبعها المؤلفون السريان الذين اهتموا قبله بالفلسفة والفلاسفة أمثال أرسطوطاليس وأفلاطون، أغنوا وأفادوا ثقافة العالم، وكان نقل هذا التراث إلى الأجيال اللاحقة يمثل بالنسبة له واجبا والتزاما تعهد بتطبيقه من خلال أعماله.

وحرص بصبر وبمثابرة مشهودة على تأليف عدة موسوعات بالسريانية، تمكن خلالها من تقديم شرح كامل للأعمال العلمية والفلسفية لأبرز المؤلفين الإغريق القدامى.

وقد يكون من المؤسف أن الدراسات الفلسفية التى تطرقت إلى تأليف ابن العبرى، لا تشكل إلا عدداً محدوداً، بل وقليلا جدا، للتمكن من معرفة التأثيرات التى تعرض لها، وعن الأصالة الحقيقية التى تمتع ويتمتع بها كاتبنا هذا. أملى أن تبدأ دراسات فى الزمن الحاضر وفى المستقبل لكى تعمل على ملء مثل هذا الفراغ، وتسلط الضوء على ثقافة ابن العبرى الواسعة وثراء مفردات لغته السريانية الغنية ومعانيها الغزيرة.

ولا يسعنى أخيرا إلا أن أضم صوتى إلى صوت العالم المارونى المشهور السمعانى الذى عبر عن إعجابه بابن العبرى بأبسط الكلمات وبأجملها فى نفس الوقت حين قال: "لا بد وأن يبقى ابن العبرى أول المؤلفين اليعاقبة بدون منازع".

هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) الإيثيقون Ethicon منشور من قبل ر. ب. بيدجان R. P. Bedjan، باريس ١٨٩٨ .

(٢) تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية وشرح من قبل ه . ف . جانسينز H.F. Janssens في مدينتي لييج وباريس سنة ١٩٣٧ ، وقام بترجمته إ. بارسوم E. Barsaum سنة ١٩٤٠ إلى اللغة العربية.

(٣) تتوفر عدة مخطوطات لهذا الكتاب في مدن فلورنسا (المخطوطة التي تحمل تاريخ ١٣٤٠) وفي أوكسفورد، في المتحف البريطاني. وأكثر المخطوطات معرفة هي المخطوطة الموجودة في لندن. وقد طبع الفصل الخاص بالشعر فقط سنة ١٨٨٧ من قبل مارجليوث Margoliouth .

(٤) بحث مأخوذ من قبل ب. سابات P. Sabath، في القاهرة سنة ١٩٢٩ . وقد قام إ. برازوم E. Barsaum بطبعه على حدة سنة ١٩٣٨ .

(٥) باترولوجيا أورينتاليس Patrologia Orientalis، الجزء ٤٣، الكتيب ٢، رقم ١٩٤، شمعدان المزار المقدس Candélabre du Sanctuaire، الركن السابع : عن حرية الاختيار Du Libre Arbitre، نشر بريبولس Brepols، بلجيكا، ١٩٨٥، ترجمة ب. هـ. بواربيه P.H. Poirier، الفصل الأول، ص ٢٠ وص ١٨٠ .

(٦) نفس المصدر السابق، الفصل الرابع، ص ٧٦ ، ص ٢٢٩ .

الفصل السابع والعشرون

عبديشوع الصوباوى الفيلسوف القانونى (ت ١٣١٨)

زمن عبديشوع

نجد أنفسنا مرة أخرى ونحن نجتاز الزمن ونقطع مسار نهر العصور الطويلة، ثم نتوقف فجأة على مشارف عصر المغول، تحت عصر الإيلخان آرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١).كان آرغون إيلخان البوذى متعاطفا مع المسيحيين النساطرة. وكان يرغب فى تطبيق نوع من سياسة التحالف مع الغرب. وطلب سنة ١٢٨٦ من الجاثاليق يهبالاها الثالث (١٢٨١- ١٣١٨) أن يختار له شخصا يوفده رسميا إلى روما وبلاد الفرنجة.

كان يهبالاها الرجل الحليم والمتسامح الذى حضر مراسيم دفن ابن العبرى، راهبا قديما ينتمى إلى قبيلة أونكوت، وكان واحدا من أبناء رئيس شمامسة مدينة كوجانك الواقعة على حدود مدينة تشان سى، بين بكّين وتانكوت، وقد اختير جاثاليقا لمعرفته بآداب المغول ولغتهم.

اتجه يهبالاها نحو صديقه الربان صوما، راهب من قبيلة الأونكوت، وكان يعمل بمعسكر مدينة آرغون المخصص للبدو، ورشحه لكى يشغل وظيفة السفير لدى آرغون. وكلفه هذا الأخير بإنجاز مهمة خاصة، وكان ينوى تقديم اقتراح للبابا يعرض عليه فيه توحيد الكنائس المسيحية، إذ كان الأمر يتطلب محاربة القوى الإسلامية، وكان يرغب أيضا فى طلب الدعم العسكرى من أمراء أوربا، لكى يتمكن المغول من التخلص من سلطة المماليك فى فلسطين.

بدأ برصوما تنفيذ مهمته فى الحال، واستقبله أندرونيك الثانى إمبراطور بيزنطة حال وصوله، وتوجه بعد ذلك إلى روما وطلب مقابلة البابا. ثم توجه إلى باريس وأجرى

محادثات مع الملك فيليب لوبال وانطلق بعد ذلك إلى مدينة بوردو فى جنوب فرنسا للقاء ملك إنجلترا إدوارد الأول.

غير أن ربان صوما لم ينجح فى مهمته التى ما لبثت أن فشلت؛ وأظهر ملوك الغرب عدم اكتراثهم بعرض التحالف الذى اقترحه أرغون والمغول، وتوفى أخيراً سنة ١٢٩٤ .

يذكر ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤)، فى كتابه الذى حمل عنوان كتاب عجائب العالم[1]، حدوث اضطرابات عنيفة عند موت المغولى أرغون سنة ١٢٩١، وبعد معركة ناجحة ضد بيدو خان سنة ١٢٩٥، استلم بعدها غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤) ابن أرغون الحكم واستمر فيه إلى وفاته.

واعتنق غازان الديانة الإسلامية، وبدأ المسيحيون الذين كانوا قد راهنوا على المغول بدون الحصول على فائدة تُذكر، يشعرون بالقلق، وصاروا عرضة للمضايقات والإهانات والاضطهاد. وفرضت عليهم سنة ١٢٩٧ الجزية وضرائب ثقيلة، وتعرض مقر بطريرك كنيسة المشرق للنهب والدمار.

عاش عبديشوع، الفيلسوف والقانونى والمدافع عن الكنيسة الشرقية، خلال هذه الفترة الزمنية القاسية. وكان عبديشوع بن بيرخا يعيش خلف جدران الدير، وتم تعيينه سنة ١٢٨٤ أسقفا لمدينة سنجار ، وهى أبرشية قديمة تقع فى منطقة جبلية فى شمال غربى مدينة الموصل، وعلى بيت عربايى، المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات فى شمال بلاد الرافدين.

واختار الجاثاليق يهبالاها الثالث سنة ١٢٩٠ عبديشوع لتولى كرسى رئيس أساقفة (متروبوليت) نصيبين وأرمينى، ثم استقر يهبالاها بعد ذلك فى دير فى مدينة ماراغا وتوفى فيها سنة ١٣١٧، وقد أصابه الإرهاق بعد خدمة شاقة قدمها للمغول.

وشارك عبديشوع فى السينودس لاختيار البطريرك العلامة يوسف الأربيلى الذى حصل على أصوات أدت إلى انتخابه ضمنها صوت عبديشوع. وحمل يوسف، البطريرك الجديد الحذر فى سلوكه والغنى فى معارفه، بعد انتخابه اسم طيماثاوس الثانى.

وتوفى عبديشوع بعد الانتخاب بفترة قليلة، فى تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٣١٨ .

عبديشوع المتبحر فى القانون الكنسى

ترك لنا هذا الكاتب الكبير عملاً غزيراً كرس معظمه لدراسات تعلقت باللاهوت وشرح الكتاب المقدس والطقوس الدينية والفلسفة والتاريخ والكيمياء.

وترجع معرفة الكتب التى ألفها عبديشوع وعناوينها إلى فضل كتابه الذى حمل تسمية فهرس المؤلفين(٢) المكتوب سنة ١٢٩٨ باللغة السريانية بأسلوب شعرى.

وقد صنف عبديشوع فى فهرسه هذا كتب المؤلفين السريان الشرقيين التى كانت محفوظة فى المكتبة العامة التابعة لرئاسة أساقفة مدينة نصيبين. إنه مصدر مهم لنا جميعا.

يعتبر عبديشوع حتى الآن أول عالم متبحر فى قوانين الكنيسة، وقد ألف كتابا من جزأين، هو كتاب مجموعة مختصر القوانين المجمعية، الذى دون فيه قوانين ومراسيم الكنيسة. فى الواقع كان الأساقفة آنذاك يؤدون وظائف قضاة مدنيين ودينيين لأمتهم. وساهم هذا الكتاب فى منح المؤلف شهرة كبيرة. واستخدمه أبناء الكنيسة السريانية الشرقية مرجعًا دينيًا.

ولكى يثبت للجميع أن اللغة السريانية تتمتع بمرونة وكفاءة توازى تلك التى تتمتع بها اللغة العربية، بذل عبديشوع سنة ١٢٩١ جهداً كبيراً لتجاوز الصعوبات التى كانت تعوق نظم الشعر فى كتابه الذى حمل عنوان فردوس عدن، كتاب باللغة السريانية يضمُّ خمسين قصيدة دينية وعلمية مختارة، ربما تكون مستوحاة من مقامات الحريرى، الشاعر والنحوى البصرى (١٠٥١ – ١١٢٢). وقد عرف هذا العمل نجاحًا باهراً.

كما أنه حرر كتابا فريدا من نوعه سنة ١٢٨٩، هو كتاب المرجانة بناءً على طلب من البطريرك يهبالاها الثالث(٣). ويمثل هذا الكتاب بحثًا مهمًا أراد من خلاله عبديشوع التعمق فى مفهوم حقيقة الديانة المسيحية وعرضها عرضًا شاملاً احتوى على اثنين وثلاثين فصلا كرسها بأجمعها للإيمان. وأنجز عبديشوع سنة ١٣١٢ ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

كما حرر عبديشوع بحثا لاهوتيا باللغة العربية كتبه بلغة شعرية مقفاة، وزينه بأبيات موزونة، حمل اسم أصول الدين، وتطرق المؤلف بشكل خاص فى الفصل الثانى

عشر من كتابه هذا المعنون السجود باتجاه الشرق إلى موضوع طالما اهتم به السريان اهتماما كبيرا إضافة إلى الإهتمام الذى أعاره بعض المفكرين العرب، وهو موضوع الإشراق، أنه التنوير الإلهى القادم من الشرق.

الرجل الحكيم

وتميز عبديشوع أيضا بنفس الحماس فى تطرقه إلى الجانب الفلسفى الذى عبر به أسلافه السريان عن تمكسهم بموضوع الحكمة، ويذكر لنا فى فهرسه أنه ألف كتاب الأسرار الخفية للفلاسفة الإغريق، وهو كتاب مفقود لسوء الحظ.

وقام بشرح الرسالة المنسوبة إلى أرسطوطاليس، وعرض فى هذا الكتاب شرحا لرسالة أرسطو الموجهة إلى الإسكندر عن الفن الغريب، الكيمياء. إضافة إلى كتاب ضم اثنى عشر بحثا شملت كل حقل العلوم والحكمة، وهو كتاب مفقود أيضا.

وكتب عبديشوع أيضا اثنتين وعشرين قصيدة عن حب الحكمة والعلم(٤) . ولم يُطبع هذا الكتاب للأسف الشديد، ولأجله فإن الفكرة الفلسفية لكاتبنا غير معروفة بصورة جيدة.

ذاق عبديشوع طعم العلم وعذوبته، وكتب بحثا عن حسابات وموازين الزمن وهو البحث الذى أهداه إلى الأمير أمين الدولة، الذى يعتقد الكثير من المؤرخين أنه ابن محتسب الأربيلى، مشرف آرجون رقابة الآداب العامة (٥).

يمكننا القول إنه بعد ابن العبرى قام متروبوليت مدينة نصيبين عبديشوع الصوباوى، بمحاولة استكشاف مختلف جوانب ثقافة عصره، وترك لنا فى هذا المجال مجموعة موسوعية مهمة فى كل حقول المعرفة.

وقد أشاد السريان دائما بالأسلوب الواضح لهذا المثقف الكبير ومدحوا أناقته الفلسفية وشاعريته العذبة. وقد عرف الغرب اللاتينى عبديشوع الصوباوى واكتشفه وفق عبارة المفكر الفرنسى ألبير كامى "وجوهه المتعاقبة ... التى هى أعماله". وأطلق عليه الغرب اسم عبد جيسو دى نصيب Ebed Jesu de Nisibe.

لقد تألق الفكر السرياني الذى انفجرت قوته من خلال الصفحات العديدة للكتّاب، على مدى العصور الطويلة، وغذت جذوره بالفلسفة الإغريقية وبالعلم وبمبادئ الفضيلة المسيحية.

لم تخبُ ولن تخمد جذوة هذا الفكر، لأنه ترعرع وكبر بالجهد والألم والتضحية، وكان دائما وأبداً متعطشا لاكتساب المعرفة والحكمة التى شبهها الفلاسفة السريان بالدرَّة، أجل أنه شامخ كالطود الراسخ، ويبقى حيا ومخلصا لتاريخه وتطلعاته وأحلامه.

هوامش الفصل السابع والعشرين

(١) أملى ماركو بولو هذا الكتاب سنة ١٢٩٨ عند عودته إلى مدينة فنيسيا.

(٢) فهرس المؤلفين، نشره يوسف السمعاني J.S. Assemani المكتبة الشرقية B.O.T، الجزء الثالث، ١، ص ٣-٣٦٢ النص والترجمة اللاتينية، ١٧١٩-١٧٢٨ .

نشر وترجمة ج. ب. بادجير G.P. Badger، فى كتابه النساطرة وشعائرهم الدينية The Nestorians and Their Rituals، الجزء الثانى (الترجمة الإنجليزية). نشره وترجمه إلى اللغة العربية يوسف حبى، بغداد، ١٩٨٦ .

(٣) كتاب اللؤلؤة أو الدرة، نشره وترجمه ماى إلى اللغة اللاتينية، Maï, Scriptorum Veterum Nova Collectio, T. X.2، روما ١٨٣٨ (النص السريانى) . والترجمة اللاتينية من قبل يوسف السمعانى A. Assemani. ترجمه إلى اللغة الإنجليزية ج. ب. بادجير G.P. Badger، فى كتابه النساطرة وشعائرهم الدينية The Nestorians and Their Rituals، الجزء الثانى، لندن ١٨٥٢ .

(٤) مخطوطة محفوظة فى مكتبة الفاتيكان، ١٧٤ .

(٥) مؤلف مطبوع فى مدينة الموصل سنة ١٩٢٤، ملحق لكتابه اللؤلؤة أو الدرة.

القسم السادس

اتجاه الفلاسفة السريان نحو الشرق والغرب
انتشار المسيحية النسطورية

الفصل الثامن والعشرون

امتداد الثقافة السريانية نحو الشرق

تهبط الرياح سيدة الهضاب الواسعة، من أعماق الزمن، حاملة فى موجاتها العذبة مذاق المغامرة وحب المعرفة والحكمة. أتى حدث مهم، وهو امتداد الكنيسة السريانية الشرقية "النسطورية" واتساعها ليتجه شرقا نحو الهند وآسيا الوسطى والصين.

الهنــد

كما هو معروف، فإن توما الرسول قد يكون هو الشخص الذى توجه إلى الهند للتبشير بالديانة المسيحية عند مروره بالطريق المؤدى إلى مملكة الرها وساليق وقطيسفون.

كان طريق التوابل التجارية يعبر من الخليج وهو يجتاز مضيق هرمز باتجاه جنوب الهند وسيلان، ثم أصبح هذا الطريق المسلك الذى استعمله المبشرون لنشر الديانة المسيحية. وهكذا أخذ الرهبان المبشرون باقتفاء آثار التجار حينذاك، فانتشرت الديانة المسيحية فى الهند.

يذكر كتاب التاريخ السعردى أن دودى، أسقف مدينة براث ميشان (البصرة) ترك كرسى الأبرشية فى عهد البطريرك بابا (٣١٠- ٣٣٦) وتوجه إلى الهند للتبشير بالديانة المسيحية .

" كان فى أيام شحلوفا وفافا الجاثليقين بالشرق وأسطفانوس فطرك برومية من العلماء الأفاضل دودى مطران البصرة، وفارق كرسيه ومضى إلى الهند، وتلمذ بها خلقًا كثيرًا"[1].

وتشرح لنا حكاية تقليدية محلية من جنوب الهند أن التاجر المسيحى توما قينايى ترك الإمبراطورية الفارسية. بصحبة اثنتين وسبعين عائلة ليستقر فى منطقة كرانغانور سنة ٣٤٥ على ساحل ملابار (ولاية كيرالا اليوم).

وتطور انتشار الديانة المسيحية فى منطقة مالابار بسرعة كبيرة. وقد اتسعت بفضل النصوص الدينية التى نشرت عن طريق الطقوس الكنسية السريانية.

ويذكر لنا مؤلف كتاب التاريخ السعردى بهذا الخصوص أن رئيس أساقفة بلاد فارس المدعو معنا قد قام قبل نهاية القرن الخامس بإرسال نسخ من كتب ديودورس وتيودورس التى ترجمها إلى بلاد البحرين والهند لاستخدامها فى المراسم الدينية.

"معنا الذى جعل مطرانا لفارس ممن كان مع نرسى وبرصوما وأقاق فى إسكول الرها وأصله من شيراز، ولما تقلد المطرنة نقل كتب ديودوروس وتيودوروس من اليونانية إلى السريانية. ولم يكن مانا ومعنا مطرانا فارس المقاربين لوقت المفشقان نقلاها...

وعمل أيضا معنا ومداريش وميامير وعنانى من كل ما تحتاج إليه البيعة بالفارسية وأنفذ ما نقله من الكتب إلى بلدان البحر والهند" [2].

وكشف الرحالة البيزنطى كوسماس أنديكوبليستيس حوالى سنة ٥٢٥، فى كتابه المعنون الطوبوغرافية المسيحية فى العالم، عن وجود أسقف فى مدينة ماليه (مالابار) مرسوم فى بلاد فارس، إضافة إلى وجود مسيحيين فى بلاد سيلان.

كما تم اكتشاف صليبين يعود تاريخهما إلى القرن السادس الميلادى فى مناطق ميليابور وكوتّيام الواقعة على الساحل الغربى. ويحمل هذان الصليبان كتابة منقوشة عليهما باللغة البهلوية، ويدل ذلك على وجود الديانة المسيحية فى الهند منذ ذلك الزمن.

ويحتمل أن تكون أسقفية الهند قد تحولت إلى كرسي لرئيس الأساقفة في عهد الجاثاليق صليبا زخا (٧١٤- ٧٢٨).

وقد منح الأمراء المحليون خلال سنوات ٧٧٤ - ٨٢٤ امتيازات مهمة للمسيحيين، واستقر في سنة ٨٢٣ قرب مدينة قويلون شخصان نسطوريان، كانا قد أرسلا إلى هذه المنطقة من قبل بطريرك الكنيسة الشرقية.

ثم وصل البرتغاليون إلى الهند في القرن الخامس عشر ووجدوا في الكثير من المناطق مسيحية نشطة حافظت على اللغة السريانية لغة تستعمل في الطقوس والشعائر الدينية.

توجد اليوم في الهند سبع كنائس هندو- سريانية متنوعة، تعيش على ساحل منطقة مالابار، ويحتفظ المسيحيون بمخطوطات سريانية ثمينة. وطالب المسيحيون الذين عرفوا بتمسكهم الشديد بجذورهم الممتدة إلى الأصول السريانية بتدريس السريانية، لغة جامعية في أقاليمهم وحصلوا على ما أرادوا.

وتذكر التقاليد المتوارثة أن قبر مار توما ما زال موجودا في ميلابور الواقعة بالقرب من مدينة مدراس، على الساحل الجنوبي الشرقي لمنطقة كوروماندیل.

آسيا الوسطى

انطلق المبشرون من بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس متوجهين نحو بلدان آسيا الوسطى.، وانتشرت اللغة الآرامية السريانية المرتبطة ارتباطا متينا بالمسيحية للسريان الشرقيين، عبر جميع مناطق هذه البلدان.

مرو Merv كانت عاصمة خراسان، وكانت هذه المدينة الشرقية التابعة للإمبراطورية الساسانية مركزا تجاريا مهما، واقعة على طريق الحرير المشهور، وهي اليوم واقعة في جمهورية تركمانستان.

يذكر لنا كتاب التاريخ السعردى كيف توجه الراهب برشبا إلى مدينة مرو وأصبح أول أساقفتها، ويخبرنا أنه كان ذاهبا للالتحاق بشيرازان أخت وزوجة ملك الملوك شابور الأول (٢٤١- ٢٧٢) وتمكن من شفائها من مرض الصرع الذى كانت تعانى من أزماته القاسية. كانت الملكة قد تعرضت للنفى فى مدينة خراسان، وأنجبت فيها ولدا للمرزبان (الحاكم). لنترك مؤلف التاريخ السعردى وهو يروى لنا جزءاً من انتشار الديانة المسيحية فى مدينة مرو :

"وكتبت إلى سابور بذلك وسألته أن ينفذ إليها برشبا، لأن علتها عاودتها، فسرَّ بالولد وأنفذ إليها برشبا على الحمازات. وأخذ معه عدداً من القساوسة والشمامسة ومن الكتب ما تحتاج إليه البيعة. ومن الآلة أيضا، فلما وصل إلى مرو خرج الناس لتلقيه، وقصد البيعة وحمد الله على ما أهله للمملكة وقدّس المذبح. وأخذ يعمِّد الناس ويُبرئ الأعلال. وعمَّد خلقا كثيراً من المجوس، وبنى هناك عدة بيع. واقتنى لها ضياعا كثيرة وكروما وغير ذلك. فسبحان القادر المتفضل الذى جعل من بيت الملك المبغض للنصارى المؤذى فى كل مكان من أظهر النصرانية فى بلد خرسان بأسره، لأن تلاميذ برشبا تفرقوا فى جميع مدن خرسان، وبنوا فيها البيع وعمَّدوا الناس. ثم توفى برشبا ودفن فى الدير المعروف هناك بدير داود[٣].

وعمل برشبا على مساعدة الملكة شيرازان فى نشر الديانة المسيحية عبر هذه البلاد الواسعة. انتشرت الديانة المسيحية إذًا بفضل المبشرين السريان الشرقيين، واخترقت حملات التبشير بالإنجيل الحدود الشمالية والشرقية للإمبراطورية الساسانية مابين سنوات ٤٢٠ -٤٢٤ . وأقيمت فى مدينة مرو أسقفية وسط احتفاء السكان وترحيبهم بالمبشرين.

وأصبحت مرو فى القرن السادس مركزا مهما لرئاسة الأساقفة. وكان المسيحيون موجودين سنة ٤٩٨ فى شمال شرق مرو بين سكان الهون هيفتاليت **Hans Hephtalites** الذين لجأ إليهم الملك الفارسى قباذ، وكان هؤلاء الأقوام يعيشون على سواحل نهر الأوكسوس (آمو داريا). وقام البطريرك آبا الأول بتعيين مطران خاص لأقوام الهون هيفتاليت الذين اعتنقوا الديانة المسيحية عام ٥٤٩ .

حيرات Hérat هى الأخرى، المدينة الواقعة اليوم شمال غربى أفغانستان، كانت تضم كرسيا أسقفيا فى القرن الخامس، وأصبح كرسيا متروبوليتيا فى نهاية القرن السادس.

كما أن مدينة كشغر Kashghar الواقعة فى مقاطعة تركمانستان الصينية، كانت مسكنا للعديد من الرهبان الفارسيين الذين كانوا يتوجهون إليها قبل سنة ٥٥٢ . ويذكر لنا المؤرخ بروكوب، أنهم جلبوا إلى الإمبراطور جوستينيان فى القسطنطينية بيوضا من دودة القز مخبأة داخل عصا، كما أصبحت مدينة كشغر مركزًا لرئاسة الأساقفة.

واصل البطريرك طيماثاوس الأول الحملات التبشيرية فى مختلف بلدان آسيا الوسطى وأرسل مبشرين باتجاه الشرق، كما أسس أبرشيات لأقاليم جديدة، وعين رئيس أساقفة فى بلاد الأتراك وبلاد التبت.

سمرقند Samarkand يقول عبديشوع فى كتابه مجموعة قوانين المجامع الكنسية إن تاريخ تأسيس كرسى رئاسة الأساقفة لهذه المدينة الواقعة فى بلاد سوكديان (أوزبكستان الحالية) يعود إلى عهد البطريرك النسطورى صليبا زخا (٧١٤-٧٢٨). ومن الجدير بالذكر أن مسيحيى سوكديان كانوا يستخدمون الحروف السريانية ويكيفونها لاستعمالها فى كتابة اللغة السكوديانية.

وكان التجار والرهبان ينطلقون من مدينة سمرقند، مغامرين بحياتهم للتوجه عبر بلدان آسيا الوسطى، التجار لتوسيع أعمالهم فى هذه البلدان، والرهبان للتبشير ونشر الديانة المسيحية.

يكفى فى هذا المجال الرجوع إلى مذكرات ماركو بولو للتأكد من وجود المسيحية فى مدينة سمرقند فى القرن الثالث عشر، عندما يتحدث عن عادات وتقاليد الجماعات المسيحية فى هذه المدينة العريقة.

القبائل التركية المغولية، تمكن النساطرة من تبشير وتنصير قسم من أقوام منطقة الويغور Ouigour الواقعة شمال جبال همالايا وأقوام النايمان Naiman الأتراك

المغوليين الذين كانوا يقيمون باتجاه جبال الطاى فى بلاد منغوليا. كما أن أقوام الكيرايت Keraites الذين كانوا يعيشون جنوب بحيرة بايكال، قد اعتنقوا الديانة المسيحية حوالى سنة ١٠٠٧ ميلادية. وتذكر بعض المصادر أن رئيسهم كان قد طلب من رئيس أساقفة مدينة مرو إرسال كاهن لهم.

وقد اعتنقت بالإضافة لذلك أقوام الأونغوت Ongut، الشعب التركى القاطن فى المنعطف الشمالى للنهر الأصفر، الديانة المسيحية النسطورية منذ القرن السابع. ثم انخفضت المسيحية فى آسيا الوسطى فى القرن الرابع عشر عند انتشار الطاعون الأسود وابتداء من الغزوات التدميرية لتيمورلنك.

الصيـن

المرحلة الأولى للتبشير

دخلت المسيحية إلى الصين عن طريق التجار النساطرة اعتبارا من سنة ٥٢٠ ، ووصلت إلى مدينة سى نغان فو Si-ngan fou سنة ٦٣٥ .

وفى سنة ١٦٢٥ اكتُشفت مسلة كلسية ذات لون رمادى يبلغ ارتفاعها أكثر من مترين فى مدينة سى نغان فو Si-ngan fou التى أصبحت عاصمة التانك Tang (٦٥٠ – ٦٢٧) .وقد نُصبت هذه المسلة بناء على طلب من أحد المسيحيين الأغنياء المهمين، وهو يى سّو Yi-Sseu، داخل سور أحد الأديرة المشيدة بأمر من الإمبراطور الصينى تاى تسونك (T'ai Tsong(626-649 وحملت هذه المسلة نقوشا منجزة بكتابة صينية واحتوت على قائمة أسماء مكتوبة على أطرافها باللغة السريانية الأسترنجيلية. وتتطابق هذه الأسماء تطابقا تاما مع أسماء ٧٠ عضوا من جماعة المسيحيين.

وقد قام الكاهن الأديب كينك تسينك آدم King-Tsing Adam بكتابة نص هذه المسلة ونقشه عليها. يعتبر وجود هذه المسلة شاهداً أكيدا على نشاطات المبشرين النسطوريين مثل المبشر أولوبين، الذى كان أحد أهم المبشرين منذ القرن السابع فى الإمبراطورية الصينية.

وقد انتشرت "الديانة المتألقة"، بحسب التعبير الذى كان الصينيون يطلقونه على الديانة المسيحية، فى عهد الإمبراطور كاو تسونك (٦٥٠- ٦٨٣)، على امتداد عشرة أقاليم كاملة. كما دخل مبشرون جدد إلى الصين اعتبارا من هذه الفترة التاريخية وشيدوا فيها المزيد من الأديرة فى مختلف المدن والأقاليم.

ويذكرالبطريرك طيماثاوس الأول، بهذا الصدد، فى إحدى رسائله أن المبشرين "يجتازون البحار نحو بلاد الهند والصين حاملين معهم عصا التجوال وكيسا بسيطا من الزاد"(٤) .

وعيّن، فى بداية القرن التاسع، رئيس أساقفة أقام فى عاصمتى الإمبراطورية كومدان (سى نغان فو) وساراك (لوو يانك). وحدثت مع ذلك سنة ٨٤٥ اضطهادات دينية أدت إلى إغلاق الأديرة تحت تأثير رجال الدين التاؤيسيين Taoistes.

غير أن الكنيسة استمرت مع ذلك فى البحث عن الوسائل التى تسمح برفع الاضطهاد عن المسيحيين، وأرسل الجاثاليق عبديشوع الأول فى سنة ٩٨٠، بعثة تبشيرية مكونة من ستة رهبان للتحقق من حالة المسيحيين السيئة.

وأخذت الكنيسة السريانية الشرقية تستعيد نموها من جديد فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وتتوسع فى الصين فى عهد أقوام خيتاى Khitai، وهى قبائل تركية مغولية وأيضا فى عهد سلالة حكم الجين .Jin

المرحلة الثانية للتبشير

عاش المسيحيون الناطقون باللغة السريانية فى عهد السلالة المغولية حياة هادئة ومزدهرة، وأدى هذا الازدهار إلى دفعهم لإعادة تشييد كنائسهم وأديرتهم من جديد كما قاموا نتيجة لذلك بتوسيع إرسالياتهم التبشيرية وضاعفوا إنتاجهم الأدبى.

وتزايد عدد الرهبان النساطرة بشكل كبير ومستمر، وعملوا فى مخيمات المغول. وتبوأ عدد مهم من المسيحيين مناصب عالية مثل سينكاى Cinqai الويغورى، الذى عمل

مستشارا للقائد الصيني أوغويدىOguédei (١٢٢٩ - ١٢٤١) وكاداك Kadak النائيماني، مستشار غويوك Guyuk (١٢٤٦ - ١٢٤٨) وبولقاى Bolqai الكارياتي، مستشار مونغكيMmongké (١٢٥١ - ١٢٥٩) كما عمل النساطرة في مجالات علمية وطبية مثل السكرتير نغي سي Ngai-si (عيسى بالسريانية). وكان نغي سي عضوا من أعضاء الوفد الذي أرسله خان إلى الغرب تحت حكم آرغن Arghun (١٢٨٤ - ١٢٩١)

وقد مارس النساطرة الذين عملوا في وظائف مهمة وأصبحوا كتبة ووزراء وسفراء تأثيراً كبيراً لدى ديوان الخانات المغول ولدى الأمراء والأميرات.

و هل اعتنق الخان غويوك الديانة المسيحية سنة ١٢٤٨ كما يؤكد ذلك الراهب الرحالة جان دي بلان كاربان وابن العبري والمؤرخ رشيد الدين ؟ .

بل إن هولاكو نفسه كان قد تربّى على يد أمٍّ مسيحية، وكانت زوجته دوقوز خاتون قد تبنت العقيدة الكيريائية النسطورية. كما إن ملك الملوك قام بتوظيف طبيب سرياني غربي لخدمته، وهو الربان شمعون المعروف بكنية القديم، والذي كان في تلك الفترة واحداً من أغنى وأكثر المسيحيين تأثيرا في بلاط ملك الملوك.

وتذكر المراجع المختلفة بأن الكثير من المسافرين القادمين من الغرب المتوجهين إلى مختلف بلاد آسيا الوسطى والصين، قد تركوا لنا تفاصيلَ عن مشاهداتهم أثناء رحلاتهم تشير إلى الانتشار الذي عرفته الديانة المسيحية في هذه البلدان وقد وصل الكثير من هؤلاء الرحالة إلى مدينة قرقورمQaraqorum العاصمة الواقعة جنوب بحيرة بايكال على سبيل المثال، بل إلى مدينة بكين، والتقوا بمسيحيين قادمين من الشرق.

ويؤكد ذلك ماركو بولو الذي يخبرنا من خلال بعض سفراته أنه يوجد عدد من المسيحيين المستقرين في الصين الشمالية في منطقة كتاي، والتقى بنساطرة أتراك في منطقة باو يينك في جنوب بكين. ويخبرنا ماركو بولو أنه رأى نساطرة أتراكًا في منطقة تشينكيانك الواقعة في دلتا بانك تسي وفي مقاطعة كراجيان، أي في مدينة يوون نان الحالية.

وفى سنة ١٢٨٠، اختير الراهب مرقص، الذى يعود أصله إلى منطقة كوتشانك والمنحدر من قبيلة أونكوت Ongut، من قبل الجاثاليق دنحا الأول (١٢٦٥-١٢٨١) وعينه رئيسا لأساقفة لأبرشية كاثاى وأونكوت. وأصبح بعد سنة واحدة جاثاليقا لكنيسة الشرق تحت اسم يهبالاها الثالث (١٢٨١- ١٣١٨).

وأسس الخان كوبيلاى الكبير (١٢٦٠-١٢٩٤) بعد بضع سنوات، أى فى سنة ١٢٨٩ المكتب الذى حمل اسم التشونك فوو سُّوو، وهو عبارة عن مكتب لإدارة شئون الدين المسيحى فى الإمبراطورية المغولية.

على أن المغول لم يلبثوا أن تعرضوا للطرد من إمبراطورية الصين، عند مجىء سلالة المينك Ming سن فى سنة ١٣٦٨ . وأدت الاضطهادات التى تعرضت لها الجماعات المسيحية منذ تلك الفترة إلى الاختفاء وحدث ذلك حوالى سنة ١٥٥٠ .

غير أن الرهبان اليسوعيين الذين لم يفقدوا الأمل فى مواصلة التبشير، باشروا نشر الديانة المسيحية من جديد فى نهاية حكم سلالة المينك.

وقد اكتشف مستشرقون غربيون كتابات منقوشة باللغة السريانية على بعض المقابر المبعثرة فى أراضى الأونكوت، وعثروا على قبور مسيحية فى منطقة منشوريا وعلى كتابات سريانية فى مقبرة سميركسى الواقعة فى طاجيكستان يعود تاريخها إلى سنة ١٦٥٠ (١٣٣٩ الميلادية) وفقا للتقويم السلوقى الذى كان يستخدمه السريان.

الفلسفة والثقافة السريانية فى آسيا

لا نملك إلا القليل والنادر من المعلومات عن النشاط الفكرى والفلسفى للسريان فى مناطق آسيا الوسطى والشرق الأقصى، لذا سيكون التركيز على مدينتين شهدتا تألقا مهما فى هذه المناطق، هما مرو ومراغا.

مرو، هى تلك المدينة التى أصبحت مركزًا سريانيًا شرقيًا كبيرًا. ويذكر عبديشوع

الصوباوى فى كتابه فهرس المؤلفين شخصيات من مدينة مرو، منها الفيلسوف والطبيب تيودورس، رئيس أساقفة مرو فى القرن السادس وصديق سركيس الراسعينى، الذى كرس سنوات من حياته لدراسة فلسفة أرسطو. وأيضا اللاهوتى إيليا، رئيس أساقفة مرو فى القرن السابع، الذى كتب عدة كتب ورسائل تعرضت للأسف الشديد للضياع.

وهناك إيشوع داود، رئيس أساقفة بيث كرماى (منطقة كركوك فى العراق) فى القرن التاسع، الذى ينحدر أصله من مدينة مرو، وهو الذى اختص بشرح الكتاب المقدس، وأعطى شرحا قيما عن العهدين القديم والجديد بأسلوب فلسفى مستوحيا أفكاره من تيودوروس المصيصى.

وبرز بالإضافة لهولاء فى حقل الفلاسفة يوحنا بن حيلان، وأبو يحيى المروزى، وتكلمت عنهما المصادر العربية خصوصاً ابن النديم والقفطى وابن أبى أصيبعة.

يوحنا بن حيلان

يتطرق المفكر المشهور الفارابى إلى يوحنا بن حيلان المولود فى مدينة مرو وتلميذ أحد الأساتذة الذين كانوا يعملون فى مرو. وكان أستاذه فى عهد الخليفة المقتدر (٩٠٨ – ٩٣٢). وكان يوحنا بن حيلان قد درّسه علم المنطق لأرسطو.

يقول ابن أبى أصيبعة : " وقال أبو نصر الفارابى عن نفسه أنه تعلم من يوحنا بن حيلان إلى آخر كتاب البرهان. وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذى لا يقرأ إلى أن قرئ ذلك. وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمى المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الإنسان أن يقرأ. فقال أبو نصر إنه قرأ إلى آخر كتاب البرهان"(٥) .

أبو يحيى المروزى

كان هذا العالم الكبير الذى ينحدر أصله من مدينة مرو سريانيا، وقد تطرق إليه ابن النديم، حيث قال :

"قرأ عليه أبو بشر متى بن يونس. وكان فاضلا. ولكنه كان سريانيا، وجميع ماله فى المنطق وغيره بالسريانية، وكان طبيبا مشهورا بمدينة السلام"(٦).

ويشير الببليوجرافى ابن النديم إلى الأفكار التى عرضها المروزى باللغة العربية عن كتاب البرهان لأرسطو.

أو ليس من المناسب فى هذا الخصوص أن نعود إلى كتاب ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ونستعيد الصدى الذى يعكسه النص الذى كتبه المفكر المشهور الفارابى، والذى يعرض فيه تاريخ المدرسة المشائية فى مدن أثينا والإسكندرية وروما وأنطاكية ؟ من المعروف أن مبادئ الفلسفة قد تعرضت للإلغاء، عند اعتناق روما للديانة المسيحية، وأن تعليم المنطق بقى جزئيا فى مدينة الإسكندرية. ثم انتقل بعد ذلك من الإسكندرية إلى مدينة أنطاكية ومن ثَمّ إلى مدينة بغداد، وكان المدرسون يأتون إلى هذه المدن، شرقا من مرو وغربا من حران:

"... إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى إنطاكية، وبقى بها زمنا طويلا إلى أن بقى معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو، فأما الذى من أهل مرو فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزى والآخر يوحنا بن حيلان. وتعلم من الحرانى إسرائيل الأسقف وقويرى وسارا إلى بغداد فتشاغل إبراهيم بالدين، وأخذ قويرى فى التعليم، وأما يوحنا بن حيلان فإنه تشاغل أيضا بدينه وانحدر إبراهيم المروزى إلى بغداد التى أقام بها. وتعلم من المروزى متى بن يونان"(٧) .

لعبت مرو إذًا وكما رأينا دوراً كبيراً فى تعليم الفلسفة المشائية، وأنجبت فلاسفة سريانا قد لا تقدم لنا المصادر الكثير من المعلومات عنهم، إلا أن الشهادات التى

تقيمهم لا تهملهم بل إنها تقدم لنا الدلائل على أعمالهم التى يجدر بنا البحث عنها.

مراغا، استقر الخان هولاكو فى المنطقة سنة ١٢٥٩, وبالرغم من أنها لم تكن سوى بلدة تقع بين أذربيجان وبلاد ما بين النهرين غير بعيدة عن بحيرة أرميا وتحيط بها المراعى من كل جانب، فإنها أصبحت مركزا مهما للمسيحيين السريان. وقد أسس البطريرك يهبالاها الثالث فيها ديرا ورواقا تحت اسم القديس يوحنا كما بنى أيضا مقرا بطريركيا حيث كان يستقبل فيه الخانات المغول.

كان هولاكو شخصا يهتم بتشييد المبانى ويحب العلوم. وبنى لذلك مرصدا مشهورا قام بنصبه على تل مرتفع واقع فى مراغا.

وكان المؤرخُ ابنُ العبرى يرتاد هذا المرصد وكان يديره فى ذلك الوقت الخواجا نصر الدين الطوسى ويجتمع به مع جماعة العلماء المحيطين به. وكان يدرّس معهم المواضيع العلمية ويستشير مؤلفات المكتبة الملكية للتمكن من تأليف عمله المعروف "كتاب مختصر تاريخ الدول".

للسريان الشرقيين - تجاراً كانوا أو مبشرين أو رهباناً أو موظفين كباراً وكاتمى الأسرار- دورهم فى تمثيل حضارة سريانية سادت واستمرت ولم تخمد قط، ومارسوا بقدراتهم وإيمانهم وعلمهم تأثيرا واسعا فى أمراء المغول وملوك الهند والصين.

هوامش الفصل الثامن والعشرين

(١) التاريخ السعردى Chronique de Séert، طبعه المطران أداى شير Addai Scher، دار نشر بريبولس Brepols)، بلجيكا، ١٩٨١، الجزء الأول، ص ٢٣٦ (٢٦).

(٢) المصدر السابق نفسه، الجزء الثاني، ص ١١٦-١١٧ (٢٥).

(٣) المصدر السابق نفسه، الجزء الأول، ص ٢٥٦ (١٤٤).

(٤) CSCO، الكتبة السريان .Scriptores syr، سير Ser، الجزء الثانى، المجلد LXVII، ص ١٠٧ .

(٥) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٦٠٥ .

(٦) ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٦٨ .

(٧) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٦٠٥ .

الفصل التاسع والعشرون

انتقال الفلسفة إلى الغرب

ندفعُ بقاربنا المصنوع منَ مقاطع المفردات ونجمعها جملة بعد جملة، لكى نلتحق بواسطتها من جديد بالعصور القديمة.

اندلعت سنة ٧٤٧ ثورة كبيرة ضد الدولة الأموية التى كانت تحكم العالم الإسلامى من مدينة دمشق. وتعرض الخليفة مروان الثانى للهزيمة على ضفاف نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة بين الموصل وأربيل. وهرب إلى مصر حيث قتل فيها بتاريخ ٧ تموز (يولية) سنة ٧٥٠ . وتمكن العباسيون ذوو البأس من القضاء بسرعة على آخر الخلفاء الأمويين، واستولوا على سلطة الدولة الإسلامية الكبيرة.

بلاد الأندلس : إســـبانيا

ثم نجح عبدالرحمن، أحد الأمراء الناجين من ثورة العباسيين، فى الهرب إلى بلاد المغرب، وأبحر بعد سنوات قليلة إلى إسبانيا . واستولى على قرطبة سنة ٧٥٦ وأسس فيها إمارة أطلق عليها العرب اسم بلاد الاندلس.

وقام حفيده عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١) بعده بتوحيد المقاطعات الإسبانية الخاضعة للديانة الإسلامية، وتحولت الإمارة إلى خلافة، تألقت عبر عصورها الطويلة.

عرفت قرطبة، المدينة التجارية الحية ذات الألوان المتعددة والمشهورة بصناعاتها الجلدية، ازدهاراً مشهوداً فى العلوم والفنون، وجذبت مكتبتها الواسعة ومدارسها وجامعاتها العديد من العلماء والأدباء الذين كانوا يتدفقون عليها .

كان هؤلاء العلماء يسافرون عبر مختلف أرجاء العالم الإسلامى. وكانوا يتوجهون خصوصا إلى مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين، بحثا عن كتب الفلسفة والعلوم الإغريقية المترجمة إلى اللغة العربية ويجلبونها إلى بلاد الاندلس.

قد يتعين علينا فى هذا الصدد ذكر بعض من فلاسفة إسبانيا الذين توصلوا إلى معرفة مثل هذه التراجم العربية ودراستها : ابن باجة (١١٣٨) وابن طفيل (١١٨٥) وخاصة ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) الذى عرفه ويعرفه عالم المعرفة أكثر تحت اسم أفيرُويس Averroès شرح هذا الفيلسوف العلامة الأخير بمنتهى العناية نصوص أرسطو، وركز على جوانبها العقلانية. ويكفى القول إن فلسفته كانت تدرس فى جامعة باريس من قبل سيجر دى برابان Siger de Brabant (١٢٣٥ - ١٢٨١) .

مدينة أخرى هى طليطلة، عاصمة الفيزيغوت القديمة، ما لبثت أن شكلت جزءًا من خلافة قرطبة، وأصبحت فى القرن العاشر عاصمة مملكة مستقلة، وتطورت فى هذه المدينة العريقة ثقافة راقية بفضل تعليم المدارس اليهودية والإسلامية وغزارة المؤلفات العربية التى ملأت مكتباتها، وانتشرت فى أسواقها العديدة. وقام خليفة المدينة، سعيد الأندلسى (١٠٢٩-١٠٧٠) المتعطش للمعارف العلمية، بإدخال تدريس علوم النجوم وإعداد الجداول الفلكية. وتمكن ألفونس الخامس ملك مملكة كاستيل (Castille) فى سنة ١٠٨٥ من استعادة طليطلة التى أصبحت عاصمة لمملكته، وتعايشت الطوائف المسيحية واليهودية والمسلمة فى هذه المدينة بروح من التسامح، وشجع الملك التعاون القائم بين العلماء اللاتين والعرب.

وبقيت طليطلة مركزًا للتبادلات الثقافية بين المثقفين الذين كانوا يتوجهون إليها من جميع أنحاء أوروبا.

وركز المسيحيون اهتمامهم، بمساعدة العلماء المسلمين واليهود، للتعرف على العلوم الإغريقية. وبحثوا أولا عن النصوص الفلكية ونقلوها إلى اللغة اللاتينية، واكتشفوا الكتب الطبية والفلسفية والتراجم التى أنجزت باللغة العربية، والشروحات التى قام بها السريان سابقا، مثل تلك التى قام بها حنين بن إسحاق وابنه إسحاق

وابن الطيب والكثير من العلماء والفلاسفة الآخرين. أجل غالبية الكتب العربية التى بحوزتهم والتى جلبت من المشرق كانت ترجمات أو شروحات لعلماء وفلاسفة سريان.

وأقيمت مراكز ترجمة عديدة فى مدينة طليطلة التى كان سكانها ينطقون اللغة العربية إضافة إلى لهجة رومانية محلية. وعمل فى هذه المدينة، الموزاراب (المسيحى المستعرب) جان دى سيفيل Jean de Séville (١١٥٧) الذى ترجم إلى اللغة اللاتينية كتاب قسطا بن لوقا الذى حمل عنوان "عن الفرق بين النفس والروح".

ووصل الإيطالى جيرار دى كريمون Gérard de Crémone (١١١٤ - ١١٨٧) إلى طليطلة حوالى سنة ١١٣٠ ، وأصبح خورى الكاتدرائية فيها. تذكر لنا قائمة كانت قد أُعدت من قبل تلاميذه، أنه قام بإحدى وسبعين ترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فى مجالات الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والمعادن. وترجم بحوثا فى الفلسفة الطبيعية لأرسطو وهى "الفيزياء والسماء والولادة والانحلال وعلم الأرصاد". وأهتم اهتمامًا كبيرًا بإيصال الأعمال المتعلقة بعلم المنطق إلى الراغبين فيها مثل بحث البرهان الذى أنجزه من الترجمة العربية لأبى بشر متى بن يونس، وشرح كتاب البرهان الذى ألفه تيميستسوس الإغريقى فى القرن الرابع. كان جيرار دى كريمون يحمل لقب "الأستاذ" ويعتبر من أكبر مترجمى المدينة.

قد يكون من الملائم فى هذا الصدد تقديم شهادة بحق طليطلة، إن دلت على شىء فإنها تدل على المكانة التى وصلت إليها مدينة طليطلة فى تلك الفترة المزدهرة. يحدثنا دانيال دى موريله Daniel de Morley الكاتب الإنجليزى الذى غادر إنجلترا، ومر بمدينة باريس ولكنه فضل التوجه إلى طليطلة مبرِّرًا اختياره هذا بما يلى :

"دفعتنى رغبتى الشديدة فى الدراسة إلى مغادرة إنجلترا، وبقيت فترة قليلة فى باريس ولكنى لم أصادف فيها إلا أناسا همجًا مستبدين يجلسون على مقاعدهم الدراسية، وأمامهم كرسيان أو ثلاثة محملة بكتب ضخمة، لذلك توجهت مسرعا إلى طليطلة لسماع دروس الفلاسفة الكبار فى هذا العالم، طليطلة التى يتلقى فيها الناس تعليم العرب الذى يضاهى الفنون الرباعية (العلوم)"(١).

التقى دانيال دى مورليه فى طليطلة بجيرار دى كريمون، ودرس التعليم العربى، وجلب معه كتبا إلى إنجلترا، وترجم مارك الطليطلى Marc de Toléde، فى القرن الثانى عشر، كتاب المسائل عن الطب لحنين بن إسحاق.

استمر الخورى ميخائيل سكوت Michael Scot فى ترجمة كتب أرسطو التى كان قد بدأها جيرار دى كريمون. وبدأ بترجمة شروحات ابن رشد إلى اللغة اللاتينية.

وتوجه سنة ١٢١٥ إلى مجمع لاتران الرابع، وغادر مدينة طليطلة سنة ١٢٢٩ للالتحاق بحاشية فردريك الثانى فى بالرم Palerme .

واستلم الراية هيرمان الألمانى بعد مغادرة ميخائيل سكوت.

إيطاليا الجنوبية وصقلية

تعرضت سالرن، المدينة الواقعة فى جنوب إيطاليا والتى كانت إمارة لومباردية المستقلة، للغزو من قبل النورماندى روبر كيزكار Robert Guiscard سنة ١٠٧٦ . وكانت هذه المدينة قد احتضنت مدرسة طب اشتهرت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، بفضل المفكرين السريان واليهود والعرب الذين كانوا قد نقلوا العلوم الإغريقية إلى الدارسين الأوروبيين.

وكان قسطنطين الإفريقى Constantin l' Africain (١٠٨٧) الذى ينحدر أصله من شمال إفريقيا (تونس الحالية) واحدا من بين هؤلاء المفكرين الكبار. وكان قد درس اللغتين العربية واللاتينية وعلوم الطب فى مدينة القيروان. وهاجر إلى إيطاليا نحو سنة ١٠٧٥ وأقام فى دير مونتكاسان، وأنجز فيه تراجم خصصها لمدرسة الطب فى مدينة سالرن.

ترجم قسطنطين إلى اللاتينية كتاب مسائل عن الطب للفيلسوف السريانى حنين ابن إسحاق تحت عنوان Isagoge ad Tegn Galeni على شكل مدخل إلى فن جالينوس، وهذا الكتاب كان موضوع عدة شروح وتعاليم فى البلاد. كما نقل إلى اللغة اللاتينية البحوث العشرة عن العين لحنين بن إسحاق تحت عنوان كتاب العين liber de oculis . وقد أدت هذه البحوث إلى إحداث تأثير كبير فى طب العيون الغربى.

كما أن كتاب الحكَم ليوحنا بن ماسويه كان قد ترجم من قبل عدة علماء في جنوب إيطاليا.

وتعرضت مدينة سالِيرن لأعمال سلب ونهب سنة ١١٩٤ من قبل الإمبراطور هنري السادس بن فريدريك باربروس، الذي أصبح ملكا لجزيرة صقلية فيما بعد. أدى ذلك إلى تراجع العلوم فيها.

فتح العرب جزيرة صقلية سنة ٨٣١ خلال الحروب التي حدثت بينهم وبين البيزنطيين، واستولى النورمانديون على صقلية في الفترة من ١٠٦١ إلى ١٠٩١ . وكان قد استرجعها روبير كيسكار وأخوه روجير. كانت هذه الجزيرة تشكل مرفأً حيويا على مفترق طرق تجارية قادمة من شرق البحر الأبيض المتوسط وغربه، حيث كان كل من اللومبارديين والإغريق والعرب والأرمن واليهود يعيشون جنبا إلى جنب. وكانت هذه المدينة الشرقية تنافس بجمالها أبنية مدينة قرطبة وجوامعها وأسواقها. وكان أقوى أمراء أوروبا فريدريك الثاني هوهنستاوفن (١١٩٤-١٢٥٠)، إمبراطورَ الجرمانيين وملك صقلية، يتحدث اللغة العربية، كما كان معجبا بالحضارة الاسلامية.

كان الجغرافيون والمؤرخون والأطباء والعلماء والفنانون يعقدون الاجتماعات والنقاشات في عاصمة الجزيرة باليرم، وكانت مركز الفكر الخصب ومقر الدراسات الفكرية والعلمية. وكما كان عليه الحال في إسبانيا، كان هؤلاء المثقفون يبحثون عن الأعمال الإغريقية العريقة ويستخدمون النصوص الأصلية تارة وتراجمها وشروحاتها باللغة العربية تارة أخرى. كانوا يهيئون ويترجمون النصوص المهمة إلى اللغة اللاتينية لكي تكون جاهزة للاستخدام من قبل الجميع.

وهكذا تُرجمت في نهاية القرن الثاني عشر إلى اللغة اللاتينية اعتبارا من اللغة الإغريقية مباشرة أو عن طريق الترجمات العربية، أعمال علماء الرياضيات مثل فيثاغورس وإقليدوس ، وكتب الأطباء مثل أبيقراطس وجالينوس، والنصوص الجغرافية والفلكية التي كتبها بطليموس، وكتب أفلاطون وأرسطو الفلسفية .

اكتشف المدرسون داخل المدارس الكبيرة في بولونيا وباريس وأوكسفورد ومونبلييه التي برزت في القرن الثالث عشر، العلم الإغريقي والطب والفلسفة وخاصة فلسفة أرسطو، المصدر الأساسي للتقدم وللتفكير. وأخذت علوم الفلسفة تنتشر في أوروبا على الرغم من النظرة السلبية التي كانت موجهة نحوها، كما نرى ذلك من الرقابة التي فرضها مجمع كنسي لمقاطعة سينس Sens في ١٢١٠، والذي منع على سبيل المثال قراءة كتب الطبيعيات للفيلسوف أرسطو، إضافة إلى القوانين التي وضعها الكردينال روبير دي كورصون في جامعة باريس سنة ١٢١٥، والتي كانت تمنع الطلاب من قراءة مواضيع الميتافيزيقا والفيزياء والكتب الأخرى التي تتعلق بالعلوم الطبيعية.

خاض علماء آخرون مغامرة كبرى، وهي التوفيق بين العلم الهلّيني والوحي المسيحي. سبق وأن أقلقت هذه المسألة الخطيرة بال السريان كالفلاسفة يحيى بن عدي وابن سوار وغيرهما ؛ كانوا قد بذلوا قصارى جهدهم لمعالجتها. هل يا ترى وصلت أصداء محاولاتهم إلى الغرب ؟

إن مثقفي أوروبا ثمّنوا عالياً تراجم النصوص اليونانية إلى العربية وشروحاتها التي قام بها السريان، هؤلاء الوسطاء بين الشرق والغرب. لقد حدث في تلك العصور لكل من حنين بن إسحاق، وابن الطيب، وابن العبري ، وعبديشوع الصوباوي، أن سطع نور علمهم داخل أوروبا اللاتينية. لقد عُرفوا تحت أسماء: يوهانّيسيوس Johannicius، وأبوالفرجيوس Abulphagius، أبدالله بياتّيبوس Abdalla Beattibus، برإيبرايوس Bar Hébraeus وإبد جيزو دي نيصيب Ebed Jesu de Nisibe .

ألم يكونوا حملة النور الذي كان قد سطع من المشرق ؟ لقد ساهموا في تحديث الفكر اللاهوتي والفلسفي الغربي والترويج لعلم الطب، وإدخال منهج التفكر للحصول على المعرفة، ثابتين كجسر متين يربط بين جهتي البحر الأبيض المتوسط، تحولوا إلى برج مضيء، مثل زقورة بابل التي كان يصعد إليها الناس للتقرب من السماء، رمز الوعي والمعرفة.

هوامش الفصل التاسع والعشرين

(١) نص ذكره جاك لو غوف Jacques Le Goff، بعنوان . المفكرون فى القرون الوسطى Les Intellectuels au Moyen-Age، دار نشر لوسوى Le Seuil، باريس ١٩٨٥، ص ٢٣ .

الخاتمة

بدأ السريان انطلاقتهم منذ القرن الثانى الميلادى على شاكلة أبطال الساحة والميدان، انطلقوا إلى العلا نحو سماء المعرفة الصافية بلوغا إلى الطبقة اللازوردية، ارتفعوا إلى أعالى الفضاء إلى أن وصلوا حمرة المشرق، حيث ومضات أنفس كبار فلاسفة العصور القديمة.

ينتمى فلاسفة السريان، المتواضعون والشامخون فى الوقت نفسه، إلى "نخبة المفكرين"، طبقة متكوّنة بصورة خاصة من الرهبان والكهنة والأساقفة مثل بروبا، وسرجيس الراسعينى، جرجيس أسقف العرب، وطيماثاوس الأول، وابن العبرى، وعبديشوع الصوباوى .

برز بعد ذلك كاتمو أسرار وأطباء علمانيون، مثل حنين بن إسحاق وإسحاق بن حنين، حبيش، ومتى بن يونس، ويحيى بن عدى، وابن زرعة، وابن سوار، وهؤلاء جزء يسير، منهم، ما برحوا يتلألئؤن كالحجارة الكريمة داخل جنة علاء الدين، بطل ألف ليلة وليلة.لقد سردت لكم قصتهم التى وردت من الشرق القديم.

أظهر السريان فى بحثهم عن حكمة الإغريق القدماء التى ضمت فى طياتها مبادئ التفكير اللاهوتى، اهتماما استثنائيا بالدراسة، لذلك قاموا بتأسيس المدارس التى فتحت أبوابها واسعة أمام تلاميذ الدراسة والبحوث طلبا للشفاء من أسوأ داء عرفته الإنسانية، ألا وهو الجهل. وطوروا فى هذه المدارس قدراتهم الفكرية، تلك الهبة الثمينة التى استطاعوا جمعها مع الحرية. وبذلك تمكنوا من سبر أسرار وجه المعرفة المتوهج وداعبوا روح أجوائها الخصبة، وتحسسوا بعذوبة مجالاتها المتعددة. كانت المعرفة تمثل بالنسبة لهم قلب الحياة الحقيقية التى طالما بحثوا عنها.

بقى السريان أوفياءَ للفكر الإغريقى فى تمجيده للإنسان، والمرتكز على الجمال والثقافة والعظمة. ألم يكن الإنسان، حسب الكتاب المقدس، مخلوقا على صورة الله ومثاله ؟

كان هؤلاء العلماء أغنياء بأفكارهم، ماهرين بأعمالهم، شغوفين بحب الاطلاع على الثقافات البابلية والفارسية والهندية والعربية، مطورين بذلك قدراتهم الكامنة على إدراك الأفكار واستيعابها بدلا من الجمود والبقاء منعزلين عن العالم المحيط بهم.

اهتموا منذ البداية بعلم الفلك والفيزياء والميتافيزيقية وفن البلاغة، وربطوا بين الطب والفلسفة. وعرفوا أنه إذا كان الطب يعالج جسم الإنسان فإن الفلسفة تستهدف تجميل فكره وتزيين نفسه. وسبروا أصل الفلسفة التى تبحث فى معرفة جوهر الأشياء، واستخدموا المنطق لشرح المفاهيم الفلسفية واللاهوتية، وكانوا يعتبرونه الأداة التى تحتاجها العلوم.

واقتفى السريان مسار الترجمة الطويل للكتب الإغريقية القديمة، سار على هذه الدروب الصعبة فى الشرق المترجم هيباس، وعلى دربه سار هؤلاء الرجال المتحمسون كافة، ليترجموا من اللغة الإغريقية إلى اللغة السريانية فى البداية، ثم من السريانية إلى اللغة العربية التى أتقونها، فأحسنوا صياغة ترجماتهم.

ترجم السريان أعمال عدة مؤلفين إغريق مثل أفلاطون ونيقولا الدمشقى وجالينوس والإسكندر الأفروديسى وفرفوريس وتيميستسوس. وكرسوا سنوات كاملة من أعمارهم لدراسة كتاب الأورغانون لأرسطو، فاتحين بذلك نافذة جديدة أمام البحوث والدراسات العميقة.

لم يكتفوا بنقل التراث الفلسفى والعلمى والثقافى الإغريقى بالأمانة التى اشتهروا بها، وإنما عمقوه وشرحوه واختصروه وأغنوه أيضا بإرادتهم الصلبة وصبرهم الطويل، مضيفين إليه شيئا من عبقريتهم .

وأثبتوا قدراتهم الكامنة والمتميزة على النسخ والترجمة والتفاسير والنقد، وأبرزوا الوحدة العميقة للفكر الإنسانى فى شرح فلسفة أرسطو.

عرف العلماء السريان اللغة اليونانية، واستعملوا فى لغتهم مصطلحات فلسفية وعلمية استمدوا معانيها ومفرداتها من كتب المنطق لأرسطو. وضعوا بعد ذلك القواميس السريانية العربية، التى أغنت اللغة العربية كثيراً، وهكذا تمكنوا من نقل قسم مهم من الفلسفة والعلوم الإغريقية إلى العالم العربى والإسلامى.

متمسكين بعقيدة الكنيسة المسيحية، لم يجرؤ هؤلاء العلماء ذوو الفكر الثاقب على استنباط نظام فلسفى أصيل للعالم. ظهر مع ذلك من بينهم مفكرون دفعتهم روح الاستقلالية إلى محاولة توضيح علاقة العلم بالدين، وهكذا لم يتردد بولس الفارسى على سبيل المثال من التصريح بأن العلم يسمو على الإيمان. ابن سوار أيضا حاول بدوره الوصول إلى حل وسط يعمل على التوفيق بين العقيدة والفلسفة.

عاش السريان فى بلدان المشرق السامية والهلّينية، فى قلب المدن التى لعبت دورا مهما فى نشر المعرفة. مدن مثل الرها ونصيبين وحران ومرو وجنديسابور التى جذبت نحوها رجال العلم والحكمة. ثم بغداد، المولودة الجديدة، المطعمة بالفسيفساء البراقة من الشعوب والحضارات المختلفة، تحولت معهم وبهم إلى مركز لتعليم الفلسفة وعلوم المنطق، وفتحت أبوابها أمام الإشعاعات القادمة من المدرسة الإسكندرية، بغداد التى سمحت للأفكار والبضائع بالانتقال الحر فى ربوعها الكريمة، استمدت قوتها من الحمّى الفكرية التى ساهم فيها السريان مساهمة مشهودة، والتى تميز بها عصر أمجادها.

فى تلك العصور المزدهرة التى عاشها المشرق مبكرا، كان الغرب لا يزال يعيش فى غياهب الجهل والظلام، على الرغم من الجهود التى بذلها الإمبراطور شارلمان لتطوير التعليم.

وكان الخلفاء العباسيون مثل هارون الرشيد والمأمون، والوزراء وأنصار العلم والأدباء قدوة ومهتمين بقيم الثقافة والعلم. وأطلقوا حملات البحث عن المؤلفات الإغريقية القديمة، وأسسوا المكتبات وعقدوا المجالس والندوات الفلسفية. وتبنوا مبدأ المعرفة والعيش السليم، وتزودوا بالفكر المتوقد والقدرة على الرد السريع بكل حيوية وإيجاز، وشجعوا الكتابة وأعمال الترجمة التى أنجزها السريان لحسابهم وقيموا مواهبهم.

نعرف الدور الذى لعبته العائلات "النسطورية" الكبيرة فى رعاية الأدباء، مثل عائلة بختيشوع التى ساهمت فى تطوير حقلى الطب والحكمة، والتى شهد تاريخ العرب على دورها هذا.

استولى المغول فى سنة ١٢٥٨ على بغداد، وخمد بريق شمس الخلافة العباسية، وغطت الكآبة أجواء شتائها القاتم، حيناً. واستطاعت بغداد النجاة من الموت، ولكنها عاشت مضرَّجة بدمائها الغزيرة. وتضاءل نورُ هذا المركز العلمى الذى كان يعتبر من أهم المراكز فى الدولة العربية الإسلامية.

ثُم اعتنق المغول الديانة الإسلامية فى نهاية القرن الثالث عشر، وبدأ حكم تيمورلنك المتعصب، وبدلا من أن يقتفى مبادئ التسامح التى سادت لدى خلفاء الدولة العباسية السابقة له، قام بشن غزواته المشهورة اعتبارا من سنة ١٣٨١ ، وعامل السريان الشرقيين بقسوة وشدة .

وبدأ مسيحيو آسيا الوسطى وفارس وبلاد ما بين النهرين الذين تعرضوا لضربة قاسية، التشتت. وتراجعت الكنيسة النسطورية لتنحسر فى المنطقة الواقعة بين بحيرات وان،وأروميا، وتمركزت فى مناطق الموصل وكركوك وأربيل وعلى جبال كردستان، لقد بدأ فعلا نجمها فى الأفول.

مع كل ذلك بقى روح الحرية قائما وسط الجبال. عاش ورثة هذه الجماعات المسيحية من الشعب الكلدانى الأشورى السريانى فى أعالى بلاد الرافدين بتواضعهم المعروف، وهم يبحثون عن وسائل العيش والبقاء فى أراضيهم. وإذا كانوا قد تخلَّوا عن الفلسفة زمنا، فإنهم أعاروا اهتمامهم البحوث المتعلقة بالكتاب المقدس وعلم اللاهوت والنصوص الروحانية والأدب المسيحى. وما برحت أسماء مثل إيشوعياب بر مقدم (١٤٤٤) وإسحاق القرداحى (١٤٨٠) وسركيس بروحلى (نهاية القرن الخامس عشر) تسطع فى سجل حياة السريان الكبير.

ثم خضعت بلاد الرافدين لحكم العثمانيين فى القرن السادس عشر بعد استيلائهم على بغداد. واشتهر فى هذه الفترة اسم سريانى شرقى وهو إسرائيل الألقوشى (١٥٤١-١٦١٠)، الكاتب والمستنسخ والشاعر الذى كان يكتب أشعاره باللغة

العامية السريانية، المعروفة بالسورث . ولد فى بلدة ألقوشى سنة ١٥٤١ ومارس فى مدرسة ألقوش هذه مهمة المدير والمرشد. وقد عمل فى هذه المدرسة أيضا، منذ أواسط القرن السادس عشر أدباء سريان شرقيون، وبذلوا جهدهم المتواصل بهدف إحياء الأعمال الأدبية للسريان.

فى سنة ١٦٦٤ اهتم يوسف التلكيفى، من بلدة تلكيف المسيحية الواقعة فى الشمال، بالكتابة والتأليف. وكان كاهنا متزوجًا وأبًا لعدة بنين، وتنسب إلى هذا الرجل فى المخطوطات السريانية، ست قصائد كتبها باللغة السريانية الحديثة.

يوسف معروف، البطريرك الكلدانى (١٦٦٧- ١٧١٥) نظم هو أيضًا قصائد شعرية وكتب أعمالا لاهوتية، واهتم بدراسة الفلسفة والمنطق وشرح قصيدة لابن العبرى عن الحكمة الإلهية.

خضر الموصلى (١٦٧٩-١٧٥١)، لغوى سريانى آخر، وضع معجمًا مهمًا سريانى-عربى، وقاموسًا آخر من جزأين باللغات العربية والسريانية والتركية.

كما قام لغوى آخر، هو يوسف الراوندوزى (١٧٥٠- ١٨٣٢) بترجمة كتب دينية سريانية إلى اللغة التركية، وقام بتأليف أشعار وأناشيد دينية باللغة التركية، وألف أيضا معجما سريانى - سورث (اللغة السريانية الحديثة) وكتابًا عن قواعد اللغة السريانية.

واهتم الموارنة فى لبنان، منذ القرن السادس عشر، بالثقافة السريانية وساهموا فى نشرها، وكانت طقوسهم وشعائرهم الدينية تقام باللغة السريانية. وبرز منهم مفكرون وكتاب برهنوا عن كفاءتهم وقدراتهم العلمية والفكرية على حد سواء.

انطلقت منذ القرن التاسع عشر نهضة جديدة ولدت فى نفوس السريان، ألهبتها نيران المعرفة المقدسة. ويقيم السريان، الذين لم يتعرضوا للزوال فى أعاصير الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) اليوم فى العديد من بلدان الشرق الأوسط، ويصل تعدادهم اليوم إلى أكثر من مليونى نسمة .

وفى العقود الأخيرة ولأسباب عديدة اتجه قسم من السريان إلى بلاد المهجر،

مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبلدان أوروبا وأستراليا. ربما يرى البعض أنهم قد تاهوا قليلا فى خضم عالم المصالح وروح المادية وفقدوا أحلامهم. إنهم ينسون أحيانًا أنهم يمسكون مصباح تراثهم الثقافى فى يدهم.

يوجد اليوم هنا وهناك مفكرون، من أبناء هذا الشعب، عشقوا الحرية ويتابعون دراسة العلوم والفلسفة، ويتعمقون فى تاريخ شعبهم العريق. إنهم يعودون بفكرهم إلى بلدان المشرق الوردى وإلى حكمته القديمة، ويبذلون جهودهم للمحافظة على ذاكرتهم الجماعية، الأساس المتين لهويتهم القومية. يشعر هؤلاء المفكرون السريان، بولادة روحهم السريانية من جديد، ويحلمون بعالم زاهر ومتناغم لهم وللآخرين.

لقد نهلنا من الإكسير السحرى للفلاسفة السريان، وحاولنا أن نجمع قسما من تراثهم، متيقنين وآمنين بالأهمية التى تمثلها الفلسفة فى عالم اليوم وعالم الغد. أليست الفلسفة هى ذلك الفن الجميل الذى يساعد الإنسان على التفكير الصحيح والعيش السليم ؟ ألا تتيح لنا الفلسفة فرصة قضاء حياة أكثرعقلانية وإشراقا وتناغما ؟

الفلاسفة الإغريق الذين تُرجمت أعمالهم(*)

مؤلّفون ترجم الفلاسفة السريان أعمالهم وشرحوها

أولا : أفلاطون

الترجمة إلى اللغة العربية :

- النواميس Le lois، ترجمه حنين بن إسحاق ويحيى بن عدى، وفق ابن النديم والقفطى.

- السفسطى Le sophiste، ترجمه إسحاق بن حنين، وفق ابن النديم.

- التيميه Le Timée، ثلاث مقالات، ترجمة ابن البطريق وحنين بن إسحاق، تصحيح ومراجعة يحيى بن عدى، وفق ابن النديم، ويذكر المسعودى والرازى والبورينى ترجمة عربية له.

- الجمهورية La République، ترجم إلى اللغة العربية، وفق المسعودى.

- وصية لتربية الشباب Le testament pour l'éducation des jeunes ترجمه إسحاق بن حنين.

الشروح إلى اللغة العربية :

- الجمهورية، شرحه أو ترجمه حنين بن إسحاق، وفق ابن النديم والقفطى.

---

* وضعتُ هذا الجدول اعتمادا على المصادر السريانية والعربية والدراسات الحديثة التى أنجزها المستشرقون.

ثانيًا : أرسطو

١ – الاورجانون L'organon

أ–كتاب المقولات Les Catégories

التراجم من اللغة الإغريقية إلي السريانية:

– كتاب مترجم من قبل مجهول ينسب إلى سرجيوس الرأسعينى.

– ترجمة يعقوب الرهاوى.

– ترجمة جورجيس أسقف العرب.

– ترجمة حنين بن إسحاق مفقودة.

التراجم إلى اللغة العربية :

– ترجمة إسحاق عن الترجمة السريانية لأبيه، وقام الحسن بن سوار بمراجعة هذه الترجمة.

الشروح باللغة السريانية :

– شرح سبعة كتب لسرجيوس الرأسعينى.

– شرح لجرجيس أسقف العرب، وفق ابن أبى أصيبعة.

– شرح ديونيسيوس بن صليبى، محفوظ فى مخطوطة فى كمبريدج – كاتاوج رايت وكوك Wright & Cook ص ١٠٠٩ .

الشروح باللغة العربية :

– ملاحظات مدونة من قبل الحسن بن سوار على هامش مخطوطة المكتبة الوطنية، باريزينوس (Parisinus ar. 2346 (القرن الحادى عشر) .

– شرح ابن الطيب.

ب - كتاب العبارة De l'interprétation

التراجم من اللغة الإغريقية إلى السريانية :

- ترجمة بروبا وفق المستشرق الألمانى بومستارك.
- ترجمة جرجيس أسقف العرب.
- ترجمة حنين بن إسحاق، وفق ابن النديم.

الشروح باللغة السريانية :

- شرح بروبا.
- مقدمة لجرجيس، أسقف العرب لترجمته السريانية.
- ربما يكون ساويرا سابوخت قد نقل من اللغة الفارسية إلى السريانية شرح بولس الفارسى عن كتاب العبارة وفق بومستارك.
- شرح عن بحث التفسير لديونيسيوس بن صليبى، محفوظ فى مخطوطة بكمبريدج.

الترجمة إلى اللغة العربية :

- ترجمة إسحاق بن حنين، عن ترجمة أبيه حنين بن إسحاق إلى اللغة السريانية بالتأكيد.

الشروح باللغة العربية :

- شرح ابن الطيب، وفق ابن أبى أصيبعة.

(جـ) القياس Les Premiers Analytiques

التراجم إلى اللغة السريانية :

- ترجمة منسوبة إلى بروبا، وفق بومستارك.
- ترجمة جرجيس أسقف العرب.
- ترجمة منسوبة إلى أثناسيوس البلدى.
- ترجمة تيوفيل الرهاوى.
- ترجمة حنين بن إسحاق غير كاملة وأنهاها إسحاق بن حنين، وفق ابن النديم.

الشروح باللغة السريانية :

- شرح بروبا .
- شرح جرجيس أسقف العرب.
- شرح عن كتاب القياس لحنانيشوع الأول ٦٨٦– ٦٩٣ ، وفق فهرست عبديشوع النصيبينى.
- بحث وشرح بعض أقسام من كتاب القياس لساويرا سابوخت.
- شرح عن كتاب القياس لديونيسيوس بن صليبى ، محفوظ فى مخطوطة بمدينة كمبردج.

الشروح باللغة العربية :

- شرح إبراهيم قويرى.
- شرح بشر متى بن يونس ، مذكور فى مخطوطة باريس ٢٣٤٦ .

د – البرهان Les Seconds Analytiques

التراجم إلى اللغة السريانية :

– ترجمة مفقودة حاليا، منسوبة إلى أثناسيوس البلدى.

– ترجمة أنجزها جزئيا حنين بن إسحاق وأكملها إسحاق بن حنين.

الشروح باللغة السريانية :

– شرح كتاب البرهان لديونيسيوس بن صليبى، محفوظ فى كمبريدج.

الترجمة من اللغة السريانية إلي العربية :

– ترجمة أبى بشر متى بن يونس.

الشروح باللغة العربية :

– شرح أبى بشر متى بن يونس، وفق ابن النديم.

– شرح ابن الطيب، وفق ابن أبى أصيبعة.

هـ – كتاب المواضيع الجدلية Les topiques

التراجم من اللغة الإغريقية إلى السريانية :

– تراجم منسوبة إلى أثناسيوس البلدى.

– ترجمة إسحاق بن حنين.

– ترجمة سريانية عن اللغة الإغريقية، من المحتمل أن البطريرك طيماثاوس الأول هو الذى قام بهذه الترجمة.

التراجم إلى اللغة العربية :

– ترجمة أنجزها يحيى بن عدى عن الترجمة السريانية لإسحاق بن حنين، وفق ابن النديم.

– ترجمة أبى نوح عن ترجمة طيماثاوس الأول السريانية.

– ترجمة يحيى بن عدى .

الشروح باللغة العربية :

– شرح أبى بشر متى بن يونس، يذكر ابن النديم أنه شرح المقال الأول من الكتاب.

– شرح يحيى بن عدى، وفق ابن النديم.

– شرح ابن الطيب، وفق بن أبى أصيبعة.

و – كتاب الحكمة المموهة Les Réfutations Sophistiques

التراجم باللغة السريانية :

– ترجمة أثناسيوس البلدى، وفق الحسن بن سوار.

– ترجمة أبى بشر متى بن يونس.

– ترجمة تيوفيلوس الرهاوى، وفق ابن النديم.

التراجم إلى اللغة العربية :

- ترجمة ابن نعيمة الحمصى، القرن التاسع.
- ترجمة من السريانية منسوبة إلى يحيى بن عدى.
- ترجمة من السريانية إلى العربية لابن زرعه.

الشروح باللغة العربية :

- شرح ابن الطيب وفق ابن أبى أصيبعة.

٢ - كتاب الميتافيزيقا La Métaphysique

التراجم باللغة العربية :

- ترجمة إسحاق بن حنين لمقال ألفا الصغير Petit Alpha وعدة مقالات أخرى من هذا الكتاب، وفق ابن النديم.
- ترجمة جزئية ليحيى بن عدى للميتافيزيقا وفق ابن رشد.

الشروح باللغة العربية :

- شرح مقال ألفا الصغير ليحيى بن عدى، مخطوطة مكتبة بخار فى كلكتا.

٣ - كتاب الفيزياء La Physique

التراجم باللغة العربية :

- ترجمة إسحاق بن حنين.

الشروح باللغة العربية

- شرح يحيى بن عدى.
- شرح أبى بشر متى بن يونس.
- شرح ابن الطيب النصف الثانى من المقال السابع والمقال الثامن كله .

٤ - كتاب السماء Du ciel

- ترجم الكتاب ابن بطريق ونقحه حنين بن إسحاق، وفق ابن النديم.
- ترجمة القسم الأول من هذا الكتاب من قبل أبى بشر متى بن يونس.

٥ - كتاب الكون والفساد De la Génération et de la Corruption

- ترجمة من اللغة الإغريقية إلى السريانية لحنين بن إسحاق ومن السريانية إلى العربية أنجزها إسحاق بن حنين.

٦ - كتاب النفس De l'âme

- ترجمة من السريانية إلى العربية لإسحاق بن حنين.

٧ - كتاب الحس والمحسوس De sensu et sensatu

- ترجمة مقاطع من الكتاب من قبل أبى بشر متى، وفق ابن النديم.
- شرح ابن الطيب، ذكره ابن رشد فى شرح كتاب عن الروح.

٨ – كتاب البلاغة La Rhétorique

– ترجمة سريانية لإسحاق بن حنين، وفق تكاش وهنريك.

– ترجمة سريانية لأنطوان التكريتي.

– شرح باللغة العربية لابن الطيب، وفق ابن أبى أصيبعة.

٩ – كتاب الشعر La Poétique

– ترجمة من السريانية إلى اللغة العربية لأبى بشر متى بن يونس.

– شرح باللغة العربية لابن الطيب، وفق ابن أبى أصيبعة.

١٠ – كتاب الأخلاق إلي نيكوماك L'Ethique à Nicomaque

– يحتمل أن يكون إسحاق بن حنين قد ترجم هذا الكتاب، وفق ابن النديم.

١١ – الأعمال المنحولة Les ouvrages apocryphee

– بحث عن الاقتصاد Le traité sur l'économie ترجمة ابن زرعة.

– رسالة أرسطو عن الاقتصاد ترجمة ابن زرعة.

١٢ – كتاب المسائل Les questions

– ترجمة حنين أو إسحاق بن حنين.

١٣ – كتاب النباتات De Plantis

– ترجمة إسحاق بن حنين.

ثالثا : كتاب آخرون ترجم لهم السريان

١ - نيقولا الدمشقي (٦٤ ق.م - بداية القرن الأول ب.م)

رجل سياسي معروف، مُؤتَمن هيرودس الكبير وصديق الإمبراطور أغسطس مؤلف كتاب التاريخ الشامل وكتاب حياة أغسطس.

- ينسب فهرست ابن النديم إلى نيقولا إعداده كتاباً مختصراً عن فلسفة أرسطو. وتوجد أجزاء منه في كمبريدج على شكل ترجمة باللغة السريانية. (من هو المترجم) ؟.

- خمسة كتب عن فلسفة أرسطو. ربما يكون ابن زرعة مترجم هذه الكتب، وفق ابن النديم.

٢ - جالينوس ١٣١- ٢٠١

طبيب إغريقي ولد في مدينة بيرغام الواقعة في آسيا الصغرى، مؤلف عدة كتب طبية وفلسفية.

تراجم باللغة السريانية:

- تراجم عديدة لسرجيوس الرأسعيني، وفق حنين بن إسحاق.

- كتاب الأسس المنطقية Institition logica ترجمه حنين بن إسحاق.

- تراجم لأقسام من كتاب البرهان Démonstration من قبل حنين بن إسحاق.

- مقالة من كتاب في عدد المقاييس Les nombres des syllogismes ، ترجمة حنين ابن إسحاق.

- ترجمتان أيضا أنجزهما إسحاق بن حنين.

هـ - كتاب كيف يستفيد الصالحون من أعدائهم

Comment les bons profitent de leurs ennemis

- مقالة ترجمة حبيش بن الأعسم.
- ترجمة عيسى بن يحيى.

و - كتاب قوى النفس تابعة لمزاج البدن **les facultés de l'âme sont en fonction de la disposition du corps**

- مقالة ترجمة حبيش بن الأعسم.

ز - كتاب عن أفكار أبوقراط وأفلاطون

- ترجمة حبيش بن الأعسم.

ح - كتاب الطبيب فيلسوف **Que le bon médecin est un philosophe**

- مقالة ترجمة حنين بن إسحاق.
- ترجمة عيسى ابن يحيى.

ربما يكون ابن الطيب قد ألف ١٧ شرحا لكتاب جاليان وفق ابن أبى أصيبعة.

٣ - الإسكندر الأفروديسى

بدأ عمله حوالى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد

فيلسوف مشائى عمل فى عهد الإمبراطور سيبتيم سيفير، وقام بشرح قسم كبير من أعمال أرسطو باللغة الإغريقية. كان له تأثير كبير على من خلفه من الكتاب.

- عن مبادئ الكل حسب رأى أرسطو Des principes du Tout selon l'opinion d'Aristote

ترجمة حنين بن إسحاق من اللغة الإغريقية إلى السريانية.

-عن العقل حسب رأى أرسطو De l'intellect selon l'opinion d'Aristote

ترجمهُ إلى اللغة العربية إسحاق بن حنين.

- بحث عن الفرق بين الهيولى والجنس Traité sur la différence entre la matière et le genre

ترجمة حنين بن إسحاق.

شرح يحيى بن عدى.

- شرح الإسكندر كتاب الفيزياء لأرسطو، قام بترجمة هذا الشرح من اللغة الإغريقية إلى السريانية حنين بن إسحاق، ومن اللغة السريانية إلى العربية يحيى بن عدى، الكتاب الثانى فقط.

٤ - **فرفوريوس** Porphyre (٢٣٤ - ٣٠١ - ٣٠٤)

فيلسوف ينتمى إلى الأفلاطونية الجديدة، ولد فى مدينة صور، زميل الفيلسوف بلوتان فى روما.

أ - كتاب إيساغوجي

التراجم إلي اللغة السريانية :

- ترجمة هيباس، وفق بومستارك.

- ترجمة بروبا، وفق مخطوطة فهرست المكتبة الكلدوأشورية فى دير سيدة الزروع.
- ترجمة سرجيوس الرأسعيني.
- ترجمة أثناسيوس البلدى.

الشروح باللغة السريانية :

- شرح بروبا.
- شرح ديونيسيوس بن صليبى، محفوظ فى مخطوطة بكمبريدج.

الشروح باللغة العربية :

شرح ابن زرعة، مقالة.

شرح ابن سوار، وفق ابن النديم وابن أبى أصيبعة .

شرح ابن الطيب.

ب - الرد على سحسوس في العقل والمعقول Réponse à Sahsous concernant l'intellect et l'intelligible

ينسب الكتاب إلى فرفوريوس، هناك ترجمة سريانية من سبعة فصول .

ج - كتاب العناصر Le livre des éléments

ترجمة سريانية لمقالة واحدة.

د – تاريخ الفلاسفة Histoire des philosophes

هـ – ربما تكون المقالة الرابعة مترجمة إلى اللغة السريانية، وفق ابن النديم.

٥ – ثامسطيوس Thémistius (٣١٧ – ٣٨٨)

فيلسوف وخطيب يوناني، عضو مجلس الشيوخ ووالى رومانى، مؤلف خُطط وتراجم، شرح أعمال أرسطو.

أ – بحث عن المقولات حسب رأى ثامسطيوس Le traité des Catégories selon l'opinion de Thémistius.

ترجم الشرح حنين بن إسحاق.

– شرح ثامسطيوس لكتاب السماء والعالم De coelo et mundo لأرسطو،

مترجم إلى اللغة العربية ومنقح من قبل يحيى بن عدى وفق فهرست ابن النديم .

– شرح ثامسطيوس لميتافيزيقية أرسطو كتاب الألفا

مترجم إلى اللغة العربية ومشروح من قبل أبى بشر متى بن يونس.

– كتاب الأخلاق إلى نيكوماك L'Ethique à Nicomaque

– شرح ثامسطيوس عدة فصول من هذا الكتاب ترجمت إلى السريانية، وفق كتاب الفهرست.

المفردات الفلسفية بالسريانية

الروابط	ܐܣܘܪܐ
الفن	ܐܘܡܢܐ
ضروري	ܐܠܝܨܐ
الشكل	ܐܣܟܡܐ
التجربة	ܢܘܣܝܢܐ
العارض	ܓܕܫܐ
الاختيار	ܓܘܒܝܐ
الحكم	ܓܙܪ ܕܝܢܐ
السلوك	ܕܘܒܪܐ
الذكاء ، العقل	ܗܘܢܐ
التصرف	ܗܘܦܟܐ
الواجب	ܘܠܝܬܐ
الشهوات	ܪܘܓܐ
المعرفة	ܝܕܥܬܐ
العلم ، التعليم	ܝܘܠܦܢܐ
الحرية	ܚܐܪܘܬܐ
مذنب	ܚܝܒܐ

الفلسفة ، الحكمة	ܚܟܡܬܐ
القدرة القوة	ܚܝܠܐ
القدر ، مصير	ܚܠܩܐ
الطبيعة، الجوهر	ܟܝܢܐ
أداة	ܡܐܢܐ
المعرفة	ܡܕܥܐ
الفطنة	ܣܘܟܠܐ
العمل	ܣܘܥܪܢܐ
الشخص ، الفرد	ܦܪܨܘܦܐ
الرغبة، الإرادة	ܨܒܘܬܐ
حرية الاختيار	ܨܒܝܢ ܢܦܫܐ
الشخص	ܩܢܘܡܐ
الحواس	ܪ̈ܓܫܐ
الرغبة الشهوة	ܪܓܬܐ
الرأي	ܪܥܝܢܐ
السعادة	ܛܘܒܢܘܬܐ
اضطراب	ܫܓܘܫܝܐ
مقولات، أصناف	ܬܓܡܐ
الفكرة	ܬܪܥܝܬܐ

المصادر المهمة

١- المصادر السريانية

عبديشوع الصوباوى :

فهرس المؤلفين، نشر السمعانى، الجزء ٣، ص ٣-٣٦٢، روما ١٧٢٥ . نشر وترجمة يوسف حبى، بغداد، ١٩٨٦ .

٢٢ قصيدة فى محبة الحكمة و العلم ،المخطوطة الفاتيكانية المرقّمة ١٧٤ .

كتاب الفردوس عدن،طبعة الموصل عام ١٩٢٧ .

كتاب المرجانة ،نشره الكردينال مارى مع ترجمة لاتينية عام ١٨٣٨ .

أحُودمِّيه :

مخطوطة المتحف البريطاني، ترجمه إلى الفرنسية فرانسوا نو، تاريخ أحُودمًّيه وماروثا، يتبعها بحث أحُودمًّيه عن الإنسان، فى الباترولوجيا الشرقية، باريس، ١٩٠٦ .

عمر بن متى وصليوا:

أخبار بطاركة كرسى المشرق (نص عربى) ، نشره جيسموندى، روما، ١٨٩٦ .

مارى بن سليمان :

أخبار بطاركة كرسى المشرق (نص عربى) ، نشره جيسموندى، روما، ١٨٩٩ .

برديصـــــــــان:

كتاب شرائع البلدان، نشر وترجمة للفرنسية ، فرانسوا نو: دار نشر ليرو، باريس، ١٨٩٩ .

برحذبشبا عربايا:

تاريخ الآباء القديسين الذين اضطهدوا فى سبيل الحقيقة، نشر وترجمة فرنسية، فرانسوا نو، فى الباترولوجيا الشرقية، الأجزاء ٩-٢٣، عام ١٩١٣ .

برحذبشبا الحلوانى:

سبب تأسيس المدارس، نشر وترجمة للفرنسية أدى شير، فى الباترولوجيا الشرقية، مجلد ٤ عام١٩٠٧ .

ابن العبرى :

كتاب الإحداق، جانسنس، أوكسفورد، سنة ١٩٣٢ .

كتاب الصعود العقلى، ترجمه إلى الفرنسية فرانسو نو، باريس، ١٨٩٠ .

كتاب حديث الحكمة، ترجمه أفرام برصوم إلى العربية ، حمص ، سوريا .

كتاب خلق الروح، نشره بولس صبات، القاهرة، ١٩٢٨ .

كتاب الحمامة،نشره الأب بولس بيجان، باريس، ١٨٥٨ .

نقل الكتاب إلى العربية حبيقة، مجلة المشرق البيروتية ، سنة ١٩٥٦ . ثم نشره البطريرك زكا عيواص مع ترجمة عربية فى بغداد ، سنة ١٩٧٤ .

كتاب الإيتيقون : الأخلاق، نشره الأب بولس بيجان فى باريس، ١٨٩٨، نص سريانى ترجمه إلى العربية بولس بهنام، بغداد ، ١٩٦٧ .

بحث مختصر عن الروح، نشره الأب شيخو فى المشرق ، بيروت ، ١٨٩٨، ثم بولس صبات فى القاهرة ، ١٩٢٨ .

منارة الأقداس، نشر جان باكوش وترجمه إلى الفرنسية، المقدمة فى الباترولوجيا الشرقية ٤، العدد ١١٠ ، باريس ، ١٩٣٠ .

الركن١ عن المعرفة بصورة، ترجمة جان باكوش، ٤، العدد ١١٠، , ١٩٣٠

الركن ٢ عن طبيعة الكون، ترجمة جان باكوش، ٤، العدد ١١٠ و ٣، العدد ١١٨، ١٩٣٣ .

الركن ٣ عن اللاهوت، ترجمة فرانسيس غرافان، ٤، العدد ١٣٣ .

الركن ٤ عن التجسد، ترجمة خورى ، ١، العدد ١٤٨، ١٩٦٤ .

الركن ٥ عن الملائكة، ترجمه توربى،٤، العدد ١٤٦، ١٩٦٣ .

الركن ٦ عن الكهنوت، ترجمة ر. كوهلهاس، ١٩٥٩ .

الركن ٧ عن الشياطين، ترجمة ألبير، ٢، العدد ١٤٤، ١٩٦١ .

الركن ٨ عن النفس العاقلة، جان باكوش، علم النفس لغريغوريوس أبى الفرج الملقب بابن العبرى، وفق الركن الثامن ، ١٩٤٨ .

الركن ٩ عن حرية الاختيار، ترجمة بوارييه، ٤، العدد ١٩٤، ١٩٨٥ .

الركن ١٠ عن القيامة، ترجمة زيكموند سيريو، ٢، العدد ١٦٤، ١٩٦٩ .

الركن ١١ عن يوم الدينونة، ترجمة أن. سيد، ا ٣، العدد ١٨٨، ١٩٨١ .

الركن ١٢ عن الفردوس، أن سيد، ٣، العدد ١٨٤، ١٩٨١ .

بركــونـى :

كتاب سكوليون Liber Scoliorum، دار نشر أدى شير، باريس ١٩١٠،

قاما هسيل ودراغيه بنشره مع ترجمة فرنسية فى CSCO ، سريانية، ١٩٨١– ١٩٨٤

الرهاوى المجهول:

(أحداث سنة ١٢٣٤) الترجمة الفرنسية لألبير أبونا ، الجزء الثانى ملاحظات وفهرست جان م . فييه، لوفان، ١٩٧٤ . ثم قام الأب ألبير أبونا بترجمته إلى العربية ، بغداد .

التاريخ السعردى : نشره المطران أدى شير فى الباترلوجيا الشرقية ، باريس ١٩٠٧ - ١٩١٨ .

جرجيس أسقف العرب:

الترجمة السريانية لكتاب المقولات لأرسطو، إيبرائيكا العدد ٩ ، سنة ١٨٩٣ .

حنيـــــــن :

رسالة إلى على بن يحيى فى ذكر ما تُرجم، مخطوطة آيا صوفيا، نشر وطبع وترجمة برجستراسر فى Abhandelungen für die kunde des morgenlandes ليبزج، ١٩٢٥ .

عشرون بحثا لاهوتيا لمؤلفين مسيحيين عرب، ترجمة ونشر الأب لويس شيخو، بيروت ، ١٩٢٠ .

عشرون بحثا فلسفيا ودفاعا دينيا لكتاب عرب مسيحيين، نشر بولس صبات ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

ابن سوار :

كتاب المقولات لأرسطو فى ترجمتيه السريانية والعربية، بيروت ، ١٩٤٨ .

ابن الطيب :

شرح كتاب إيساغوجى لفرفوريوس ، نشر وترجمة خوام جيكى، بيروت، ١٩٧٥ .

شرح سفر التكوين، ترجمة ونشر الأب ساندرس، لوفان، ١٩٦٧ .

ابن الطيب فقيه النصرانية، هونرباخ، سبايس، لوفان، ١٩٥٧ .

بحث عن القوى الطبيعية، (ابن سينا رسالتى) نشر سولكن، ١٩٥٣ .

ابن زرعة:

عشرون بحثا فلسفيا ودفاعا دينيا لكتَّاب عرب مسيحيين، نشر بولس صبات، القاهرة ١٩٢٩ .

ترجمة كتاب الحكمة الموهة ، نشره عبد الرحمن بدوى، أورغانون أرسطو ٣، القاهرة ١٩٥٢ .

سيريل حداد، عيسى بن زرعة، فيلسوف عربى ومدافع عن الدين المسيحى فى القرن العاشر (كتَّاب وآباء الكنيسة فى الشرق)، أطروحة طبعت فى بيروت ١٩٧١ .

إسحاق بن حنين :

كتاب وصية لتربية الشباب لأفلاطون، نشره الأب شيخو، بيروت ، ١٩١١

كتاب العبارة لأرسطو، ترجمة إسحاق، نشر بولاك وبدوى، القاهرة ، ١٩٥٤ .

كتاب عن النفس لأرسطو، ترجمة إسحاق، نشر بدوى، القاهرة ، ١٩٥٤ .

كتاب تاريخ الأطباء، دار نشر روزنتال فى أورينس ، ١٩٥٤ .

يعقوب الرهاوى :

ب. مارتان هكساميرون، يعقوب الرهاوى، ترجمة فرنسية فى الجريدة الآسيوية، باريس، ١٨٨٨ .

هكساميرون، مخطوطة، باريس، نشره الأب شابو فى باريس ، سنة ١٩٢٨ .

وترجمه فاسكالدى إلى اللاتينية، باريس، ١٩٣٢ .

إنكيريديون، مخطوطة، المتحف البريطانى، نشره فورلانى فى ١٩٢٨ .

نص كتاب المقولات، نشره ك. جور. في مقولات أرسطو بترجمتيه السريانية والعربية، بيروت، ١٩٤٨ .

مارا بن سيرابيون :

رسالة، مخطوطة المتحف البريطاني، نشر وترجمة كيورتون، لندن، ١٨٥٥ .

متى بن يونس :

ترجمة الأورغانون، كتاب البرهان، نشره عبد الرحمن بدوى، القاهرة، ١٩٤٨- ١٩٥٢ .

ترجمة فن الشعر، نشر مرجليوث فى لندن، ١٨٨٧، ثم نشره تكاتش فى فينا، ١٩٢٨-١٩٣٢، و بدوى فى القاهرة، ١٩٥٣، وشكرى عياد فى القاهرة ، ١٩٦٧ .

ميخائيل الكبير :

كتاب التاريخ ، طبعة سريانية وفرنسية، الأب شابو، باريس، ١٨٩٩-١٩١٠ .

نرسـاى:

مذكرات ،ترجمة فرنسية لعمانويل سمعان كاريسكريبت، باريس، ١٩٨٤ .

بولس الفارسى :

منطق بولس الفارسى، (مدخل إلى المنطق) ترجمة لاند، باريس، ١٨٧٥، فى الطرائف السريانية.

بروبـا:

كتاب العبارة، ترجمة بروبا من الإغريقية إلى السريانية وشرحه، هوفمان. ليبزج ١٨٧٣ .

كتاب القياس ، ترجمة بروبا من الإغريقية إلى السريانية نشره ناكى ١٨٩٨، فى الجريدة الآسيوية، باريس، ١٩٠٠ .

كتاب الفيلسوف السريانى بروبا عن كتاب القياس لأرسطو، ترجمه فان هوناكر من السريانية إلى الفرنسية ، الجريدة الآسيوية، الجزء ١٦، ص ٧٠-١٦٦، باريس، ١٩٠٠ .

سرجيوس الرأسعيني:

مذكرات عن الحياة الروحية، نص سرياني وترجمة فرنسية لشيروود، في مجلة أوريان سيريان، ١٩٦٠ و ١٩٦١ .

أصول الشرح الشرقي عن منطق أرسطو لسرجيوس الرأسعيني(ت ٥٣٦) طبيب وفيلسوف، هوجونار روش ،الجريدة الآسيوية، العدد ٢٧٧، سنة ١٩٨٩ .

سيويريوس سيبوخت :

الأسطرلاب، نشر وترجمة فرنسوا نو، باريس، ١٨٩٩ .

الكوسموغرافيا في القرن السابع عند السريان، فرنسوا نو، مجلة المشرق المسيحي ١٩١٠ .

طيماثاوس الأول :

رسائل البطريرك النسطوري طيماثاوس الأول، روفائيل بيداويذ، روما، ١٩٥٦ .

رسائل البطريرك طيماثاوس الأول، براون ١٩١٤– ١٩١٥ .

رسالة طيماثاوس الأول إلى سرجيوس، ترجمة فرنسية لحنا شيخو، روما ١٩٨٣ .

الرسالة ٢٦، ترجمة فرنسية لفرانسوا بريكيل شاتونيه في الصحيفة الآسيوية، سنة ٢٠٠٠ .

دفاع طيماثاوس البطريرك الديني أمام الخليفة المهدي، طبع وترجمة منكنا في دراسات وولبروك، ١٩٢٨ .

التراجم العربية للحوار بين الجاثاليق طيماثاوس الأول والخليفة المهدي، كاسبار، المجلة المسيحية الإسلامية، ١٩٧٧ .

يحيى بن عدي:

تهذيب الأخلاق، دراسة و نص، لجاد حاتم، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٥ .

مقالة في التوحيد، الأب سمير خليل، بيروت، ١٩٨٠ .

بحوث دفاعية صغيرة ليحيى بن عدى، نشر وترجمة فرنسية لبيرييه، باريس، ١٩٢٠ .

يحيى بن عدى، فيلسوف عربى مسيحى فى القرن العاشر، بيرييه، باريس، ١٩٢٠ .

كتاب الأخلاق لأبى زكريا يحيى بن عدى ترجمة فرنسية لمارى تيريز أورفوا، دراسات مسيحية عربية، باريس كاريسكريبت ١٩٩٠ .

٢- المصادر باللغة العربية

أبونا ألبير ، أدب اللغة الآرامية، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠ .

البيهقى ، ظاهر الدين، تاريخ حكماء الإسلام ، دمشق، ١٩٤٦

الشابشتى كتاب الديارات تحقيق و نشر كوركيس عواد. ، بغداد ١٩٦٦ .

أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور، حلب، ١٩٥٦ .

عبد الرحمن بدوى، أرسطو عند العرب، القاهرة، ١٩٤٧ .

لويس شيخو، مقالات فلسفية، بيروت، ١٩١١ .

ثلاثة بحوث و جدل لاهوت مسيحى، بيروت، ١٩٢٣ .

عشرون بحثا لاهوتيا لكتّاب عرب مسيحيين ، بيروت، ١٩٢٠ .

يوسف حبى ، يوحنا بن حيلان معلم الفارابى فى المنطق، مجلة بين النهرين، ١٩٧٥ .

ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، بيروت، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت.

ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء، طبع المعهد العلمى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥ .

أبو العباس بن خلكان، كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة، ١٩٤٨ .

ابن النديم ، كتاب الفهرست، نشر دار المعارف، بيروت.

الكندى، رسائل الكندى الفلسفية، القاهرة، ١٩٥٠ .

المسعودى ، كتاب التنبيه والإشراف. دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١ .

جمال الدين القفطى، كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، نشرفى دارالخديوية بمصر.

ـ **أبو حيان التوحيدى**، كتاب الإمتاع و المؤانسة ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢ - المصادر باللغات الغربية

Badawi, A.R. , La transmission de la philosophie grecque au monde arabe, éd. Vrin, Paris, 1968.

Baumstark, A., Geschichte der syrischen Literatur, Bonn, 1922.

Syrisch-arabische Biographen des Aristoteles, Leipzig, 1898.

Aristoteles bei den Syrern in V6VII Jahrh., 1900.

Chabot, J.-B., La littérature syriaque, Bibliothèque Catholique des Sciences Religieuses, Paris, 1934. L'école de Nisibe, son histoire, ses statuts, Journal de la société asiatique, 9e série, VIII, 1896, p.43-93.

Cheikho, Hanna., P. J. , Dialectique du langage sur Dieu, Lettre de Timothée I (728-823) à Serge, Rome, 1983.

Corbin, H., Histoire de la philosophie islamique, Paris, 1964.

Dauvillier, J. , Les provinces chaldéennes de l'extérieur au Moyen-âge, dans Mélanges Cavallera, 1948. Ebedjesus de Nisibe, DDC, fasc. 25, 1950.

Duval, R., La littérature syriaque, Amsterdam, Philo "Press, 1970.

Eliseeff, N., L'Orient musulman au Moyen-âge, Paris, éd. Armand Colin.

Fiey, J.M., L'Assyrie chrétienne, trois vol., Imprimerie catholique, Beyrouth, 1965-69.

Chrétiens syriaques sous les Abbassides, surtout à Bagdad, vol. 420, t. 59, Louvain, CSCO, Waversebaan, 49, 1980.

Chrétiens syriaques sous les Mongols, vol. 362, t. 44, Louvain, CSCO, Waversebaan, 49, 1975.

Jalons pour une histoire de l'?glise en Iraq, CSCO, 310, 1970.

Georr, K., Les catégories d'Aristote dans leurs versions syro-arabes, Beyrouth, 1948.

Haddad, C., Isa Ibn Zura, philosophe arabe et apologiste chrétien, Thèse, Paris, 1952. éd. Beyrouth, 1970.

Hayes, E., L'école d'?desse, Paris, 1930.

Hugonnard-Roche, H., Aux origines de l'exégèse orientale de la Logique d'Aris-Sergius de Resh'aina (mort en 536), médecin et philosophe, Journal asiatique : tote 277, 1989, p. 1-17.

Labourt, J., Le christianisme dans l'empire perse sous la dynastie sassanide. Paris, 1904.

De Lacy O'Leary, How Greek science passed to the Arabs, Londres. 1949, 1951.

Landron, B., Attitudes Nestoriennes vis-à-vis de l'Islam, Cariscript, Paris. 1994.

Le Coz, R., Histoire de l'?glise d'Orient, éd. du Cerf, Paris, 1995.

Meyerhof, M., Transmission of science to the Arabs, Islamic Culture, XI, 1937.

Nau, F., Les traductions du grec en syriaque au VIIIeme siècle, RHL, IC, 1929.

Platti, E. , Yahya Ibn Adi, Department Orientalistiek, Leuven.

Quadri, G., La philosophie arabe dans l'Europe médiévale, trad. R. Huret, 1947.

Renan, E., Histoire des origines du christianisme, éd. Robert Laffont. coll. Bouquins, 1995.

Teixidor, J., Bardesane d'?desse, éd. du Cerf, 1992.

Dictionnaire de théolo- , Tisserand, E.article "L'Église nestorienne sous les Sassanides" gie catholique, fasc.XCI-XCII, Paris, 1930.

Troupeau, G.. La littérature arabe chrétienne du Xeme au XIIeme siècle, Cahier de Civilisation Médiévale, 14eme année, 1, janvier-mars 1971, Paris.

Vosté, J., Catalogue de la bibliothèque syro-chaldéenne du couvent Notre-Dame des Semences, Paris, 1929.

Watt,W., Islamic philosophy and theology, Edimbourg, 1962.

History of the School of Nisibis, CSCO 266, Louvain, 1965.

Wright, W., History of Syriac Literature, Londres, 1894.

Yacoub, J., Les Assyro-Chaldéens un peuple oublié de l'histoire, Paris, 1987.

Yousif,I., Les philosophes et traducteurs syriaques, d'Athènes à Bagdad, éd. L'Harmattan, 1997.

Yousif,I., Les chroniqueurs syriaques, éd. l'Harmattan. Paris, 2002.

****

المؤلف في سطور:

إفرام عيسى يوسف

ولد في قرية سناط التابعة لمدينة زاخو عام ١٩٤٤ في العراق، وأكمل دارساته في مدينة الموصل.

انتقل عام ١٩٧٤ إلى فرنسا،ثم دخل جامعة مدينة نيس في جنوب فرنسا، حيث درس الحضارات القديمة و الفلسفة، نال الدكتوراه في الحضارات عام ١٩٨٠

- نال شهادة ثانية في الفلسفة من جامعة تولوز الفرنسية عام ١٩٨١ .

- درَّس الفلسفة في جامعة تولوز، منذ عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٩٢ .

- استقر في باريس منذ عام ١٩٩٢، يعلم و يحاضر في المعاهد و المراكز و الجامعات.

- يعمل منذ عام ١٩٩٥ مديراً لقسم الشرق الأوسط و المغرب العربي في دار النشر لارماتان، إحدى كبريات دور النشر الفرنسية.

- ألف و نشر ٨ كتب باللغة الفرنسية، و هي:

* عطور الصبا في سناط ، قرية مسيحية في كردستان العراق.

* بلاد الرافدين جنة الأيام الخوالي .

* الفلاسفة والمترجمون السريان.

* ملحمة دجلة و الفرات.

* المؤرخون السريان.

* ازدهار الفلسفة عند السريان.

* تاريخ بلاد ما بين النهرين.

* المؤرخون السريان يتكلمون عن الحروب الصليبية.

ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغة التركية أو العربية .

* له مقابلات ومداخلات تلفزيونية وصحفية وإذاعية فى وسائل الإعلام الفرنسية والأجنبية.

* اشترك فى عدة مؤتمرات دولية، فى تونس وإنجلترا وسويسرا وبلجيكا وألمانيا والسويد، وألقى محاضرات متعددة فى هذه الدول.

* له مقابلات صحفية وإذاعية فى وسائل الإعلام العربية المتعددة.

* أحد الأعضاء المؤسسين لمجمع الدراسات السريانية فى باريس.

* عضو فى إدارة تحرير مجلة الدراسات الكردية.

* عضو فى اتحاد الكتاب الفرنكوفونيين، الناطقين بالفرنسية.

التصحيح اللغوى : إبراهيم عبد التواب
الإشراف الفنى : حسن كامل

السريان من الشعوب الشرقية القديمة التي أثرت الحضارة الإنسانية على أنحاء عدة، كان منها الترجمة والفلسفة. وقد انقسموا في القرن الخامس الميلادى إلى طائفتين كبيرتين، استوطنت إحداهما بلاد ما بين النهرين وإيران، وأطلق عليهم النساطرة، بينما استوطنت الطائفة الثانية سوريا وأعالي بلاد ما بين النهرين وأطلق عليهم اليعاقبة.

ظهرت الكتابات السريانية الأولى في أوائل القرن الأول الميلادى، وكان معظمها نقوشاً صخرية، ثم تطورت اللغة السريانية في المنطقة الواقعة حول مدينة الرها. وما لبثت اللغة والثقافة السريانية أن انتشرتا في أواخر القرن الثانى الميلادى فى مدن عدة مثل نصيبين، وأربيل وسلوقية.

واستمر الإسهام الثقافى للسريان في سبيله طيلة العصور التالية، وكانت لهم إسهامات جليلة فى الثقافة والحضارة.

يعرض هذا الكتاب لحياة وأعمال أهم المترجمين والفلاسفة السريان على مر العصور، من مارا الفيلسوف الرواقي فى القرن الأول أو الثاني، وصولاً إلى حنين بن إسحق وإسحق بن حنين فى العصر العباسى، وكثيرين بعدهم، مروراً بهياس المترجم، وبولس الفارسى، وأثناسيوس البلدى، وجورج أسقف العرب، وطيماثاوس الأول صديق الخلفاء.

لوحة الغلاف من أعمال الفنان مايكل الحلو

تصميم الغلاف: أمين الصيرفي

